مد أحمد باشميل

موسوعة الغزوات الكبرى ١

غزوة الأحزاب

المكتبة السلفية

محمد أحمد باشميل

من معارك الإسلام الفاصلة

٣

غزوة الأحزاب

المطبعة السلفية ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة ـ القاهرة ٠ ٨٤٠٣٦٤

(الطبعة السادسة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)

غزوة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيد الأبرار ، نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الاخيار وصحابته الذين هاجروا إلى الله والذين آووا ونصروا ، رهبان الليل وفرسان النهار .

وبعد ، لقد منّ الله تعالى علينا فأصدرنا (بعونه وتوفيقه) كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) وكتابنا الثانى (غزوة أُحد) ، وهما حلقتان من سلسلة (معارك الاسلام الفاصلة) التى اعتزمنا بعون الله تعالى إصدارهما تباعاً .

ويسرنى اليوم أن أتقدم إلى القرآء الكرام بهذا السفر الجديد (غزوة الاحزاب) ، وهو الكتاب الثالث من هذه السلسلة ، والذى سيتلوه (قريباً إن شاء الله) الكتاب الرابع ، عن معركة تصفية العنصر اليهودى وتخليص الجزيرة العربية من شروره وآثامه ومؤمراته التى لم تنته إلا بضرب هذا العنصر الخبيث ضربة صاعقة فى أوكاره (فى خيبر وبنى قريظة فى المدينة) .

١

إن هذا الكتاب كسابقيه (غزوة بدر الكبرى) و(غزوة أُحُد) لن يقتصر فى محتواه على تفصيل حوادث معركة الأحزاب فقط ، بل سيحتوى

ملَخص دقيق لكل الأحداث السياسية والعسكرية التى عاشها المسلمون مابين (غزوتى أحد والاحزاب) .

ومن ذلك سبع حركات عسكرية سريعة قام بها الجيش الاسلامى (أكثرها بقيادة النبى ﷺ نفسه) لتعزيز مركز المسلمين وتوطيد هيبتهم التى اهتز مركزها فى النفوس وأخذ الأعراب يطمعون فى الإغارة على المدينة ، نتيجة الانتكاسة العسكرية التى أصابت المسلمين فى معركة أُحد .

٢

سيتضح للقارىء الكريم (من تتبع أحداث غزوة الأحزاب هذه ، ودراسة تفاصيل أسبابها ومسبباتها وبواعثها وغاياتها) أن هذه الغزوة الخطيرة المريعة ، ليست فى (حقيقتها) إلا حملة يهودية صرفة ، قد مونت بأموال إسرائيلية ، وجاءت وفق تصميمات دقيقة مدروسة محكمة ، وضعها مفكرون إسرائيليون تطفح نفوسهم بالحقد القاتل على الإسلام ونبى الإسلام .

فهذه الغزوة التاريخية الخطيرة ، وإن كانت (فى الشكل والمظهر) تحمل الطابع العربى (القرشى والغطفانى) إلا أنها – في أهدافها العميقة ومراميها البعيدة وغاياتها الخبيثة – هى غزوة يهودية (لحماً ودماً) .

فكل الأدلة القاطعة ، قد تقاطرت على أن هذه الغزوة – عندما وجهت لإبادة المسلمين وتهديم كيانهم من الاساس – لم يكن لها من محرك حقيقى

فعال – منذ بدأت حتى فشلت – سوى اليهود واليهود فقط .

٣

لقد كان حرص اليهود على الإطاحة بالمسلمين والقضاء على الاسلام ذاته ، قديماً ، قدم الصراع بين اليهودية والإسلام ، هذا الصراع الذى كان قد بدأ منذ اللحظة التى بزغت فيها شمس الاسلام .

ولكن هذا الصراع الذى لم يتخذ طابع الوضوح والعنف ، إلا عندما وصل النبى ﷺ إلى المدينة . وأخذ حلفاء اليهود (الأوس والخزرج) يتسابقون إلى الدخول فى هذا الدين بسرعة أذهلت اليهود وأقلقت بالهم وأقضت مضاجعهم .

لأنهم بمجرد وصول النبى ﷺ إلى يثرب شعروا باهتزاز سلطانهم الفكرى والسياسى والمالى الذى به كانوا يسيطرون على سكان يثرب وماجاورها منذ قرون عديدة ، وذلك لأن هؤلاء العرب (سواء فى يثرب أو ماجوروها) كانو (فى الجاهلية) دون اليهود فيما يختص بالثقافة ومعرفة الأديان ، والخبرة الاقتصادية وأساليب جمع المال وكنزه ، فكان اليهود (لسذاجة هؤلاء الاعراب) يتحكمون فيهم اقتصادياً ، عن طريق قروض الربا ، التى هى دعائم اقتصاد اليهود فى كل عصر وزمان ، بالإضافة إلى أن هؤلاء اليهود كانوا (قبل الإسلام) مرجعاً لهؤلاء الاعْراب فى كثير من استفساراتهم الروحية ، فكان ذلك مصدر سلطانهم على المنطقة .

ولذلك (وحسداً للنبى ﷺ) قاموا بعدة محولات لتنفير العرب عن

الدين الجديد بشتى وسائل الكذب والتشكيك والإرجاف وكانت هذه محاولاتهم الأولى لمقاومة دعوة الإسلام .

ولكنهم فشلوا في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً ، حيث لم يمر على قدوم صاحب الرسالة العظمى محمد ﷺ إلى يثرب ، ستة أشهر حتى أصبح أكثرية عرب هذه المنطقة يدينون بالإسلام ، ويبذلون المهج والأرواح في سبيل حمايته ونصرته ، الأمر الذى جعل اليهود يلجأون إلي العنف .

وفي خلال أربع سنوات قام اليهود للتخلص من الإسلام وحامل (رسالته) بعدة محاولات جريئة يائسة ، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت وعادت على هؤلاء اليهود بنتائج عكسية حيث كانت هذه المحاولات العدوانية سبباً في نفى قبيلتين كبيرتين من هؤلاء اليهود عن المدينة (هما بنو قينقاع وبنو النضير)[1] .

وكانت آخر محاولة عدوانية خطيرة قام بها اليهود هى محاولة بنى النضير اغتيال النبى ﷺ وهو آمن في ديارهم ، الامر الذى أدى إلى ضرب الحصار وإجلائهم عن يثرب وذلك قبل معركة الأحزاب بستة أشهر فقط ، ولقد نزل بنو النضير مدينة خيبر التي كانت - منذ القدم - مركزاً للتجمع اليهودى .

٤

لقد كان يهود بنى النضير من أغنى أغنياء اليهود ، وكانوا

---

(١) سيأتى تفصيل حادثة إجلاء بنى النضير فى هذا الكتاب إن شاء الله .

يتحكمون فى اقتصاد منطقة يثرب وماجاورها تحكماً كاملاً ، وكان زعماؤهم – بالإضافة إلى هذا – يمتازون بالدهاء والمكر والحقد العارم على النبى ﷺ خاصة (١) .

ولم يكن النبى ﷺ شديداً فى معاملتهم عندما نفاهم من المدينة بعد ضرب الحصار عليهم ، فقد سمح لهم بأن ينقلوا معهم كل مايقدرون على حمله من الأموال ، ومن المعروف عن اليهود منذ القدم أن أكثر ما يكنزونه هو الذهب والفضة .

ولهذا فقد أوقر هؤلاء اليهود عشرات الجمال وحملوا معهم كل مايملكون من ذهب وفضة وهو شىء عظيم ، حتى إن أحد زعمائهم

---

(١) روى ابن إسحاق فى السيرة عن صفية (أم المؤمنين) وهى بنت حيى بن أخطب كبير زعماء يهود بنى النضير ، قالت : كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه ، قالت .. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزل (قبا) فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى حيى بن أخطب ، وعمى ياسر بن أخطب مغلسين، قالت فلم يرجعا ، حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت .. فأتيا كالين كسلانين ساقطين ، يمشيان الهوينا .

قالت فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فو الله مالتفت إلى واحد منهما ، مع مابهما من الغم ، قالت .. فسمعت عمى ياسر يقول لأبى حيى بن أخطب : أهو ، هو ؟؟ . (يعى النبى صلى الله عليه وسلم) .

قال .. نعم والله .

قال .. أتعرفه وتثبته ؟؟ . أى مما تجد من صفاته فى التوراة ؟ .

قال ... نعم .

قال .. فما فى نفسك منه ؟؟ .

قال : عداوته (والله) مابقيت .

ومن خلال هذا الحديث الذى دار بين زعيمى بن النضير يتضح للقارىء مدى البغض الشديد والحقد العارم الذى ينطوى عليه هؤلاء اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم ومدى تصميمهم على التخلص منه مهما كانت الوسائل التى يكون بها هذا التخلص .

(هو سلام بن أبى الحقيق) حمل معه عند الجلاء خزينة كبيرة (جلد ثور) مملوءة ذهباً وفضة ، وكان يضرب على هذه الخزينة قائلاً (وكأنه يهدد المسلمين بالغزو) : « هذا الذى أعددناه لرفع الأرض وخفضها » .

ولقد حاول اليهود (فعلاً) - عن طريق سلطانهم المالى - أن يخفضوا الأرض ويرفعوها ، فلم تمض على إقامتهم فى منفاهم الجديد (خيبر) ستة أشهر حتى خرجوا بمخطط جهنمى رهيب ، يهدفون من وراء تنفيذه إلى سحق المسلمين فى المدينة سحقاً كاملاً ليستعيد بنو إسرائيل (من جديد) سيطرتهم على منطقة يثرب .

فقد رسم اليهود فى (خيبر للتخلص من المسلمين فى يثرب) مشروع غزو كبير ، تقوم به قوة ضاربة متحدة من أقوى القبائل العربية المعادية للإسلام (وخاصة قريش وغطفان) .

ولتحقيق هذ المشروع الخطير التى رسمت خطوطه فى (خيبر) قام زعماء اليهود وعلى رأسهم (حُيى بن أخطب سيد بنى النضير) بالسفر إلي مختلف الأقاليم العربية فى الجزيرة وطافوا على مختلف القبائل واجتمعوا بزعمائها شارحين لهم تفاصيل مشروعهم الكبير ومثيرين فيهم روح العداوة للمسلمين ، مستخدمين (فى الدرجة الأولى سلاح المال ، سلاح اليهود الرئيسى فى كل عصر وزمان) الاغراء لزعماء الأعراب وشرائهم بالرشاوى ليستجيبوا لهم ، حتى إن هؤلاء اليهود جعلوا لقبائل غطفان النجدية جميع ماأنتجته (خيبر) من ثمار لسنة واحدة مقابل قبول هذه القبائل المشروع اليهودى والموافقة عليه .

ولقد نجح اليهود نجاحاً كبيراً فى مهمتهم ، حيث وافقت قريش وغطفان (وهم أقوى وأعظم قبائل الجزيرة) على مشروع اليهود لغزو المدينة .

ولم يعد وفد خيبر من رحلته إلا وهو على رأس عشرة آلاف مقاتل (أربعة آلاف منْ قريش وأحلافها ، وستة آلاف من غَطفَان وأحلافها) .

وقد أنزل اليهود هذه الجيوش العظيمة بأطراف المدينة .. وأحلام العودة إلى المدينة والسيطرة عليها من جديد تستولى على كل مشاعرهم .

والحق أن عملية الغزو هذه كانت عملية منظمة مركزة مخيفة ، فكان كل شىء فى الظاهر عند وصول جيوش الأحزاب يوحى بأن أيام الكيان الاسلامى كله أمام هذا الغزو الساحق الرهيب ، أصبحت معدودة .

ولم لا ؟ .. عشرة آلاف مقاتل من فرسان العرب وشجعانهم مجهزة أحسن تجهيز يساندها رأس المال اليهودى المخيف ويخطط لها الفكر الاسرائيلى الخبيث ، تُطبق من كل ناحية على ألف مقاتل من المسلمين ، ينقصهم كل شىء إلا الإيمان بالله .. ولكن الله غالب على أمره .

٥

﴿ إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ .

إن هذه الآية (وهى تصف أهوال غزوة الأحزاب) تعبر فى إيجاز أبلغ من التفصيل - أصدق تعبير عن مدى خطورة هذه الغزوة ، ومدى ماتعرض له المسلمون فيها من عظيم الكرب وشدة القلق والخوف والفزع الذى بلغ بهم حد الاختناق .

لقد تحدث القرآن الكريم عن متاعب المسلمين فى كثير من معارك التحرير الكبرى التى خاضها المسلمون بقيادة نبيهم الأعظم ﷺ كبدر وأحد وحنين ، ولكنه لم يذكر أن حالة الجيش الإسلامى قد بلغت بهم من الكرب والشدة والرعب إلى الدرجة التى تحدث عنها فى غزوة الأحزاب هذه .

فمعركة الأحزاب (إذن) ، وإن لم يكن جرى فيها كبير قتال ، هى (بشهادة القرآن الكريم) أخطر معركة فى تاريخ الاسلام ، وهى بحق معركة المصير .

إنها (فعلاً) لم تكن معركة فضل فيها الرمح والسيف ، ولكنها كانت معركة أعصاب ، كان السلاح الرئيسى الذى واجهه المسلمون فيها هو الخوف والرعب والقلق والإرجاف والانقسام والغدر والخيانة فى الساعات الحاسمة .

وفاعلية هذا السلاح تكون فى المعارك (غالبا) أشد من فاعلية السيف والرمح والسهم .

لقد أجمع المعنيون بأخبار معارك الاسلام على أن المسلمين لم يكونوا على درجة من الخوف والشدة والقلق والجزع والاضطراب ، مثلما كانوا عليه فى غزوة الأحزاب .

قالت أم المؤمنين (أم سلمة - رضى الله عنها) : « شهدت مع

رسول الله ﷺ مشاهد فيها قتال وخوف .. المريسيع وخيبر ، وكنا بالحديبية وفى الفتح وحنين ، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق (تعنى معركة الأحزاب) ، وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحرجة (الشجرة الصغيرة الملتف عليها الشجر من كل ناحية) وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، فالمدينة تحرس حتى الصباح نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً » أ هـ .

٦

وبينما كان المسلمون فى أمر عظيم من الكرب والشدة والامتحان إذا بحلفائهم يهود بنى قريظة (الواقعة منازلهم خلف خطوط الجيش الإسلامى) يعلنون – فى خسة ونذالة – نقض العهد الذى بينهم وبين المسلمين ، ويعلنون انضمامهم الى جيوش الأحزاب الغازية ، فيصبحون (وهم مايقرب من ألف مقاتل) قوة ثانية مستعدة لضرب مؤخرة الجيش الإسلامى الصغير الذى لايزيد عدده (فى أصح ، التقديرات) على ألف مقاتل ، والذى قد وقف بأكمله لمواجهة عشرة آلاف مقاتل تهدده أمواجها بالغرق فى كل لحظة .

وهكذا تضاعف الكرب وازداد البلاء على المسلمين واستحكمت فصول المحنة ، ولم يقف الكرب والبلاءُ والامتحان عند هذا الحد ، بل أبى الله (لحكمة يعلمها) إلا أن يبلغ الكرب والبلاءُ والامتحان بجيش المدينة الذروة .

فقد ظهرت (فى تلك الساعات الرهيبة الحاسمة) داخل الجيش الإسلامى نفسه قوة ثالثة أعلنت التمرد وظهر رجالها على حقيقتهم جبناء رعاديد يظهرون مالا يبطنون ، وهم المنافقون الذين أخذوا (فى تلك اللحظات الحاسمة من ساعات المصير) ينسحبون من صفوف الجيش متذرعين بشتى الأعذار تاركين النبى ﷺ والقلة من صفوة أصحابة فى مهب العاصفة المدمرة .

وهكذا هزّت المحن والبلايا جيش محمد ، فى غربالها بعنف من جديد فتساقط من ثقوب هذا الغربال من تساقط ، من ضعاف الإيمان .

ولم يبق بجانب النبى الأعظم ﷺ فى تلك الليالى الرهيبة المرعبة ، إلا ذلك النوع من الرجال الذين عندما اهتز غربال المحن والبلايا كانوا أكبر من ثقوبه فضاقت عن أن تستوعبهم فيسقطوا ، لأنهم كانوا (بإيمانهم ويقينهم) أعظم من تلك المحن والخطوب وأكبر من البلايا والكروب ، فقد ثبتت تلك الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ مع نبيها العظيم ﷺ أمام تلك الخطوب والأهوال التى تنخلع لها القلوب ، وقاوموا ذلك الغزو الساحق الرهيب ، بصبر وجلد منقطع النظير حتى جاءهم النصر من عند الله فهزم الأحزاب ، وجنت قريظة الغادرة ثمار غدرها وخيانتها فدفعت ثمن هذا الغدر والخيانة غالياً ، رؤوس ثمانمائة من رجالها قطعت بأيدى المسلمين بعد محاكمة عادلة نزيهة .

إن النظر بتفهم ووعى وتبصر فى مواقف أصحاب محمد ﷺ ، من حوادث معركة الأحزاب الرهيبة مع التطبيق يمكن (بل يجب) أن يكون قاعدة لكل العقائد يين الذين يريدون (صادقين لا متاجرين) أن يتحملوا مسئولية الدعوة إلى الله والنضال فى سبيل إعلاء كلمة الله .

فبالنظر فى تفاصيل حوادث هذه المعركة المثيرة سيرى شباب الإسلام العقائدى وكهوله الصادقون ، كيف يكون الثبات على الحق وكيف يكون النضال والتضحية والفداء ، فى سبيل حماية ورفع راية الدعوة الاسلامية التى كثر الضجيج (فى زماننا هذا) باسمها ولكنه ضجيج كضجيج الرحى الذى يصم الآذان دون أن يرى الناس له طحناً .

فإلى كل المناضلين الصادقين فى سبيل البعث الإسلامى الصحيح (أينما كانوا ومن أى لون أو جنس كانوا) نتقدم بهذا السفر من تاريخ أولئك العظماء الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقامت على قواعد جهادهم الحق ونضالهم الصادق أعظم وأعدل دولة عرفها التاريخ ، فعسى أن يستفيد المناضلون الأحفاد من درس تاريخ أولئك البناة الاجداد ، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد أحمد باشميل

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

شهر صفر ١٣٨٥ هـ – يونية ١٩٦٥م



الفصل الأول

مجمل الاحداث العسكرية والسياسية
بين معركتى أحد والأحزاب

* ست حملات عسكرية يقوم بها النبي ﷺ . لتأديب الأعراب قبل غزوة الأحزاب .
* محاولة بي النضير اغتيال النبي ﷺ .
* إجلاء هؤلاء اليهود عن المدينة .
* محاولة المنافقين إثارة الحرب الأهلية بين المسلمين.
* حديث الإفك .

الأثر السيىء بعد معركة أحد

بالرغم من الهزة العنيفة التى تعرض لها المسلمون بعد انتكاستهم العسكرية فى معركة أحد ، فإنهم ظلوا مسيطرين على الموقف سيطرة تامة.

لاسيما بعد الحركات العسكرية السريعة الناجحة التى قام بها جيش المدينة - بعد معركة أحد .

إن أهم الاحداث السياسية للمسلمين . بعد معركة أُحد ، هى أن مركزهم فى منطقة يثرب خاصة والجزيرة العربية عامة ، قد تأثر تأثراً

ملموساً كنتيجة حتمية لانتكاستهم العسكرية الموجعة فى موقعة أُحد .

فقد انخفضت نسبة هيبتهم فى نفوس القبائل العربية الباقية على الوثنية وفى نفوس اليهود والمنافقين الذين كانوا قد امتلأت نفوسهم رعباً وفزعاً من المسلمين بعد انتصارهم الساحق فى معركة بدر الكبرى الشهيرة.

ولم تخف على المسلمين هذه الحقيقة المُرة ، فصار المسلمون يبذلون قصارى جهدهم (عسكرياً وسياسياً) ليثبتو عملياً) لهؤلاء الأعداء بأنهم مخطئون جداً ، إذ يظنون أن المسلمين - بعد معركة أُحُد - من الضعف بحيث يقدرون على النيل منهم .

وليثبتوا لهم أنهم (أى المسلمين) قادرون على سحق كل من تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم قاموا بحركات عسكرية سريعة ناجحة أنزلوا فيها بالأعداء ضربات زلزلت معنوياتهم زلزالا شديداً وجعلتهم يصححون مفاهيمهم الخاطئة عن مدى قوة المسلمين العسكرية وترابطهم السياسى والمعنوى ، وخاصة المعسكر القرشى واليهودى الذين شهدوا (قبل غيرهم) أول حركة عسكرية بارعة رائعة ناجحة قام بها المسلمون ليثبتوا للأعداء أن وجودهم العسكرى والسياسى والعقائدى لايزال على ماكان عليه من القوة والمتانة ، وأن أحداث الانتكاسة فى موقعة أُحد لم يكن لها أى تأثير على هذا الوجود .

حملة حمراء الأسد

وكانت هذه الحركة التى نعنى هى حملة حمراء الأسد التى قام بها

النبى ﷺ صبيحة اليوم الذى دارت فيه معركة أُحد ، فطارد جيش مكة الذى وصله خبر هذا الحملة وهو معسكر فى فج الروحاء يعتزم الرجوع إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين ، فدبَّ الفزع فى نفوس قادته لحركة المطاردة الجريئة هذه ، فلم يعدلوا عن الزحف على المدينة فحسب ، بل لقد انتابهم الخوف فجبنوا عن ملاقاة جيش المدينة الذى خرج لمطارتهم والذى ظنوه قد تحطم تحطيماً كاملاً فى معركة أُحد .

فقد اجتمع قادة قريش فى الرَّوحاء وتدارسوا الأمر فيما بينهم فقرروا مواصلة الانسحاب إلى مكة بالرغم من علمهم بوجود جيش المدينة (الذى خرج لمطاردتهم) على بعد عدة أميال منهم .

فانسحبوا إلى مكة مفضلين عار الفرار على الاشتباك مع هذا الجيش المدنى الحانق الذى كانوا على يقين بأنه (على صغره) سيكون إذا ما اصطدموا به كالإعصار الذى يحطم كل مايلاقى .

وهكذا نجح النبى ﷺ فى هذه الحملة العسكرية السريعة (حملة حمراء الأسد) نجاحاً باهراً فسجل نصراً عسكرياً سريعاً عظيماً ، ظفر المسلمون على أثره بنصر سياسى أعظم فى المحيط اليثربى خاصة ، وفى الجزيرة العربية عامة . حيث صحح هذا النصر النظرة الخاطئة التى كان اليهود والمنافقون ينظرونها إلى الجيش الإسلامى بعد انتكاسته فى معركة أُحد .

فقد تأكد لدى اليهود والمنافقين فى المدينة (خاصة) بعد نجاح المسلمين فى حملة حمراء الأسد أن هؤلاء المسلمين هم من القوة والصلابة

بحيث يستحيل على أية قوة - وخاصة فى يثرب - القيام ضدهم بأى عمل عسكرى مهما كان نوعه .

وهذا عكس ماكان يعتقد هؤلاء الأعداء ، ولهذا فإنهم أصيبوا بالدهشة والذهول عندما بلغهم أن جيش مكة - الذى ظنوه انتصر على المسلمين فى أحد - قد نكل عن المعركة وفر هارباً أمام جيش المدينة الذى اعتقدوا أنه قد تحطم عند سفوح جبل أُحد ، رأوا هذا الجيش يعود إلى المدينة مرفوع الرأس ، ولسان حاله يقول لهؤلاء اليهود المتربصين ، من الأصلح لكم أن تلتزموا الهدوء فإن أية حركة تأتى من ناحيتكم فإن مصيرها لن يكون إلا السحق الكامل .

وفعلاً .. فإن اليهود وأنصارهم السريين (المنافقين) قد أعادوا النظر فى مخططهم ولم يتسرعوا فى تنفيذ هذا المخطط فالتزموا الهدوء ، والسبب المباشر فى ذلك كله هو نجاح النبى ﷺ فى حملة حمراء الأسد (١) الجريئة تلك الحملة التى أعادت للجيش الإسلامى هيبته وجعلته يعود سيداً للموقف فى يثرب كما كان دون منازع ، بالرغم من الخسائر الباهظة التى تعرض لها - فى الرجال - فى معركة أُحد .

الحركات العسكرية ضد الأعراب

وبينما كان الرسول ﷺ يوطد دعائم الأمن والاستقرار فى منطقة يثرب كانت قبائل العرب الأخرى فى منطقة الحجاز ونجد ترسم مخططاتها وتشرع فى تجمعاتها للإغارة على المدينة وضرب المسلمين فيها ، مغتنمين

---

(١) انظر تفاصيل حملة حمراء الأسد فى كتابنا (غزوة أحد)

فرصة أثر الضربة الموجعة التى نزلت بالمسلمين فى معركة أُحد ، والتى ظنها هؤلاء الأعراب ضربة قاتلة .

فقد طمع هؤلاء الأعراب الوثنيون فى المسلمين وأخذ كل منهم يفكر فى ضربهم ويعد العدة للإغارة عليهم وانتهاب أموالهم وسبى نسائهم وذراريهم

نشاط الاستخبارات النبوية

ولم تكن الاستخبارات النبوية العسكرية غافلة عن هذا التفكير والتحرك ، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يقوم الأعراب بتحركات عسكرية سريعة ضد المسلمين ، بعد الذى نزل بهم فى معركة أُحد .

ولذلك فقد نشطت استخبارات المدينة نشاطاً واسعاً فى مجال مراقبة مناطق هؤلاء الأعراب لتكون على علم مسبق بأية حركة يعتزم هؤلاء الأعراب القيام بها ضد المدينة ، فتنقل هذه الاستخبارات كل ما يجد بهدا الصدد إلى القيادة العليا فى المدينة أولا بأول .

فصارت القيادة فى المدينة على علم تام بأية حركة يعتزم أحد من هؤلاء الأعراب القيام بها ضد المسلمين ، وقد ساعد نشاط استخبارات المدينة القيادة فيها على التيقظ والتحرك بسرعة لضرب أية قبيلة تنوى الهجوم على المدينة ، وذلك قبل أن تتم هذه القبيلة عمليات الحشد والتجهيز.

فقد سارع النبى ﷺ إلى القيام بعدة حركات عسكرية هجومية حاسمة وسريعة ، قادها بسرعة خاطفة إلى منازل هؤلاء الأعراب ، فوضع بها حداً لأطماعهم وألقى بها عليهم دروساً عملية قاسية ، جعلتهم

يصححون مفاهيمهم الخاطئة عن مدى قوة المسلمين العسكرية التى ظنوها قد انهارت نتيجة ما أصابهم فى ملحمة أُحد .

عدد الحملات العسكرية بين أحد والاحزاب

لقد كانت الحملات العسكرية التى حدثت مابين معركتى (أُحد والأحزاب) سبع حملات ، كان المسلمون هم البادئون فيها بالهجوم .

ولما كان الاعراب (وخاصة أعراب نجد) هم أول المفكرين فى الإغارة على المسلمين فى المدينة وأكثر الناس جرأة وأسرع الى التجمع لتنفيذ ما كانوا يفكرون فيه ، فإن أكثر الحملات العسكرية التى جردتها المدينة قد وجهت ضد هؤلاء الأعراب .

فقد كانوا هدفاً لست من هذه الحملات العسكرية التى قاد النبى ﷺ بعضها بنفسه .

بينما لم يتعرض اليهود (قبل غزوة الأحزاب وبنى قريظة) إلا لحملة عسكرية واحدة ، وهى الحملة التى قام بها المسلمون ضد يهود بنى النضير فى ضواحى المدينة .

ولعل مما ساعد القيادة فى المدينة على ضرب هؤلاء الاعراب والتنكيل بهم فى ديارهم ووضع حد لأطماعهم بطريقة حاسمة ، هو أنهم لم يكونوا عند تفكيرهم فى الإغارة على المدينة جبهة واحدة .

لان باعث تفكيرهم للإغارة على المسلمين لم يكن باعثاً عقائدياً أو سياسياً جاء نتيجة مخطط مدروس ، وإنما كان باعث ذلك التفكير هو

الرغبة فى السلب والنهب والسبى فحسب ثم العودة إلى ديارهم ، كما هى العادة المتبعة لديهم فى حروبهم منذ عشرات القرون .

فلم يكن هدفهم من الاغارة على المدينة احتلالها والتخلص من المسلمين نهائياً كما هو الحال عند اليهود ومشركى مكة الذين كانوا يحاربون المسلمين (وفق مخططات عقائدية وسياسية) ، كما حدث فى غزوة الأحزاب التى خطط لها اليهود وحملوا بعض اعراب نجد على الاشتراك فيها عن طريق إغرائهم بالمال .

ولهذا فقد تمكن المسلمون (قبل معركة الاحزاب) من ضرب هذه القبائل وتشتيتها فى مكان تجمعها ، كل قبيلة على انفراد فى ست حملات عسكرية قام بها الجيش الاسلامى وهى :

١ - تأديب بي أسد (نو الحجة سنة ثلاث للهجرة)

وأول حملة عسكرية تأديبية قام بها جيش المدينة ضد الأعراب هى دورية القتال التى بعث بها الرسول ﷺ لضرب قبيلة بنى أسد فى منطقة نجد .

فقد تلقت القيادة فى المدينة من استخباراتها العسكرية أن قبيلة بى أسد هذه قد أخذت فى التحشد بقيادة المحارب الشهير (طليحة ابن خويلد [1] وأخيه سلمة) .

---

(١) قال فى الاعلام .. هو طليحة بن خويلد الأسدى ، من أسد بن خزيمة متنبىء ، شجاع ، من الفصحاء ، يقال له طليحة الكذاب (لأنه أدعى النبوة) ، كان من أشجع العرب ، يعد بألف فارس - كما يقول النووى - قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى أسد ، سنة تسعة من الهجرة وأسلموا ، ولما رجعوا ارتد طليحة ، وأدعى النبوة فى حياة رسول الله =

وأن هدف هذا التحشد هو الإغارة على المدينة ، ولهذا سارع النبى ﷺ إلى تجهيز قوة من المهاجرين والانصار قوامها مائة وخمسون راكباً ، أعطى قيادتها لأبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى (١) .

وقد كان ضمن هذه القوة ، أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص (٢) وغيرهم من كبار المهاجرين والانصار ، وقد كانت هذه الحملة فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث من الهجرة ، أى بعد شهر واحد (تقريباً) من غزوة أحد .

وقد رسم الرسول ﷺ لهذه الحملة خطة أمر قائد الحملة أبا سلمة أن يسير عليها ، وأهم نقطة فى الخطة هو الكتمان والسرعة وأخذ قبائل بنى أسد على حين غرة وقبل أن يتجمعوا .

وقد جاء فى المرسوم النبوى الذى عين به القائد الأعلى أبا سلمة

= صلى الله عليه وسلم فوجه إليه ضرار بن الأزور ، فضربه ضرار بالسيف يريد قتله ، فنبا السيف ، فشاع بين الناس أن السلاح لا يؤثر فيه ، ومات النبى صلى الله عليه وسلم فكثر أتباع طليحة : من أسد وغطفان ، وطيىء ، وكان يقول : إن جبريل يأتيه ، وتلا على الناس أسجاعاً أمرهم فيها بترك السجود فى الصلاة ، وكانت رايته حمراء ، وطمع فى امتلاك المدينة فهاجمها بعض أتباعه فردهم أهلها ، وغزاه أبو بكر ، وسير إليه خالد بن الوليد ، فانهزم طليحة إلى بزاخة (بأرض نجد) وكان مقامه فى سميراء (بين توز والحاجر - فى طريق مكة) وقاتله خالد ، ففر إلى الشام ، ثم أسلم بعد أن أسلمت أسد وغطفان كافة ووفد على عمر ، فبايعه وخرج إلى العراق ، فحسن بلاؤه فى الفتوح « فشهد القادسية » واستشهد فى معركة نهاوند بأرض فارس ، هو وفارس اليمن (عمرو بن معدى كرب الزبيدى) .

(١) أبو سلمة ، أسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومى ، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان ممن شهد معركة بدر مع النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر ترجمتهما فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

لقيادة الحملة ، قوله ﷺ لأبى سلمة القائد .. سر حتى تنزل أرض بنى أسد فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم .

وفى حدود الخطة المرسومة تحركت قوات هذه الحملة فى اتجاه ديار بنى أسد بأرض نجد ، ونحو قطن – جبل لهم – بالذات وهو النقطة التى حددتها الخطة .

ولما كان الكتمان من لوازم هذه الدورية العسكرية صار القائد أبو سلمة يسير برجاله ليلاً وبأقصى سرعة ، ويكمن بهم نهاراً ، وكان يسلك برجاً له طريق غير مطروق حتى وصل منازل بنى أسد .

وكان القصد من هذا هو إخفاء خبر هذه الحملة بحيث لايعلم بها أحد ، حتى تصل ديار بنى أسد .

ولقد نجحت هذه الحملة (فعلاً) فى تحقيق أهدافها حيث تمكن رجالها من مباغتة بنى أسد فى ديارهم وأخذهم على حين غرة قبل أن يستكملوا تحشيدهم .

حيث فاجأتهم قوات المسلمين فى ديارهم فجراً وأخذت فى تطويق منازلهم وهم على غير أهبة ، فأخذتهم الدهشة فلم يستطيعوا الثبات ، بل ولوا الأدبار دون أية مقاومة .

فسيطرت قوات المسلمين على ديارهم ، وبعث أبو سلمة القائد مفرزتين من رجاله لمطاردة القوم فاستولى رجالها على عدد كبير من أغنام بنى أسد وإبلهم .

كما تمكن رجال إحدى المفرزتين من أسر ثلاثة مماليك من رعاة

إبلهم ، أما بقية رجال القبيلة فقد تفرقوا منهزمين فى بطون الشعاب ورؤوس الجبال .

وهكذا ، وبعد أن نجحت هذه الدورية فى مهمتها وحققت أهدافها ، بتأديب بنى أسد وضربهم فى منازلهم بتلك الصورة المباغتة التى ماكانوا يتصورونها ، عاد القائد أبو سلمة إلى المدينة ظافراً .

وقد استغرقت العمليات العسكرية التى قامت بها هذه الدورية بضع عشرة ليلة ، وكان لنجاحها أكبر الأثر فى نفوس القبائل المجاورة التى كانت تحدث نفسها بالإغارة على المدينة ، لأن قبيلة بنى أسد تعتبر من أقوى القبائل النجدية وأشدها شكيمة ، فكان نجاح المسلمين فى ضرب هذه القبيلة وتشتيت جموعها بتلك السرعة بمثابة إنذار حاسم لمن تحدثه نفسه بالقيام بما اعتزمت هذه القبيلة القيام به من عدوان .

٢ - سرية عبد الله بن أنيس [١] (٢٥ المحرم سنة أربع من الهجرة)

وبعد عودة القائد أبى سلمة برجال دوريته ظافرين من ديار بنى أسد بنجد مباشرة ، نقلت استخبارات الجيش الى القائد الأعلى الرسول ﷺ أخباراً تفيد أن القائد الهذلى الشهير ، خالد بن سفيان قد جرأه هو الآخر ماأصاب المسلمين فى معركة أُحد فطمع فى الإغارة على المدينة بغية

---

(١) هو عبد الله بن أنيس الجهنى أبو يحيى ، حليف بنى سلمة من الانصار ، من السابقين إلى الإسلام ، شهد بيعة العقبة والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن صلى إلى القبلتين ، توفاه الله بالشام سنة أربع وخمسين للهجرة .

السلب والنهب ، وأنه أخذ يُعد العدة ويحشد أعراب تلك المنطقة (منطقة عرنة) من قبائل هذيل وبنى اللحيان وكلهم من قبائل الحجاز المجاورة لقبائل قريش .

الفتك بقائد الحشد الهذلي

فسارع الرسول ﷺ إلى إرسال أحد أصحابه إلى تلك الديار للاستطلاع والتأكد فيما إذا كانت المعلومات التى تلقاها صحيحة أم لا . ثم أمره بقتل قائد الحشد هذا إذا ماتأكد من صحة الخبر ، لأن قتل هذا القائد سيوفر على جيش المدينة مهمة القيام بحملة عسكرية كاملة إلى تلك الديار البعيدة .

وكان الرجل الذى وقع عليه الاختيار للقيام بهذه المهمة هو عبد الله بن أنيس الجهنى ، وأعتقد أن من أهم لأسباب هذا الاختيار هو أن عبد الله ابن أنيس يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه (جهينة) .

يضاف إلى هذا أن عبد الله بن أنيس يعتبر من شجعان العرب .

فقد استدعاه النبى ﷺ وأمره بالتوجه إلى ديار هذيل والفتك بقائدها خالد بن سفيان بأية وسيلة كانت ، ولما كان ابن أنيس لايعرف خالد ابن سفيان شخصياً ، طلب من النبى ﷺ - عندما تبلغ منه الأمر بالتوجه - أن يصف له خالداً قائلاً : « صفه لى يارسول الله » .

فوصفه ﷺ له بقوله .. إذا رأيته هبته وفرقت [١] منه وذكرت الشيطان ، قال عبد الله : وكنت لا أهاب الرجال .

---

(١) فرق بفتح أوله وثانيه : خاف .

وكجزء من المخطط الذى رسمه ابن أنيس لإنجاح مهمته استأذن النبى ﷺ فى التنكر وأن يسمح له بأن يكذب فى حدود إكمال مهمته إذا ما اقتضى الأمر ذلك ، فسمح له ، والكذب على العدو المحارب لإيقاعه والتغرير به مباح فى الإسلام .

سار عبد الله بن أنيس على عجل قاصداً مكان التجمع فى عرنة من ديار هذيل ، ولما وصل إلى تلك الديار وجد الخبر صحيحاً .

استدراج قائد هزيل لقتله

وهنا أخذ يحتال لتنفيذ مهمته ، فعندما وصل إلى تلك الديار انتسب إلى قبيلة خزاعة زيادة فى التمويه على العدو.

ومازال يتحين الفرص حتى التقى بقائد الحشد الموكل إليه قتله وعندما سأله خالد .. من الرجل ؟ أجابه بقوله .. رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك ، فأكد له خالد بن سفيان ذلك قائلاً .. أجل أننى لأجمع له ، ورحب بانضمامه إلى الحشد .

ولقد وجد ابن أنيس خالداً كما وصفه رسول الله ﷺ من حيث الهيبة، وخاف منه بالفعل ، ولقد تحدث عبد الله بن أنيس عن هيبة الرجل وقوة شخصيته ، حيث قال .. فعرفته بنعت رسول الله ﷺ وهبته فرأيتنى أقطر (أى من الخوف) فقلت : صدق الله ورسوله .

ولما اطمأن خالد بن سفيان إلى عبد الله بن أنيس ، أخذ الأخير يماشيه ويتحدث إليه بأحاديث استحلاها منه ، وقد استدرجه حتى انفرد

به بعيدا عن مكان التجمع ، ولما رجع عنه حرسه الخاص من أصحابه وبقى منفرداً حمل عليه عبد الله بن أنيس وعاجله بضربة من سيفه أودت بحياته فى الحال ، ثم أنصرف راجعاً إلى المدينة ، ولئلا يتمكن أصحاب القائد الهذلى من العثور على قاتله ابن أنيس اختفى فى أحد الغيران فى الجبل ، ولقد جد الهذليون فى طلب ابن أنيس ولكنهم فشلوا فى العثور عليه

قال عبد الله بن أنيس .. يصف قتله للقائد خالد بن سفيان : حتى إذ هدأ الناس وناموا ، اغتررته فقتلته وأخذت رأسه ثم دخلت غاراً فى الجبل ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين ، ثم خرجت فكنت أسير بالليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد فلما رآنى قال .. أفلح الوجه ، قلت .. أفلح وجهك يارسول الله ، فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبرى [١] وقد استغرقت هذه العملية ثمانى عشرة ليلة .

وبهذا العمل وفر الفدائى الجهنى ، على المسلمين مشقة القيام بحملة عسكرية كاملة لتأديب تلك القبائل ، فقد انهارت عزائم قبائل هذيل بقتل قائدها وزعيمها ، وتفرقت جموعها المحتشدة ، لأنها رأت أن لافائدة من غزو المسلمين ، وهكذا قام الفدائى البطل عبد الله بن أنيس مقام جيش بأكمله .

فاجعة بئر معونة .. (صفر سنة أربع من الهجرة)

وفى شهر سفر من السنة الرابعة للهجرة ، ولما يمض على نكسة

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٥١ .

(أحد) المريعة خمسة وأربعون يوماً ، نزلت بالمعسكر الإسلامى فاجعة مروعة فقد المسلمون فيها مثل الذى فقدوه من رجالهم فى غزوة أحد ، فقد قتل منهم غدراً فى ديار نجد سبعون رجلاً من خيرة صحابة محمد ﷺ .

وتفصيل ذلك ، أنه وفد على رسول الله ﷺ أحد أعيان بنى عامر وهو الفارس الشهير أبو براء عامر بن مالك [1] بن جعفر الملقب (بملاعب الأسنة) ، فعرض عليه النبى ﷺ الإسلام فلم يسلم ولكنه لم يبعد من الإسلام وذلك أنه اقترح على النبى ﷺ ، أن يرسل وفداً من أصحابه إلى أرض نجد يدعوا أهلها إلى الإسلام حيث قال .. يامحمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك .

فراقت الفكرة للرسول ﷺ إلا أنه أبدى تخوفه من غدر أهل نجد قائلاً.. إنى أخاف عليهم أهل نجد ، فأبدى ملاعب الأسنة استعداده لأن يكون الوفد النبوى فى جواره قائلاً .. أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فشكل النبى ﷺ وفداً من صحابته ومن الانصار خاصة ، وكلهم من الشباب ، برئاسة المنذر بن عمرو الانصارى .

ومن المؤلم الذى جعل خسارة المعسكر الاسلامى تبلغ غايتها فى الجسامة هو أن وفد الدعوة هذا كان مؤلفاً من صفوة أصحاب محمد ﷺ

---

(١) هو أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، من فرسان العرب المشهورين ، وقد اختلف المؤرخون فى إسلامه ، والمرجح أنه أسلم ، فقد ذكره البغوى وخليفة وابن السكن وابن البرقى والعسكرى وابن قانع والباوردى ، فى الصحابة ، وقال الدار قطنى إنه من الصحابة . وقد مات عامر بن مالك هذا غيظاً لما بلغه غدر ابن أخيه بصحابة رسول الله فى بئر معونة ، وهم فى جواره .

ومن خيرة مثقفيهم ، فقد كانوا يقولون لهم (القراء) لما يمتازون به بين قومهم من ثقافة عالية ، بالإضافة إلى ميزتهم العسكرية .

ويكفى أن يفهم القارىء أن رجال هذا الوفد كانوا على مستوى ذلك المحارب الشهير البطل (الحارث بن الصمة) [١] الذى كان أحد الأفذاذ الذين ثبتوا يوم أحد ، ودافعوا عن رسول الله ﷺ دفاعاً رائعاً ساعة انهزام المسلمين عنه بعد الانتكاسة ، فقد كان هذا البطل المثقف الشجاع ضمن من لقى حتفه من القراء (غدراً) فى ديار نجد .

تحرك وفد الدعوة المسالم هذا وغادر المدينة فى جوار سيد بنى عامر ، عامر بن مالك ، ولم يكن هذا الوفد (طبعاً) مستعداً للحرب .

لأنه إنما جاء لدعوة القبائل الى الإسلام وكان على مايشبه اليقين بأن لن يلقى حرباً أثناء قيامه بمهمته السلمية التى أوكلت إليه ، لاسيما وأنه فى جوار سيد من سادات بنى عامر .

مكان الكارثة

واصل وفد الدعوة سيره حتى وصل إلى مكان بين منازل بنى عامر وديار بنى سليم يقال له (بئر معونة) وإذ وصل الوفد ذلك المكان بعث أحد أعضائه - حرام بن ملكان - [٢] بكتاب رسول الله ﷺ الذى كان يحمله

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة احد)

(٢) هو حرام بن ملكان بن مالك بن خالد النجارى الانصارى ، من السابقين الأولين فى الإسلام، شهد بدراً وأحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد فى حادثة بئر معونة كما هو مفصل فى هذا الكتاب .

الوفد إلى زعيم تلك القبائل ، عامر بن الطفيل ، وهو ابن أخى ملاعب الاسنة .

وكان عامر هذا رجلاً شرساً شديد العداوة للاسلام ، فلما جاءه الرسول بخطاب النبى ﷺ لم ينظر فيه بل عدا على حامل الخطاب فقتله ، بالرغم من أنه رسول ، والرسول لايقتل فى عرف جميع البشر .

وبعد أن قتل هذا الغادر رسول وفد الدعوة استصرخ قبائل بنى عامر وطلب منهم مشاركته القضاء على جميع أعضاء الوفد النبوى الثقافى المسالم .

إلا أن هذه القبائل (بالرغم من شركها) لم تستجب لهذا الغادر ، فرفضت طلبه بعد أن أبلغته بأنه من العار عليها المشاركة فى قتل قوم مسالمين ، هم فى جوار زعيم من زعمائها وهو عامر بن مالك ملاعب الأسنة .

ولما يئس عامر بن الطفيل من مساندة قومه بنى عامر له فى الغدر بالمسلمين غضب ولجأ فى الحال إلى قبائل رعْل وعُصية وذكوان وهم من بنى سليم فأجابوه إلى ذلك .

وعندها تحركت قوات الغدر والخيانة الباغل عددها حوالى الألف فارس فأخذت المسلمين على حين غرة ، فقد كان رجال الوفد مطمئنين فى رحالهم ينتظرون عودة رسولهم الذى أرسلوه بخطاب النبى على عامر بن الطفيل ، وما كانوا يتصورون أن الغدر سيبلغ بهذه القبائل إلى درجة الاعتداء على الآمنين فى جوارهم ، الأمر الذى كان العرب جميعاً مسلمهم ووثنيهم يستهجنونه ويستبشعونه .

إبادة رجال الوفد عن آخرهم

فبينما كان هؤلاء المسلمون من الوفد العلمى مطمئنين فى رحالهم هكذا إذا بخيل عامر بن الطفيل تحيط بهم من كل جانب ، تسانده جموع غفيرة من أعراب سليم .

فلم يكن من رجال الوفد الاسلامى – وعددهم سبعون – إلا أن يسارعوا إلى سيوفهم للدفاع عن أنفسهم ، وقد قاتلوا الغادرين قتلاً مريراً ولكن دون جدوى .

فلم تترك لهم قوة العدو العديدة الغامرة المنظمة المتأهبة فرصة حيث اقتحمت رحالهم من كل جانب فاعتورتهم سيوفها وتخطفتهم رماحها حتى قتلوا عن آخرهم يرحمهم الله ، ولم ينج من القتل إلا رجلان فقط هما .. كعب بن زيد (١) وعمرو بن أمية الضمرى (٢) .

أما كعب فقد تركه الغادرون جريحاً دون أن يعلموا حقيقة أمره فارتث وبقى بين القتلى فعاش بعد ذلك حى قتل شهيداً فى معركة الأحزاب ، أما عمرو بن أمية الضمرى أحد أعضاء الوفد الذى كان فى سرح القوم ساعة الهجوم على المسلمين فقد وقع أسيراً فأعتقه عدو الله – قائد الغادرين – عامر بن الطفيل .

---

(١) هو كعب بن زيد بن قيس بن مالك النجارى الانصارى ، شهد بدراً ، وقد استشهد فى غزوة الأحزاب ، أصابه سهم قاتل ، رماة به ضرار بن الخطاب الفهرى ..

(٢) هو عمرو بن أمية بن خويلد بن إياس الضمرى ، من مشاهير الصحابة والسابقين إلى الإسلام ومن رواة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى فى الحبشة فى زواج أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكان من شجعان العرب ، وهو الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم ليأخذ جثة الشهيد حبيب بن عدى من على الخشبة التى صلبه عليها كفار مكة ، عاش إلى أيام الخليفة معاوية ومات بالمدينة ، قال أبو نعيم مات قبل الستين .

قال ابن اسحاق .. وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الانصار فلم ينبئهما بمصاب القوم إلا الطير تحوم على العسكر.

فقال : والله إنَّ لهذا الطير لشأناً ، فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، فقال الانصارى لعمرو ابن أمية.. ماترى ؟.

قال أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فقال الأنصارى لكنى ماكنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر ابن عمرو - يعنى رئيس الوفد - وما كنت لتخبرنى عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل .

وقاتل عمر بن أُمية الضمرى حتى وقع أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أُمه ، وقد كان المشركون قد عرضوا على رئيس الوفد الأمان فقالوا .. إن شئت أمناك فأبى ثم قاتلهم حتى قتل

وقع الكارثة في المدينة

وقد تلقت المدينة نبأ هذه الفاجعة بحزن شديد لايقل عن حزن كارثة أُحد ، وقد كان لها فى نفس رسول الله أبلغ الاثر ، فقد قال ﷺ - حينما بلغه نبأ الكارثة - هذا عمل أبى براء - يعنى عامر ابن مالك الذى اقترح عليه إرسال هذا الوفد من القراء - قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً .

وروى ابن سعد فى طبقاته الكبرى عن أنس بان مالك، قال :

مارأيت رسول الله ﷺ وجد (أى تألم) على أحد ماوجد على أصحاب بئر معونة .

وكان الذى نقل نبأ الفاجعة إلى النبى ﷺ هو عمرو بن أمية ، الناجي الوحيد من المذبحة المروعة . وجاء فى السيرة الحلبية أن وفد القراء لما أحاطت بهم خيل عامر بن الطفيل قالوا .. اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك عنا السلام غيرك ، فأقرئه منا السلام ، فنزل الوحى على الرسول ﷺ بذلك ، فرقى المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال .. إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم .

وذكر ابن سعد فى طبقاته الكبرى - راوياً عن أنس بن مالك أن الله أنزل فى الذين قتلوا فى بئر معونة قرآناً وأنه نسخ فيما بعد وهو قول الله تعالى مبلغاً عن الشهداء المغدور بهم ﴿ بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه ﴾ .

وقد تألم النبى ﷺ لما نزل بأصحابه من القتل حتى إنه (كما فى الصحيحين) ظل يقنت فى الصلوات الخمس شهراً كاملاً يدعوا على قبائل رعل وذكوان وعصية الذين غدروا بأصحابه فى بئر معونة .

الضمري يغتال رجلين من بني عامر

وأثناء عودة عمرو بن أمية الضمرى إلى المدينة التقى فى وادى قناة بالقرب من المدينة برجلين من بنى كلاب - رهط عامر بن الطفيل - فاستدرجهما حى قتلهما وهو يرى أنه أصاب بهما ثؤرة .

وقد فعل ذلك وهولايعلم أن الرسول ﷺ قد أعطاهما أمانا ، ولذلك لما

أخبر الرسول ﷺ بقتلهما قال .. بئس ماصنعت قد كان لهما مني أمان وجوار ، لأدِينَّهما ، ثم بعث ﷺ ، بديتهما إلى قومهما من المشركين تنفيذاً لقانون العهد والجوار السائد بين القبائل العرب .

وقد تألم أبو براء عامر بن مالك لما فعل ابن أخيه عامر بن الطفيل وشق عليه ما أصاب أصحاب النبى ﷺ على يد هذا الغادر الطاغية ، حتى إن أبا براء (كما يقول ابن برهان الدين) مات أسفاً على ماصنع ابن أخيه من الغدر الشنيع بأصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا فى جواره وأمانه .

ولم يرو التاريخ أن رهط ملاعب الأسنة أبى براء قد ردوا اعتبار زعيمهم بالانتقام من عامر بن الطفيل وقومه اللهم إلا أن ابن أبى براء (واسمه ربيعة) قد حاول الانتقام لشرف أبيه من الطاغية الغادر عامر بن الطفيل فحمل عليه بالرمح فى نادى قومه يريد قتله وقد طعنه فعلاً إلا أن الطعنة لم تكن قاتلة حيث جاءت فى فخذه ، فلم يمت منها ، وقد حال رهط ابن الطفيل وبين ابن عمه من أن يسدد إليه طعنة اقتص منه فرفض قائلاً : إن أنا مت ، فدمى لعمى - يعنى ملاعب الأسنة أبا براء - ويروى أصحاب السير أن ربيعة بن مالك هذا جاء إلى النبى ﷺ يعرب عن أسفه لما أصاب أصحابه فى جوار أبيه وقال له : أيغسل عن أبى هذه الغدرة أن أضرب عامر بن الطفيل ضربة أو طعنة ؟ قال .. نعم فطعنه بالرمح كما هو مفصل فيما مضى .

توالي الامتحان علي المسلمين

وهكذا يتوالى امتحان الله تعالى لصفوة هذه الأمة فى مختبرات المصائب والفجائع ، فقد فقدوا فى تلك الظروف العصيبة سبعين رجلاً هم فى أمس الحاجة إليهم .

ولكن هذا الامتحان لم يزدهم تواليه إلا ثباتاً على الحق وصموداً فى وجه الباطل ، وذلك الذى أراده الله منهم بهذا الاختبار ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب ﴾ (١) .

نازلة أخري .. حادثة الرجيع (شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة)

وفى الوقت الذى كان فيه الحزن والأسى يخيم على المدينة لمصرع السبعين الذين لقوا حتفهم (غدراً على يد قبائل سليم) ، فى هذا الوقت تلقت المدينة نبأ كارثة غدر أُخرى ذهب ضحيتها نخبة من خيرة أصحاب محمد ﷺ وحادثة الغدر هذه تشبه (تماماً) حادثة بئر معونة .

واذا كانت حادثة الغدر المروعة التى تعرض لها المسلمون وفقد فيها المعسكر الاسلامى سبعين شهيداً فى بئر معونة ، قد حدثت على أيدى القبائل النجدية .

فإن الحادثة التى نحن بصددها الآن قد جاءت من قبل القبائل

---

(١) سورة البقرة : ٢١٤ .

الحجازية ومن جيران الحرم بالذات أهل مكة ، وهذه الحادثة الثانية – وإن كانت ضحاياها في العدد أقل من ضحايا بئر معونة – إلا أن الغادرين قد مثّلوا فيها أحط أنواع الغدر والخيانة .

وتفصيل ذلك أن وفداً من عضل والقارة من الهون بن خزيمة ابن مدركة ، وفدوا على النبى ﷺ فى شهر صفر ، الشهر الذى حدثت فيه حادثة بئر معونة ، تظاهر أمامه بالاسلام وطلبوا منه أن يرسل معهم بعثة من أصحابه المثقفين لكى يعلموهم دين الإسلام قائلين :

« يارسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام » .

فاستجاب النبى ﷺ لطلبهم ، ثم شكل أعضاء البعثة الثقافية المطلوبة على النحو التالى :

مرثد بن أبى مرثد الغنوى (١) رئيساً .. وتسعة أعضاء ، من بينهم عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح (٢) البطل الرامى ، والذى صرعت نباله اثنين من حملة لواء قريش فى تلك المعركة .

غادر وفد التفقيه هذا مدينة الرسول ﷺ متجهاً جنوباً نحو مكة يصحبه وفد الخيانة الذى حضر إلى المدينة متظاهراً بالإسلام .

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) طبعة ثانية

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

الغدر برجال البعثة

ولما وصلوا إلى مكان يقال له .. ذات الرجيع – وهو ماء لهذيل بين عسفان ومكة – غدر بهم الذين تظاهروا بالاسلام وطلبوا ابتعاثهم من النبى ﷺ إلى قومهم ليعلموهم الإسلام .

ففى ذلك المكان (ذات الرجيع) مثلث قبائل تلك المنطقة (من هُذيل) أبشع أنواع الغدر وأحط أساليب اللؤم والخسة والدناءة .

فبينما كان رجال بعثة التعليم الاسلامية مطمئنين فى رحالهم حول الماء ومعهم رجال الوفد الغادر ، إذا بهؤلاء الرجال الغادرين يتسللون الواحد تلو الآخر من بين رجال البعثة الاسلامية التفقيهية ، ثم يتجهون نحو قبيلة هذيل فيستصرخونها على رجال البعثة الآمنة طالبين منها المشاركة فى الغدر بهذا الوفد العلمى المسالم الذى – لم يكن يفكر مطلقاً فى الحرب.

ولقد استجابت قبيلة هُذيل لداعى الخسة والغدر إذ لم يرُعْ رجال البعثة التفقيهية الإسلامية التى لا يتجاوز عددها العشرة إلا الرجال بأيديهم السيوف وقد أحاطوا بهم من كل جانب .

فسارع رجال البعثة العشرة الى سيفوهم للدفاع عن أنفسهم ولكن الجبناء الغادرين لما رأوا شدة المقاومة وضراوة القتال طلبوا منهم الكف عن القتال وعرضوا عليهم الأمان قائلين .. إنا والله مانريد قتلكم ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم .

القتلي من رجال البعثة

وأمام هذا العرض اختلف رجال البعثة فيما بينهم .. فريق وهم

الأكثر ، رفضوا ماعرض عليهم الغادرون وقالوا والله لانقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً .

وعلى رأس هذ الفريق مرثد بن أبى مرثد (رئيس البعثة) وخالد ابن البكير وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، فقد شد هؤلاء - وعددهم سبعة - على الغادرين وقاتلوهم قتال الأبطال ، ولكن كثرة الهذليين المجرمين تغلبت على هؤلاء الأصفياء فسقطوا جميعهم صرعى يرحمهم الله .

أما الفريق الثانى من رجال البعثة النبوية - وعددهم ثلاثة - فقد رأوا أن لافائدة من المقاومة ووثقوا بالأمان الذى عرضه عليهم رجال قبيلة هذيل فاستسلموا فأوثقهم الغادرون كتافا ، وهؤلاء المستسلمون هم .. زيد بن الدَّثنة (١) .. وخبيب بن عدى (٢) .. وعبد الله ابن طارق (٣) .

وبعد أن وقع هؤلاء الثلاثة فى الأسر ، أسرع بهم الهذليون إلى مكة ليبيعوهم فيها من مشركى قريش الذين تعلم هذيل أنه يسرهم جداً أن يقع فى أيديهم أمثال هؤلاء الرجال من أصحاب محمد ﷺ .

---

(١) هو زيد بن الدثنة (بفتح الدال وكسر المثلثة بعدها نون) بن معاوية البياضى الأنصارى ، من السابقين إلى الاسلام ، شهد بدراً وأحداً قتله المشركون صبراً بالتنعيم فى مكة كما سيأتى تفصيله .

(٢) هو خبيب (بضم أوله وفتح ثانية) بن عدى بن مالك الأوسى الانصارى من السابقين إلى الاسلام ، شهد بدراً وأحداً ، قتله أهل مكة وصلبوه فى التنعيم مع زيد ابن الدثنة كما سيأتى تفصيله فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

(٣) هو عبد الله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوى ، والانصارى بالحلف ، عده موسى بن عقبة فى أهل بدر .

غير أن واحداً من هؤلاء الثلاثة - وهو عبد الله بن طارق - ندم لاستسلامه فنزع يده من القيد ثم اختطف سيفاً فقاتل القوم لكن الجبناء تكاثروا عليه ولم يجرؤ أحد منهم على منازلته بالسيف بل قذفوه بالحجارة حتى فارق الحياة يرحمه الله .

هذيل تبيع الأسيرين لقريش

أما خُبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقد قدمت هذيل بهما إلى مكة ، ولما كانت الحالة (يوم ذاك) بين مكة والمدينة هى حالة حرب فقد سُر زعماء مكة بجلب هذين الأسيرين وأخذوا فى مساومة هذيل لابتياعهما بغية الانتقام من معسكر المدينة بقتلهما .

وقد انتهت هذه المساومة بأن سلم القرشيون لقبيلة هذيل أسيرين كانا قد وقعا فى أيدى أهل مكة فى حرب سابقة نشبت بين القبيلتين وسلمت هذيل - مقابل ذلك - لقريش هذين الصحابيين فنفذت قريش فيهما حكم الإعدام .

وذكر ابن سعد فى طبقاته الكبرى أن صفوان بن أمية الجمحى [١] اشترى زيد بن الدثنة فقتله بأبيه أمية بن خلف الذى قتله المسلمون فى معركة بدر ، وأن حجير بن أبى أهاب اشترى خبيب ابن عدى وسلمه لابن أخته عقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه الذى لقى مصرعه على أيدى المسلمين .

ولما كانت هذه الحادثة قد حدثت فى الأشهر الحرم فإن مشركى مكة

---

(١) انظر تجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

قد أجّلوا تنفيذ حكم الإعدام فى هذين الصحابيين الكريمين حتى تنقضى هذه الاشهر التى لايسفك العرب فيها دماً .

ولذلك فقد أودعت قريش هذين الأسيرين السجن فى انتظار انقضاء أيام الاشهر الحرم ، ولما انقضت أيام هذه الاشهر أعدم مشركوا مكة أسيريهما ، وبطريقة هى غاية فى الوحشية والبشاعة .

كيف أعدمت قريش الأسيرين

ولما كان المشركون (يوم ذاك) لايستبيحون سفك الدم داخل حدود الحرم فقد خرجوا بهذين الصحابيين الكريمين إلى ماوراء حدود الحرم .

وهناك – وفى منطقة التنعيم بالذات – قتل المشركون زيد بن الدّثنة وخبيب بن عدى .

أما زيد بن الدثنة فقد سلمه صفوان بن أمية إلى مملوكه يقال له نسطاس (١) وأمره بقتله ففعل ، وقد حضر تنفيذ هذه الجريمة البشعة زعماء مكة معهم النساء والصبيان والعبيد وفيهم أبو سفيان ابن حرب .

ولقد أظهر هذان الصحابينا العظيمان ضروباً من الشجاعة والثبات على العقيدة ما جعلهما فى أعلى مستويات الصديقين والشهداء .

---

(١) نسطاس ، مولى صفوان بن أمية الجمحى ، شهد أحداً مع المشركين وأنقذ مولاه صفوان من الموت إذ طعن بخنجر رجلاً من المسلمين كاد يقتل صفوان بن أمية هداه الله للإسلام ولايعرف تاريخ إسلامه ، ويظهر أنه أسلم عام الفتح .

فعندما قُدم زيد بن الدَّثنة للقتل قال له أبو سفيان ممتحناً ، أنشدك الله يازيد ، أتحب محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟.

فكان الجواب من زيد رضى الله عنه .. لا والله ما أحب أن محمداً الآن فى المكان الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى .

فقال أبو سفيان .. مارأيت أحداً يحب كحب أصحاب محمد لمحمد ، وبعد ذلك تقدم نسطاس بتعذيب زيد رضى الله عنه حيث أوثقوه وصاروا يرمونه بالنبل فى أماكن غير قاتلة لعله يفتن ويرجع عن دينه فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً لربه ، فقتلوه يرحمه الله .

أما الشهيد خبيب فقد كان احتفال كفار مكة بقتله أكبر من احتفالهم بقتل زيد بن الدَّثنة ، فقبل أن يقتلوه وبعد أن صلبوه على الخشبة استعداداً لطعنه بالرمح ساوموه فى دينه وحاولوا أن يزعزعوا من إيمانه ، إذ عرضوا عليه إعفاءه من القتل إن هو رجع عن دينه وتبرأ من محمد ﷺ حيث قالوا له إرجع عن دينك نخل سبيلك وإن لم ترجع لنقتلنك .

فكان جوابه ذلك المؤمن الصادق الذى يستعذب الموت فى سبيل الله.. إن قتلى فى سبيل الله لقليل .. ورفض المساومة .

وقبل تنفيذ القتل طلب خبيب من كفار مكة أن يمهلوه حتى يصلى لله ركعتين ، ففعلوا ، فصلاهما وأحسنهما ثم أقبل على المشركين وقال لهم .. أما والله ولولا أن تظنوا أنى إنما طولّت جزعاً من القتل لاستكثرت من

الصلاة .. قال إبن إسحاق .. فكان خبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين عند القتل .

كيف قتل المشركون خبيباً ؟

وبعد أن صلب كفار مكة خبيباً على الخشبة دعا وهو مصلوب قائلاً.. اللهم إنه ليس أحد هنا يبلغ رسولك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام ، وبلغه مايصنع بنا .

ولقد استجاب الله دعاء هذا العبد الشهيد المظلوم ، فنزل الوحى على النبى ﷺ بما حدث لخبيب ، فقد روى أسامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان (فى اليوم الذى أعدم فيه خبيب) جالساً مع أصحابه فأخذه ماكان يأخذه عند الوحى . فسمعناه يقول : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال هذا جبريل يقرئنى السلام ، خبيب قتلته قريش .

ثم إن خبيباً توجه بالدعاء إلى الله قائلاً .. اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولاتغادر منهم أحداً .. وذكر بن إسحاق عن معاوية بن ابى سفيان أنه كان مع أبيه فيمن حضر مقتل خبيب ، قال معاوية فلقد رأيت أبى – عندما دعا عليهم خبيب – يلقينى إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب، وكانوا يعتقدون أن الرجل إذا دُعِىَ عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه .

ثم إن قريشاً دعت أربعين فتى ممن قتل المسلمون آباءهم يوم بدر فأعطت كل واحد منهم رمحاً وقالت .. هذا الذى قتل أباكم ، فطعنوه بتلك الرماح حتى مزقوه ، رضى الله عنه وأرضاه .

ويقال إن الذى قتل خبيباً هو عقبة بن الحارث وكان غلاماً صغيراً جعل بعض القرشيين الحربة في يده ثم أخذ بيده فطعن بها خبيباً حتى قتله ، فكان عقبة [1] بن الحارث يقول (بعد أن أسلم) والله ماأنا قتلت خبيباً لأننى كنت أصغر من ذلك .. ذكر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية .

من آثار تلك الجريمة

وكان سعيد بن عامر الجمحى [2] ، الأمير الزاهد الورع المشهور فيمن حضر مصرع الشهيد خبيب قبل أن يسلم ، فكان بعد ذلك لايخطر على باله ذكر مصرع خبيب إلا أُغمى عليه

قال ابن هشام : كان عمر بن الخطاب قد استعمل سعيداً هذا على بعض نواحى الشام ، فذكر لعمر أنه يغمى عليه أحياناً فى مجلس الإمارة ، فسأله عمر فى قدمة قدمها عليه ، فقال له : ماهذا الذى يصيبك ؟.

فقال .. والله يا أمير المؤمنين مابى من بأس ، ولكنى كنت فيمن حضر خبيب بن عدى حين قتل ، وسمعت دعوته فو الله ماخطرت على قلبى

---

(١) هو عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، أبو سروعة ، أسلم وله صحبة ، مات فى خلافة ابن الزبير .

(٢) هو سعيد بن عامر بن حديم بن سلامان القرشى الجمحى ، من كبار الصحابة ومن فضلائهم ، تأخر إسلامه حتى غزوة خيبر حيث أسلم قبلها وشهدها ومابعدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المشهورين بالزهد والصلاح ، ولذلك أحبه عمر وولاه على بعض نواحى الشام ، مات سنة عشرين فى خلافة عمر .

وأنا فى المجلس إلا غُشى على فزاده ذلك عند عمر خيراً .

وكان خبيب رضى الله عنه وأرضاه هو قائل ذلك البيت الذى أصبح مثلاسائراً :

فلست أُبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

سرور اليهود والمنافقين بالنكبة

ولقد اغتبط اليهود والمنافقون بما أصاب البعثة الإسلامية على أيدى هذيل ، فصاروا يتهكمون عليهم ويسخرون منهم فكانوا ، يقولون فى هؤلاء الشهداء الأبرار (على سبيل التشفى) .. ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا، لاهم قعدوا فى أهليهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم .

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول المنافقين ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام ، وأذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد ﴾ (١) .

٣ - غزوة بني النضير .. (ربيع الأول سنة أربع من الهجرة)

أما الحملة العسكرية الثالثة التى قام بها المسلمون بعد معركة أُحد وقبل غزوة الأحزاب ، فهى الحملة التى جردها الرسول ﷺ ، للتخلص من

(١) البقرة : ٢٠٥ .

يهود بنى النضير القاطنين فى ضواحى المدينة ، ووضع حداً لدسائسهم ومؤامراتهم التى تستهدف القضاء على النبى ﷺ ، والإطاحة بالدولة التى أقامها فى ظل الاسلام .

فقد كان هؤلاء اليهود يتحينون الفرص للتخلص من المسلمين منذ أن تمركزوا فى المدنية ، وقد ظلت أعمال هؤلاء اليهود العدوانية مقتصرة على الدس والوقيعة والتحريض لتفريق كلمة المسلمين وتفكيك وحدتهم والتشكيك فى صدق نبوة محمد ﷺ .

وكان يهود بنى قينقاع (كما ذكرنا فى الفصل الأول) أول من حول النزاع بين اليهود والمسلمين من نزاع مدنى إلى نزاع مسلح ، فحاصرهم المسلمون فى حصونهم ثم استزلوهم وتم إجلاؤهم من المدنية .

ولم يشترك يهود بنى النضير فى معركة بنى قينقاع حربياً ، وإن كانت عواطفهم معهم ، وقد بقى يهود بنى النضير (كبنى قريظة) على عهدهم مع المسلمين ، ولم يقوموا بأى عمل عسكرى ضد المسلمين ، وخاصة بعد أن رأوا العبرة فى يهود بنى قينقاع الذين كانت نتيجة حملهم السلاح فى وجه المسلمين هو استسلامهم ثم أجلاؤهم عن المدينة فى السنة الثانية من الهجرة .

ولكن بنى النضير لما رأوا أن سلوك هذا الطريق لايشفى لهم غليلا ولا يحقق لهم هدفاً ، قرروا الإقدام على عملية غدر رهيبة تصل بهم إلى أهدافهم السيئة من أقرب الطرق ، ساعدهم على ذلك وشجعهم ماتعرض له المسلمون من نكبات متلاحقة فى معركة أُحد التى أصيبوا فيها بتلك الانتكاسة الحربية التى فقدوا فيها سبعين شهيداً ، ثم فى حادثتى بئر معونة وذات الرجيع اللتين فقدوا فيهما (وبعد أقل من شهرين من نكبة

أُحد) ثمانين رجلاً من خيرة محاربيهم وعلمائهم مما جعل اليهود يستضعفون المسلمين ويطمعون فيهم .

بنو النضير يحاولون اغتيال الرسول في ديارهم

ولذلك قرر اليهود اغتيال النبى ﷺ ، معتقدين أن تنفيذ مثل هذه الجريمة سيضع حداً لنشاط الدعوة الإسلامية ويخرس صوتها إلى الأبد ، ويفسح الطريق أمام سيطرتهم على (يثرب) من جديد .

وظل يهود بنى النضير يتحينون الفرص لتفنيذ مؤامرة الاغتيال ، وفعلاً سنحت لهم هذه الفرصة إلا أن الله تعالى نجى نبيه ﷺ من شرها .

وتفصيل ذلك أن أحد أصحاب النبى ﷺ وهو عمرو بن أمية الضمرى قتل رجلين من بنى عامر كان الرسول ﷺ قد أعطى لهما عهداً لم يعلمه ابن أمية الضمرى الناجى الوحيد من المذبحة التى دبرها بنو عامر فى نجد غدراً وذهب ضحيتها سبعون من صحابة محمد ﷺ ، فى بئر معونة كما فصلنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب تحت عنوان (فاجعة بئر معونة).

النبي في ديار بني النضير

ووفاء بالعهد الذى أعطاه النبى ﷺ لذينك المشركين العامريين التزم النبى ﷺ بدفع ديتهما للورثة بالرغم من أنهما من قبيلة ارتكب أحد زعمائها أشنع جريمة غدر بحق المسلمين ، وهو عامر بن الطفيل المجرم والمسئول الأول عن مذبحة المسلمين الرهيبة فى بئر معونة .

ولما كانت المعاهدة لاتزال قائمة بين المسلمين وبين يهود بنى النضير ، وكان بنو عامر بالإضافة إلى ذلك حلفاء هؤلاء اليهود ، فقد ذهب النبى ﷺ بنفسه إلى منازل يهود بنى النضير مع وفد من كبار أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، ليطلب من اليهود (كحلفاء) المشاركة فى دفع دية ذينك العامريًين .

وقد أظهر اليهود الترحيب بالوفد وأبدوا للرسول ﷺ استعدادهم لإجابة طلبه قائلين .. نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه .

مخطط اليهود لاغتيال النبي

وبينما كان النبى ﷺ وباقى رجال الوفد فى انتظار انجاز ماوعد به اليهود من مشاركة فى دفع الدية ، كان زعماء هؤلاء اليهود يرسمون مخططاً لاغتيال النبى ﷺ فى اجتماع سرى عاجل عقدوه فى أحد حصونهم، وكان المخطط الذى اتفقوا عليه بإلقاء صخرة على النبى ﷺ وهو فى المكان الذى كان جالساً فيه فى ظل أحد حيطان حصن من حصونهم.

وفى اجتماعهم الذى بحثوا فيه موضوع اغتيال الرسول ﷺ ، عارض سلام بن مشكم - أحد زعمائهم - فى هذا الموضوع وحذر قومه من السير فى هذا الطريق الشائك قائلاً لهم ، لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض العهد الذى بيننا وبينه

ولكن معارضة ابن مشكم هذه لم تلق تأييداً من المجتمعين فساروا فى طريق مؤامرة الاغتيال ورسموا الخطة لتنفيذها ، وكانت تقضى بأن يصعد

عمرو بن جحاش بن كعب (أحدهم) إلى سطح الحصن الذى جلس الرسول ﷺ فى ظله ثم يلقى عليه صخرة تقضى عليه .

كيف نجا النبي من المؤامرة ؟

إلا أن الله تعالى نجى نبيه فترك المكان الذى كان يجلس فيه قبل تنفيذ المؤامرة بقليل ، بعد أن تلقى إخبارية بما اعتزم اليهود القيام به من اغتياله ، فقد جاءه الخبر من السماء ، ففضح الله أمر هؤلاء اليهود المجرمين وتذكروا ماقاله لهم سلام بن مشكم عندما حذرهم من الاستمرار فى المؤامرة وأنذرهم بأن محمد ﷺ سيكشف الوحى له هذه المؤامرة فلم يستمعوا لتحذيره .

وبعد اكتشاف النبى ﷺ لهذه المؤامرة الدنيئة توجه فوراً إلى المدينة راجعاً دون أن يتحدث إلى اليهود بكلمة وتبعه بقية أعضاء الوفد من أصحابه دون أن يعلموا سبباً لمغادرته منازل بنى النضير على تلك الصورة المفاجئة ، إلا بعد أن لحقوا به فى المدينة حيث أطلعهم على جلية الخبر .

براعة الرسول السياسية

وعندما غادر النبى ﷺ ديار بنى النضير لم يترك هؤلاء اليهود يشعرون بمغادرته تلك الديار حيث أوهمهم (عندما تحرك من مكانه) بأنه ذاهب لقضاء حاجته .

ويظهر أنه ﷺ قد قدَّر أسوأ الاحتمالات ، وهو أن اليهود (وقد

قرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال فى ديارهم) لايستبعد أن يغتننموا فرصة وجوده منفرداً فى ديارهم مع قلة من أصحابه كلهم غير متسلح فيطوقوهم (إذا ماعلموا بأن النبى اكتشف المؤامرة) ثم يستعجلوا الفتك بالنبى ﷺ قبل أن يتمكن من العودة سالماً إلى المدينة ، ولهذا فإنه ﷺ عندما تحرك من مكانه فى ظل الحائط أوهم اليهود بأنه لايعتزم مغادرة ديارهم وإنما هو ذاهب لقضاء حاجته وبهذا فوت على هؤلاء اليهود فرصة قد تكون من أثمن فرصهم للقضاء عليه .

إنذار اليهود بالجلاء عن المدينة

وقد اعتبر النبى ﷺ ماعتزم اليهود القيام به من الفتك به غدراً فى ديارهم نقضاً للعهد الذى بينه وبينهم فقرر إجلاءهم من منطقة يثرب اتقاء لشرهم وتخلصاً من مؤامرتهم ودسائسهم .

فقد وجه إليهم إنذاراً بالجلاء عن المدينة ، وقد حمل هذا الانذار إليهم محمد بن مسلمة الأنصارى الذى استدعاه النبى ﷺ وقال له :

« اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم .. إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم مما هممتم به من الغدر ، لقد أجّلتكم عشراً فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه (١).

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٥٧ .

وفوراً ، حمل ابن مسلمة هذا الإنذار إلى اليهود ، ولما تسلموا الإنذار أسقط فى أيديهم ، ولم يرو التاريخ أنهم تنصلوا من مسئولية ماهموا من الغدر بالنبى ﷺ .

اليهود يرفضون الإنذار

ولقد انهار اليهود أمام هذا الإنذار الشديد فلم يروا بداً من الرحيل فأخذوا يتجهزون لذلك فأرسلوا إلى ظهر لهم (ناقلات من الإبل) فى مسارحها ، واستأجروا إبلاً من قبيلة أشجع استعداداً لمغادرة المدينة تحت وطأة الإنذار الشديد الذى تلقوه من القائد الأعلى النبى ﷺ .

ولكن زعماء النفاق فى المدينة (وعلى رأسهم عبد الله بن أبى) أرسلوا إلى هؤلاء اليهود يشجعونهم على البقاء ويطلبون منهم رفض الإنذار النبوى والاستعداد لحرب المسلمين إذا ماأصروا على إجلائهم بالقوة، وأكد لهم هؤلاء المنافقون مساندتهم عسكرياً إذا ماشن المسلمون عليهم الحرب ، فأرسلوا إليهم قائلين لهم .. أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم [١] .

وبعث إليهم رأس النفاق عبد الله بن أبى [٢] (سراً) من يؤكد لهم (باسمه) وقوفه بجانبهم حتى النهاية قائلاً : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩١ .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

ونتيجة لهذه التحريضات والتأكيدات التى تلقاها اليهود تشجعوا وقرروا الثبات والمقاومة لاسيما بعد أن انضم اليهم إخوانهم من بنى قريظة وأعلنوا الحرب معهم ضد المسلمين [1] . ثم أرسلوا إلى النبى ﷺ من يبلغه رفض إنذاره قائلين .. إنا لانخرج من ديارنا ، فاصنع مابدا لك . ثم أخذوا يتحصنون فى معاقلهم ، فأقاموا المتاريس والخنادق فى شوارعهم للاحتماء بها ، وأخذوا ينقلون الحجارة إلى أسطحة المنازل لقذف المسلمين بها إن هم هاجموها ، كما اختزنوا فى حصونهم من المؤن الغذائية ما يكفيهم لمدة سنة كاملة ، أما الماء فقد كان متوفراً لديهم داخل حصونهم حيث توجد لديهم آبار كثيرة داخل هذه الحصون

ضرب الحصار علي بني النضير

ولما بلغ النبى ﷺ رفض اليهود إنذاره لم ير بداً من ضرب الحصار عليهم فأعلن التعبئة وأصدر أوامره بالزحف على معاقلهم .

وقد تحركت القوات الاسلامية من المدينة بقيادة النبى ﷺ نفسه وضربت الحصار على حصون بنى النضير وقلاعهم التى اعتصموا بها .

وقد كانت هذه القلاع والحصون على غاية من المناعة والتحصين ، وقد استفاد منها اليهود استفادة كبيرة فى المقاومة .

---

(١) لم يذكر ابن إسحاق أن بنى قريظة حاربوا الرسول صلى الله عليه وسلم مع إخوانهم بنى النضير ، ولكن الامام البخارى أكد ذلك فى صحيحه ، قال السمهودى فى كتبه وفاء الوفاء ج١ ص ٣٠٤ .. وفى البخارى مايقتضى أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بنى النضير ، ولفظ البخارى : عن ابن عمر قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم ، حتى حاربت قريظة (أى مرة ثانية) فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأموالهم وأولادهم بين المسلمين الخ .

ولما رأى القائد الأعلى النبى شدة مقاومة اليهود واستفادتهم من مناعة هذه الحصون لجأ النبى ﷺ إلى وسيلة أضعف بها حماسة اليهود فى المقاومة كإجراء من إجراءات الحرب .

عملية إحراق نخيل اليهود

لقد كان اليهود - منذ عرفوا - مشهورين بعبادة المادة والحرص الشديد على اقتناء الأموال ، وكانوا يملكون من بساتين المدينة ونخيلها أحسنها .

وكما هى ظروف الحرب استولى المسلمون - أثناء عملية الحصار على هذه البساتين والنخيل ، وكان بوسع المسلمين أن يكتفوا بهذا الاستيلاء الذى به (كما هى قاعدة الحرب المتبعة) أصبحت هذه البساتين والنخيل من أملاك المسلمين ، إذ فى وسع المسلمين بعد هذا الاستيلاء أن يستمروا فى محاصرة اليهود ويمنعوهم من الانتفاع بثمار هذه البساتين والنخيل .

ولكن المسلمين (وعلى رأسهم القائد الأعلى النبى - على مايظهر) كانوا يعرفون طمع اليهود وحبهم المفرط للمال ، لذلك فقد أمر النبى ﷺ بالقيام بعملية أزعج بها اليهود المحاصرين حيث أمر بالبدء فى قطع نخيلهم وتحريقها .

عدم جدية إحراق النخيل

ولم يكن المسلمون (على مايظهر) جادين فى قطع النخيل وإحراقه

وإنما يقصدون إزعاج اليهود الذين لا يفزعهم شىء مثل ضياع المال .

يدلنا على ذلك أن النبى ﷺ – كما ثبت فى كتب السيرة – لم يأمر بالشروع فى إتلاف إلا أردأ أنواع نخيل اليهود الذى لايقتاتون منه ، وهو نوع (اللينة) وهو نوع يخالف نوع العجوة والبُرنى الذى كان الغذاء الرئيسى لأهل المدينة .

فإن (اللينة) من النخل إنما كان ثمرها (على مايظهر) فى الغالب علفاً للجمال وغيرها ، قال السهيلى – عند تعليقه على قوله تعالى ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية – اللينة (بكسر اللام) ألوان التمر ماعدا العجوة والبُرنى ثم قال .. ففى هذه الآية أن النبى ﷺ لم يحرق من نخلهم (أى اليهود) إلا ماليس بقوت للناس ، وكانوا يقتاتون العجوة . أ هـ .

ولقد نجحت خطة الإزعاج هذه التى اتبعها النبى ﷺ ، إذ لم يكد يرى هؤلاء اليهود الدخان يتصاعد من جذوع نخيلهم وفروع هذه النخيل تتساقط من جراء القطع حتى سادهم الذعر واجتاحتهم موجة من الارتباك خوفاً على نخيلهم ، وشرعوا يفاوضون فى التسليم .

مع أنهم لو فكروا قليلاً لتبين لهم أن هذا النخيل لم يعد من ممتلكاتهم بعد أن استولى عليه الجيش الإسلامى المحاصر الذى ماقام بالحصار إلا لإجبارهم على الجلاء من المدينة ، فلو أدرك اليهود هذا لما ارتاعوا ولما ارتبكوا لمجرد البدء فى عملية الحرق والقطع التى قام بها الجيش الإسلامى ، ولما أثر ذلك على مقاومتهم بتلك السرعة ، ولكنهم اليهود الذين لايقدسون شيئاً مثل المال .

احتجاج اليهود علي حرق النخيل

وقد احتج اليهود على عملية القطع والحرق احتجاجاً شديداً ، فرفض احتجاجهم ، ولم لايرفض ؟ أليست هى الحرب ، كما أن بعض المسلمين تحرجوا عندما صدرت الأوامر النبوية بالشروع فى القطع والحرق، قال السهيلى .. ووقع فى نفوس بعض المسلمين من هذا (أى الأمر بالقطع والحرق) شىء فأنزل الله تعالى مؤيداً رسوله فى هذه العملية قوله تعالى ﴿ ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أُصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ (١)

مفاوضة اليهود للتسليم

وهكذا نجحت المناورة الى قام بها الجيش الإسلامى والتى بدأت بقطع وحرق الردىء من نخيل اليهود ، فقد جزع اليهود جزعاً شديداً ، وتأكد لديهم أن النبى ﷺ لن يتركهم حتى يرحلوا عن المدينة ، أو يبيدهم بعدما اتضح له منهم من خيانة للعهد ونقض للمعاهدة بتدبيرهم المؤامرة الخبيثة التى كانت تستهدف حياته الكريمة بالذات فشرعوا فى المفاوضة .

وقد انتظر اليهود (عبثاً) مسارعة المنافقين وحلفائهم من غطفان لنجدتهم كما وعدهم بذلك رأس النفاق عبد الله بن أُبِّى ولكن بدون جدوى .

فقد خذلهم الله عبد بن أبى وجلس فى بيته بعد أن ورطهم .

---

(١) الحشر : ٥

أما غطفان (فالطبع) لم يأت منهم أحد فاستحكمت حلقات الورطة على بنى النضير بعد أن يئسوا من نجدة المنافقين لهم ، فأسقط فى أيديهم ، وقذف الله الرعب فى قلوبهم .

وشدد المسلمون الحصار وقاوم اليهود وصاروا يرمون المسلمين من حصونهم بالنبال والحجارة ، وقد ضرب النبى ﷺ خيمته فى مقر قيادته حول الحصون ، فركز رماة بنى النضير نبالهم على خيمة النبى ﷺ إلا أن أكثر هذه النبال لم يصل .

قتلي اليهود في الحصار

فاستدعى اليهود أحد رماتهم المشهورين وكان أعسراً رامياً شديد النزع يبلغ نبله مالا يبلغه نبل غيره ، فطلبوا منه أن يجعل خيمة الرسول ﷺ هدفاً لنباله ففعل ، وأخذت نبال هذا اليهودى تتساقط على خيمة النبى القائد ، وعند ذلك أمر النبى ﷺ بنقل مقر قيادته إلى مكان يكون فى مأمن من نبال هذا اليهودى الرامى .

وقد قام على ابن أبى طالب بقتل هذا اليهودى الرامى واسمه (غزول) ، وذلك أن غزولاً هذا كان من شجعان بنى النضير ، فقد خرج فى عشرة من أصحابه لعله يصيب غرة من المسلمين ، فوقع فى كمين نصبه له على بن أبى طالب مع سهل بن حُنيف وأبى دجانة [1] فشد علىّ على غزول اليهودى فقتله ثم شد أبو دجانة وأصحابه على الباقين فقتلوا جميعهم وعددهم عشرة ، وأتى على بن أبى طالب رضى الله عنه برأس ذلك اليهودى الرامى إلى مقر القيادة النبوية .

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

اتفاقية الجلاء

ولم يستمر اليهود فى المقاومة طويلاً ، فقد خارت قواهم إذ لم يمض على ضرب الحصار عليهم أكثر من عشرين يوماً حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبى ﷺ للتفاوض بشأن تنفيذ ماطلبه منهم فى إنذاره من الجلاء عن المدينة .

وقبل النبى ﷺ التفاوض ، وقابل وفد اليهود فى مقر قيادته فكانت نهاية هذه المفاوضة اتفاقية الجلاء التى تتضمن مايلى :

١ – أن يجلوا يهود بنى النضير عن منطقة يثرب جلاء تاماً إلى أى مكان يشاءون .

٢ – أن يسلم اليهود للمسلمين كل مايمتلكون من سلاح بكافة أنواعه، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تماماً .

٣ – لليهود أن يحملوا من أموالهم مايقدرون على حمله (ما عدا السلاح) مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال .

٤ – بعد الذى يقدر اليهود على حمله من المال يكون كل ماتبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئاً للمسلمين وملكاً من أملاكهم .

٥ – على القيادة الإسلامية فى المدينة أن تضمن ليهود بنى النضير سلامة أرواحهم ماداموا داخل المنطقة الخاضعة لسطان المسلمين .

كيف تم إجلاء بني النضير

ونتيجة لاتفاقية الجلاء هذه ، شرع يهود بى النضير فى الجلاء عن

المدينة وصاروا يحملون على الإبل كل مايقدرون على حمله ، حتى إن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق .

وكان يهود بنى النضير من أكثر أهل المدينة ثراء ، وقد أوقروا ستمائة بعير من الأموال التى قدروا على حملها ، وكانوا (بالطبع) يتخيرون فى النقل ماخف حمله وغلا ثمنه ، فحملوا معهم كميات هائلة من الذهب والفضة ، حتى إن سلام بن أبى الحقيق وحده (كما يقول صاحب السيرة الحلبية) حمل معه جلد ثور مملوءاً ذهباً وفضة ، وكان عند خروجه من المدينة يضرب بيده على هذا الجلد المملوء بالذهب والفضة وهو يقول مخاطباً المسلمين (فى حنق يشبه التهديد) : هذا الذى أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلاً ، ففى خيبر النخل [1] .

وكان اليهود عند مغادرتهم المدينة يعمدون إلى سُقف بيوتهم وعمدها وجدرانها فينقضونها لئلا يتسفيد منها المسلمون ، وهذا الذى عناه الله تعالى بقوله فى هؤلاء اليهود ، فى سورة الحشر : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم ﴾.

مظاهرة اليهود عند الجلاء

وقد أظهر يهود بنى النضير التجلد عند جلائهم ، فخرجوا من

---

(١) وهذا القول يدل بوضوح على أن اليهود كانوا (منذ أقدم العصور) يستغلون ثراءهم الواسع لإثارة القلاقل وإشعال الحروب ، ويحاولون الوصول (دائما) إلى أغراضهم عن طريق سيطرتهم المالية كما هو مشاهد منهم اليوم حيث يعبثون (عن طريق الذهب) بكثير من ساسة العالم فيسخرونهم فى سبيل أطماعهم السياسية

المدينة في شبه مظاهرة غادروها في طوابير ، قد أركبوا النساء على الهودج في أبهى زينة ، عليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلى الذهب والفضة ، تصحبهم فرق الموسيقى من القيان يضربن بالدفوف ويعزفن بالمزامير .

نموذج لحرية العقيدة

وقد جلا مع يهود بنى النضير بعض أولاد الأنصار الدين اعتنقوا اليهودية ، فقد كانت المرأة من الأنصار (قبل الاسلام) إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها عهداً إن عاش لها ولد تهوده ، ولما أخذ يهود بنى النضير في الجلاء وأخذ أبناء الأنصار يجلون معهم بحكم اتباعهم لدينهم - حاول الانصار منع أولادهم من الجلاء قائلين : لاندع أبناءنا يخرجون مع اليهود ، ولكن النبى ﷺ - عملاً بحرية العقيدة لم يمكن الأنصار مما أرادوا ، مادام أن أبناءهم قد دخلوا في اليهودية قبل الإسلام وجلوا مع بنى النضير بمحض اختيارهم ، وقد اتخذ النبى ﷺ هذا القرار ونفذه بعد أن أنزل الله عليه : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ كما يقول ابن برهان الدين فى السيرة الحلبية .

وجهة اليهود بعد الجلاء

وقد اتجه اليهود عند الجلاء بعضهم إلى أذرعات الشام وبعضهم إلى خيبر وهم الأكثرية ، وكان من الذين نزلوا خيبر من أكابرهم حُيى بن أخطب وسلام بن أبى الحُقيق وكنانة بن الربيع ، وقد دانت خيبر لهؤلاء

الزعماء الذين اتخذوا منها فيما بعد قاعدة للتآمر على المسلمين كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

وقد أسلم من يهود بنى النضير رجلان هما يامين بن عمير [1] (ابن عم عمرو بن جحاش) الذى أوكلت إليه مهمة القيام باغتيال النبى ﷺ وأبو سعد بن وهب [2] ، فقد قال أحدهما لصاحبه : والله إنك لتعلم أنه رسول الله ، ثم اتفقا على الدخول فى الإسلام ، فأسلما ، وكان إسلامهما أيام الحصار حيث نزلا (ليلاً) من حصون بنى النضير واتصلا بالنبى ﷺ ثم أعلنا إسلامهما فأحرزا أموالهما .

وقد تقرب يامين بن عمير إلى الله تعالى بدم ابن عمه (عمرو ابن جحاش) الذى أراد أن يلقى الحجر على الرسول ﷺ لقتله ، وذلك أن عميراً جعل خمسة أوسق من تمر لرجل من قيس إن هو قتل عمرو بن جحاش فقام القيسى بقتله غيلة قبل استسلام بنى النضير .

وبالرغم من الحرية المطلقة الى أعطاها النبى لبنى النضير ليحملوا كل مايقدرون على حمله من أموالهم فإنهم قد تركوا للمسلمين ، مغانم كثيرة ومنها خمسون درعاً وثلاثمائة وأربعون سيفاً وغلال عظيمة مع مساحات شاسعة مزروعة بالنخيل وغيرها من الزروع .

---

(١) قال فى الاصابة .. هو يامين بن عمير بن كعب النضرى ، ذكره ابن عبد البر فقال : كان من كبار الصحابة ولم أطلع على تاريخ وفاته .

(٢) أبو سعد بن وهب النضرى ، أخرج له بت سعد حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية ابنه أسامة بن أبى سعد عن أبيه قال .. شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى فى سيل (مهروز) أن يحبس الأعلى من الاسفل حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل .

مصير غنائم بني النضير

ومن الجدير بالذكر أن النبى ﷺ لم يقسم غنائم يهود بنى النضير كما تقسم غنائم الحرب على المقاتلين المسلمين كما هو المتبع ، وإنما قسم هذه الغنائم على المهاجرين دون الانصار ، وذلك بعد استشارة الانصار وأخذ موافقتهم على ذلك .

فقد جمع الأنصار ووقف فيهم خطيباً قائلاً .. إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال (يعنى ماترك بنو النضير) التى أفاء الله علىّ وخصنى بها مع أموالكم بينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت فيهم هذه خاصة ، فقالوا .. بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ماشئت (١) فسرّ النبى ﷺ لموافقة الأنصار على طلبه واغتبط بتلك الروح الكريمة التى أظهروها نحو إخوانهم من المهاجرين حتى أنه (عليه الصلاة والسلام) قال : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الانصار . وفى موقف الأنصار المشرف هذا ، أنزل الله تعالى (ممتدحاً فعلهم الحميد هذا) قوله جل وعلا : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (٢) .

ولم يعط النبى ﷺ أحداً من الأنصار شيئاً من غنائم يهود بنى النضير إلا رجلين (كانا محتاجين) وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة (٣) وكانا من أبطال معركة أُحد الذين ثبتوا مع النبى ﷺ ساعة انهزام المسلمين ، وقد أعطى النبى ﷺ سيف سيد بنى

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) الحشر ٩ .

(٣) أبو دجانة وسهل بن حنيف انظر ترجمتها فى كتابنا (غزوة حد) .

النضير (سلام بن أبى الحُقيق) لسيد الأوس سعد بن معاذ ، وكان ذلك السيف له ذكره عند العرب .

تألم المنافقين لجلاء اليهود

وقد تأثر المنافقون لجلاء بنى النضير تأثراً كبيراً ، فنزل بهم من الغم والهم أمر عظيم ، لأن هؤلاء اليهود كانوا لهم سنداً وعضداً فى مقاومتهم للنبى ﷺ ، لذلك حزن هؤلاء المنافقون (وخاصة عبد الله بن أُبى) لجلاء اليهود حزناً شديداً .

وبجلاء يهود بنى النضير عن المدينة لم يبق من هذا العنصر الخطر فى منطقة يثرب سوى قبيلة بنى قريظة الذين كانت نهايتهم الإبادة الكاملة على أيدى المسلمين بسبب ارتكابهم الخيانة العظمى فى معركة الأحزاب كما سيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله ، فقد عفا عنهم النبى بالرغم من محاربتهم فى جانب بنى النضير .

القرآن وجلاء بني النضير

وقد أنزل الله تعالى فى حادثة إجلاء يهود بنى النضير سورة الحشر بأكملها فقال تعالى (مشيراً إلى جلاء يهود بنى النضير .. ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أُولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ،

ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ [1] إلى آخر الآيات الكريمة .

وقد تضمنت سورة الحشر نصاً صريحاً بأن ماتركه يهود بنى النضير من أموال يجب أن يكون تحت تصرف النبى (بصفة خاصة) ليس لأحد من المحاربين فيه شيء وهو قوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ الآية .

وبالرغم من هذا النص الصريح فإن النبى ﷺ - تطييباً لخاطر الأنصار - قد أستأذنهم عندما عزم أن يخص المهاجرين بغنائم يهود بنى النضير .

كذلك جاء فى سورة الحشر تبكيت للمنافقين الذين حرضوا بنى النضير على رفض الإنذار النبوى وشجعوهم على مقاومة المسلمين وأكدوا لهم الوقوف بجانبهم حتى الموت ثم خذلوهم فقال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون .. لئن أُخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون ﴾ [2] .

٤ - غزوة ذات الرقاع (جمادى الأولى من السنة الرابعة للهجرة) .

وهى الحملة العسكرية الرابعة التى قام بها المسلمون بعد معركة أُحد وقبل معركة الأحزاب .

---

(١) الحشر الآية ٢ - ٣ - ٤ .

(٢) الحشر ١١ - ١٢ .

وقد قاد هذه الحملة النبى ﷺ بنفسه إلى ديار غطفان من أرض نجد الواقعة بين السعد والشقرة ، وكانت القوة التى قادها النبى فى هذه الحملة تتكون من أربعمائة مقاتل .

وكان الهدف من هذه الحملة هو ضرب أعراب نجد من قبيلة غطفان فى منازلهم ، فقد تلقت استخبارات الجيش الإسلامى أن محارب وبنى ثعلبة من غطفان قد اعتزموا الإغارة على المدينة مستهينين بالمسلمين بعد الذى أصابهم فى معركة أُحد ، وأنهم لذلك أخذوا فى التحشد .. استقت استخبارات المدينة هذه المعلومات من رجل جاء إلى المدينة بجلب له .

ولم يتردد النبى ﷺ فى إصدار الأوامر بالتأهب بسرعة للزحف على هذه القبيلة عندما بلغه نبأ تحشدها لأن المسلمين كانوا يتوقعون ذلك من غطفان لأنها أقوى وأشجع قبيلة محاربة فى نجد وعلى عداء شديد للمسلمين ، وهى من الكثرة بحيث تستطيع حشد عدة آلاف فى وقت وجيز ، وقد كان رجال هذه القبيلة هم العمود الفقرى لغزوة الأحزاب التى هى موضوع كتابنا هذا . وكان هدف الرسول ﷺ أن يتمكن من مداهمة هذه القبيلة قبل أن تتحرك قواتها من منازلها ، وهذه ثانى مرة يسارع النبى ﷺ إلى غزو غطفان فى ديارهم ، فقد قام بتأديبهم فى حملة عسكرية قبل هذه إلى مكان من أرض نجد يقال له (ذى أمر) وذلك بعد غزوة بدر وقبل معركة أُحد .

أمير المدينة بالنيابة

وعندما اعتزم النبى ﷺ مغادرة المدينة بقوته فى اتجاه غطفان،

أصدر (كما هى عادته) مرسوماً عين بموجبه عثمان بن عفان حاكماً على المدينة ينوب عنه مدة غيابة فى هذه الغزوة .

وفى شهر جمادى الأول من السنة الرابعة للهجرة تحركت القوات الإسلامية من المدينة (بسرعة) فى اتجاه غطفان بقيادة النبى ﷺ .

ويظهر أن قبائل غطفان هذه المرة كانت أسرع فى التحشد ، وذلك أن الجيش الإسلامى لم يكد يصل إلى مكان يقال له (نخلا) وعلى مرحلتين فقط من المدينة حتى وجد قوات غطفان قد استعدت له بجمع عظيم

فتقارب الفريقان إلا أنهم تواقفوا حيث خاف الناس بعضهم بعضاً، ولم يحدث اشتباك وإنما ظل الفريقان متواقفين مدة من الزمن دون أن يبدأ أحدهم بالهجوم على الآخر .

إلا أن قبائل غطفان فى النهاية فضلت الانسحاب من مكان التلاقى فانهزمت وتفرق رجالها فى رؤوس الشعاب ، ويظهر أن المسلمين لم يتعقبوهم فى انهزامهم وإنما اكتفوا بتشتيتهم ، وبهذا حققوا الغرض الرئيسى الذى تحركت قوات المدينة من أجله ، ولم يغنم المسلمون شيئاً من أموال غطفان ولم يقع أحد منهم فى أسر المسلمين اللهم إلا بعض نسائهم وقعن سبايا كما هو العرف السائد بين المتحاربين فى ذلك الظرف

صلاة الخوف في هذه الغزوة

وفى غزوة ذات الرقاع صلى المسلمون (ولأول مرة صلاة الخوف)

وذلك بسبب تواقف الفريقين مدة من الزمن واضطرار المسلمين إلى مواجهة العدو وعليهم السلاح مدة غير قصيرة .

وكان مشركو غطفان يعلمون أن المسلمين يقومون بأداء الصلاة جماعة فى أوقات مختلفة ، فكانوا يترقبون محاولين أخذهم على حين غرة وكبسهم ساعة أداء فروض الصلاة .

فأوحى الله إلى النبى ﷺ بهذا الصدد وبين له الخطة التى بها يتمكن هو وأصحابه من أداء الصلاة فى حالة الحرب مع الاستمرار فى مواجهة العدو والاستعداد له وحراسة معسكر الإسلام ساعة أداء الصلاة .

والقرآن الكريم هو الذى رسم للمسلمين صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهى المسماة فى الفقة الاسلامى بصلاة الخوف ، فقال تعالى :

﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا ، فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم .. ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (١) وقد ظلت هذه الخطة التى رسمها القرآن لصلاة المجاهدين الذين هم فى حالة تهيؤ للحرب هى الأصل الذى يسير عليه المؤمنون فى صلاتهم (ساعة الحرب) فى كل العصور .

وفى هذه الغزوة ، لما كان العدو فى غير جهة القبلة فرق النبى ﷺ

---

(١) النساء ١٠٢ .

أصحابه (ساعة الصلاة) فرقتين ، فرقة أمرها بعدم مباشرة الصلاة وأن تقف فى وجه العدو ثم صلىّ هو بالفرقة الثانية ركعة ، وعند قيامه للركعة الثانية فارقته الفرقة التى كانت تصلى معه وأتمت بقية صلاتها منفردة ثم انسحبت من المصلىّ ووقفت فى وجه العدو محل الفرقة الأولى التى لم تصلّ والتى اتجهت الى المصلى حيث اقتدت بالنبى ﷺ الذى كان فى ركعته الثانية فأدت خلفه ركعة ، وفى التشهد الأخير من صلاة النبى ﷺ تركته هذه الفرقة جالساً ينتظرها حتى أتمت بقية صلاتها ثم لحقته فى جلوس التشهد إياه فسلم بها ، وهذه الكيفية فى الصلاة الرباعية التى أمر الاسلام باختصارها ركعتين فى السفر دائماً .

تحقيق الحملة أغراضها

وهكذا انصرف النبى ﷺ من غزوة ذات الرقاع دون أن يلقى حرباً إلا أن حملته العسكرية هذه قد حققت أغراضها كاملة .

وذلك أنه بحركته العسكرية السريعة هذه قد تمكن من تشتيت الحشد الذى قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين (فقط) على سحق من تحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه فى عقر داره .

وهذا هو الذى جعل قبائل نجد المشركة تتبخر من رؤوس زعمائها جميعاً فكرة غزو المسلمين فى عقر دارهم فلم يجرأوا على غزو المسلمين إلا

عندما طلب منهم اليهود المشاركة (مع قريش) فى غزوة الأحزاب التى هى موضوع كتابنا هذا .

وهكذا انصرف النبى بجيشه من ديار غطفان وقد سجّل نصراً ساحقاً كان له أبلغ الأثر لا فى نفوس قبائل غطفان وحدها بل فى نفوس جميع القبائل النجدية التى كانت تطمع فى المسلمين وتحدث نفسها بالإغارة عليهم متوهمة ضعفهم بعد الانتكاسة التى أصابتهم فى معركة أُحد .

والنصر الساحق هذا يتجسد فى أن النبى ﷺ استطاع بحركته السريعة هذه إلى ديار نجد أن يرهب أعظم القبائل النجدية (غطفان) ويشتت جموعها العظيمة تلك التى ماكانت لتنفض حتى تغير على المدينة لولا أن الله تعالى ألهم الرسول القائد المحنك فقام بتلك الحركة السريعة وباغت (كما هى عادته فى تأديب الأعراب) تلك الجموع الغطفانية وهى لما تزل فى ديارها .

محاولة اغتيال النبي للمرة الرابعة

وفى غزوة ذات الرقاع (هذه) تعرض الرسول ﷺ لمحاولة اغتيال رابعة ، وذلك أنه بينما كان الفريقان متواقفين فى أرض غطفان ، إذ أقبل رجل من بنى محارب واسمه (غورث) ، وكان تعهد لقومه بقتل النبى (غيلة) أقبل هذا الرجل (غورث) إلى النبى ﷺ ، فى صورة المسالم حتى وقف عليه ﷺ وهو مدجج بسلاحه وفى حجره السيف .

فطلب من النبى ﷺ أن يسمح له بالنظر إلى سيفه وفحصه قائلاً .. يامحمد أنظر إلى هذا ؟ . قال نعم .. وكان السيف جميلاً باتراً ومحلى بفضة .

قال ابن هشام فأخذ السيف غورث ثم استله وجعل يهزه ويهم برسول ﷺ فيدب الرعب فى نفسه فيتخاذل وبعد أن كبته الله ورجع عن تنفيذ مخطط اغتيال الرسول ﷺ قال :

يامحمد أما تخافنى ؟ . قال .. لا ، ومأخاف منك ؟ ، قال .. أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال لا .. يمنعنى الله منك .

وبعد ذلك أرجع غورث السيف إلى رسول الله ﷺ ، وبعد أن أخذ الرسول ﷺ السيف قال لغورث .. من يمنعك منى ؟

فقال (يامحمد) .. كن خير آخذ .

قال .. تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله .

قال .. أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى النبى ﷺ سبيله ، فجاء إلى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس .. وأسلم بعد ذلك وكانت له صحبة .

حادثة مثيرة

وفى غزوة ذات الرقاع هذه حدثت حادثة لابد من سرد ذكرها لأنها تعطى درساً للشباب المسلم فى الإيمان والرجولة والثبات على العقيدة والتمسك بالنظام ، وتكشف للقارىء عن سر قيام الدولة الإسلامية وانتشار

العقيدة الإسلامية على أيدى أولئك الرجال من صحابة محمد بتلك السرعة التى أذهلت الدنيا .

ففى ليلة شاتية ذات ريح مزعجة من ليالى هذه الغزوة نزل النبى ﷺ بجيشه فى شعب من شعاب نجد فطلب انتخاب من يقوم بالحراسة ، فقال .. من يكلؤنا هذه الليلة ؟ .

فقام عباد بن بشر [١] وعمّار بن ياسر[٢] رضى الله عنهما فقالا نحن نكلؤكم ، ثم رابطاً على فم الشعب ، فقال عباد بن بشر لعمار ابن ياسر : أنا أكفيك أول الليل وتكفينى آخره . فنام عمار وقام عباد يصلى وكان أحد رجال العدو يتربص قريباً من المعسكر (وكان قد حلف أن لاينثنى حتى يصيب محمداً أو يهريق فى أصحابه دما) فلما رأى سواد عباد قال .. هذا ربيئة القوم (أى حرسهم) فضرب نحوه سهماً فأصابه ، فانتزعه عبدا فرماه دون أن يخرج من صلاته ، فرماه بسهم آخر فانتزعه

---

(١) هو عباد بن بشر بن وقش بن زغبة الاشهلى الأنصارى ، كان من السابقين الأولين الذين أسلموا على يد سفير الإسلام الاول إلى المدينة (مصعب بن عمير) ، أسلم قبل سيد الخزرج سعد بن عبادة ، آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، كان فى الذروة من الفضل والشرف ، قالت عائشة : ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً كلهم من بنى عبد الأشهل (أسيد بن حضير .. وعباد بن بشر وسعد بن معاذ) . كان عباد بن بشر قائد الحرس النبوى ليلة الخندق ، وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل المشاهد بدرا و أحدا والخندق وغيرها ، وكان فيمن اشترك فى قتل الطاغية كعب بن الأشرف ، وكان عباد كذلك (قائد الحرس النبوى فى غزوة تبوك) قال بن سعد فى طبقاته ، استشهد عباد بن بشر فى معركة اليمامة عام أثنى عشر وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وكان عباد بن البشر فى الذروة من الشجاعة والنجدة ، قال أبو سعيد الخدرى نظرت إلى عباد بن بشر يوم اليمامة وأنه ليصيح : أخلصوا أخلصوا .. فأخلصوا أربعمائة رجل من الانصار مايخالطهم أحد ، يقدمهم عباد بن بشر أبو دجانة ، والبراء بن مالك حى أنتهوا إلى باب الحديقة (مقر قيادة مسيلمة الكذاب) فقاتلوا أشد القتال ، وقتل عباد بن بشر رحمه الله ، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً ماعرفته إلا بعلامة كانت فى جسده .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) طبعة ثانية .

واستمر فى صلاته فلما ، غلبه نزيف الدم خشى أن يغمى عليه فيبقى الجيش بدون حارس ، فنبه عمار وقال له ، (معتذرا) .. لولا أننى خشيت أن أضيع ثغراً أمرنى به رسول الله ﷺ ماانصرفت ولو أُتى على نفسى[1]

عودة النبي إلي المدينة

وقد استغرقت العمليات العسكرية فى غزوة ذات الرقاع خمس عشرة ليلة عاد بعدها النبى * إلى المدينة بجيشه ، وكان قد بعث أمامه رجلاً من أصحابه اسمه جعال بن سراقة مبشراً بقدومه وعودة الجيش الإسلامى سالماً ظافراً .

وقد سميت هذه الغزوة (بغزوة ذات الرقاع) لأن الجبل الذي نزل به الجيش الإسلامى فى أرض غطفان كانت حوله أرض ذات ألوان تشبه الرقاع فيه ابقع حمر وسود وبيض ، ويقال سميت بهذا الأسم ، لأن كثيراً من رجال الجيش كانوا حفاة لانعل لهم فلفوا على أقدامهم الخرق لمّا حصل لهم الحفاء

٥ - **غزوة بدر الآخرة** (شعبان السنة الرابعة للهجرة) .

وهى الحركة العسكرية الخامسة التى قام بها المسلمون ضد أعدائهم بعد معركة أُحد وقبل غزوة الأحزاب ، وقد كان هدف هذه الحملة هو تحدى معسكر الشرك فى مكة ووفاء بالوعد الذى أعطاه النبى القائد لزعيم قريش وقائدها أبى سفيان بن حرب يوم أُحد .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٣ .

وذلك أن أبا سفيان بن حرب أشرف يوم أحد من على جبل ونادى بأعلى صوته (متحدياً) .. الموعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول نلتقى ، فقال النبى ﷺ لعمر بن الخطاب .. قل .. نعم إن شاء الله . فافترقوا على ذلك .

وقد اخذ الفريقان يستعدان لخوض معركة ثانية فى بدر ، وكان المتوقع أن تكون رهيبة أعنف من معركة بدر الأولى لضخامة القوات التى كان الجانبان قد جهزها لخوضها ، لولا أ أبا سفيان قائد عام جيش مكة قد تخاذل وجبن عن اللقاء بعد أن فصل من مكة (فى اتجاه بدر) بجيش بلغ عدد رجاله ثلاثة آلاف مقاتل ، فرجع بهذا الجيش إلى مكة قبل أن يتجاوز منطقة القضيمة (١)

أما جيش المدينة الذى بلغ ألفاً وخمسمائة مقاتل فقد تحرك من المدينة يقوده النبى ﷺ بنفسه فى اتجاه بدر وواصل زحفه حى نزل بدراً وعسكر فيها وفاء بالكلمة التى أعطاها النبى ﷺ لقائد عام جيش مكة يوم أُحد .

مناورة أبي سفيان لتفادي المعركة

أما أبو سفيان فإنه لما كان هو الذى تحدى المسلمين وطلب منهم تحت تأثير نشوة النصر المؤقت التى أحرزه فى أُحد - الموافقة على ملاقاة جيش مكة فى بدر ، فقد وجد نفسه - بعد أن ذهبت عنه سكرة الانتصار المزيف - ملزماً بأن يفى بوعده فيلاقى بجيش مكة جيش المدينة فى بدر وفى الميعاد المحدد .

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج٢ ص ٥٩ .

ولكنه كقائد مسئول يقدر النتائج خشى ملاقاة المسلمين ، وكان شديد الرغبة فى أن لايحدث هذا اللقاء غير أنه كان على يقين بأن القائد الأعلى للجيش الإسلامى (النبى ﷺ) لن يخلف الميعاد وأنه لابد زاحف إلى منطقة بدر وفاء بالكلمة التى أعطاها .

ولذلك فإن أبا سفيان (وقبل أن يتحرك الجيش النبوى من المدينة) قام بمناورة قصد بها تخويف المسلمين لعلهم يعدلون عن الخروج إلى بدر فيحصل له ماأراد ، دون أن يفهم العرب أنه نكل عن الحرب .

فقد أرسل الى المدينة من يشيع بين المسلمين أن قريشاً قد خرجت إلى بدر بجيش لم تشهد الجزيرة العربية مثله فى الضخامة والتنظيم ، وذلك لتثبيط المسلمين وبث الرعب فى نفوسهم .

أبو سفيان يستأجر نعيم بن مسعود للإرجاف

وقد استأجر زعيم مكة أبو سفيان للقيام بهذه المهمة رجلاً اسمه نعيم بن مسعود [١] إذ جعل له أبو سفيان مكافأة عشرين بعيراً إن هو قام بهذه المهمة .

حيث قال له : إنه بدا لى أن لا أخرج وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا .. فيزيد المسلمين ذلك جرأة ، فلأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى ، فالحق بالمدينة وأعلمهم أنا فى جمع كثير ولاطاقة له بنا ولك عندى من الإبل كذا وكذا أدفعها لك على يد سهيل ابن عمرو[٢] .

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد)

(٢) انظر ترجمة سهيل بن عمرو رضى الله عنه فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

وبعد أن ضمن سهيل بن عمرو لنعيم بن مسعود ماتعهد أبو سفيان بدفعه من الإبل له ، سافر إلى المدينة وأخذ يرجف بين المسلمين بكثرة جموع أبى سفيان ، وصار يطوف بذلك بين المسلمين فى المدينة حتى أثر إرجافه تأثيراً كبيراً على المسلمين ساعده فى ذلك اليهود والمنافقون .

تأثر المسلمين بالإرجاف

ولقد قذفت إشاعة نعيم بن مسعود الرعب فى نفوس المسلمين حتى لم يبق لهم نية فى الخروج [1] وشاع ذلك فى المدينة فسر اليهود والمنافقون سروراً عظيماً ، وقالوا .. محمد لايفلت من هذا الجمع .

وغاظ أبا بكر وعمر ماسمعا من إرجاف وتثبيط بين المسلمين فجاءا مشجعين إلى النبى ﷺ يحضانه على الخروج إلى بدر لئلا يطمع المشركون فيهم ، فقالا له :

يارسول الله .. إن الله مظهر نبيه ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم موعداً لانحب أن نتخلف عنه ، فيرون أن هذا جبن ، فسر لموعدهم ، فو الله إن فى ذلك لخيرة ، فسر النبى ﷺ بذلك وأعلن أنه خارج إلى بدر قائلاً .. والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد ، ثم أعلن التعبئة ، فأذهب الله عن المسلمين ما كان قد أصابهم من الخوف نتيجة إرجاف نعيم بن مسعود ، وتسابق المسلمون إلى حمل السلاح فاجتمع منهم حوالى ألف

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٧ .

وخمسمائة مقاتل ، تحرك به النبى ﷺ نحو بدر ، وقد أعطى النبى ﷺ راية الجيش لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأمير النائب علي المدينة

وقبل أن يغادر الرسول ﷺ المدينة أصدر مرسوماً عين بموجبه عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول (١) أميراً على المدينة ينوب عنه مدة غيابه فى هذه الحملة .

وقد وصل الجيش الإسلامى (فعلاً) إلى بدر فى اليوم المحدد وعسكر بها ثمانى ليال فى انتظار جيش مكة ، كما هو الاتفاق بين الفريقين .

ولكن قادة الجيش المكى جبنوا عن ملاقاة المسلمين وخافوا الاصطدام بهم بالرغم من أن قواتهم تبلغ ضعف قوات المسلمين التى خرجت للقائهم .

جيش مكة ينكل عن المعركة

فقد خرج أبو سفيان بالجيش المكى إلا أن قادة هذا الجيش (وتحت تأثير عقدة الخوف المستحكمة فى نفوسهم من المسلمين) آثروا السلامة وقرروا العودة بالجيش إلى مكة بعد أن قطعوا فى اتجاه بدر عدة مراحل ، وكان عُسْفان هو المكان الذى عادوا منه إلى مكة .

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن عبد الله ابن أبى بن سلول فى كتابنا (غزوة أحد) .

ففى هذا المكان اجتمع قادة الجيش المكى وزعماؤه وانتهى اجتماعهم بقرار يقضى بعودة الجيش والتوقف عن مواصلة الزحف إلى بدر ، والحجة التى برروا بها هذا التراجع هى أن الظروف غير ملائمة للحرب لأنها ظروف جدب وجفاف لاتتناسب وتحركات جيش ضخم مثل ذلك الجيش الذى عليه أن يقطع أكثر من ٢٥٠ ميلاً .

أبو سفيان يخطب في الجيش

فقد وقف القائد العام للجيش المكى (أبو سفيان بن حرب) خطيباً فى الجيش معلنا أوامره بعودة الجيش الى مكة والعدول عن ملاقاة المسلمين وشارحاً الأسباب قائلا:

يامعشر قريش .. إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا .

فأطاع الجيش الأوامر ، وعاد أدراجه إلى مكة مفضلاً عار النكول على الهزيمة الساحقة التى يتوقع نزولها به لو أنه أقدم على ملاقاة المسلمين فى بدر .

أما المسلمون فقد أقام بهم النبى ﷺ فى بدر ثمانى ليال فى انتظار الجيش المكى لخوض المعركة الفاصلة ، ولكنهم بعد أن بغلتهم أنباء انخذال الجيش المكى ونكوله عن الحرب ورجوعه من عسفان إلى مكة عادوا إلى المدينة .

ولقد محا الجيش الإسلامى بوصوله إلى بدر آخر أثر من الآثار السيئة التى تركتها انتكاسة المسلمين فى معركة أُحد فى السنة الماضية .

محو آثار هزيمة أُحد

لقد كانت تحركات الجيش الإسلامى من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت بها وجوده وأعطى الدليل القاطع لأعداء الاسلام (داخل المدينة وخارجها) أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة ، لا فى منطقة يثرب فحسب بل فى جزيرة العرب بأجمعها .

ولا أدلّ على ذلك من أن جيش مكة ، وهو من أعظم الجيوش فى الجزيرة من حيث كثرة العددِ وقوة التنظيم وجودة التسلح قد هاب الجيش الإسلامى ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (فى تحدٍّ) قائد عام جيش مكة نفسه .

ولا شك أن حملة بدر (الآخرة) التى قادها النبى ﷺ قد كانت تحدياً صارخاً مهيناً لمعسكر قريش الوثنى ، كما أنها كانت – كذلك – بمثابة إرهاب وتأديب لجميع القبائل العربية المعادية للإسلام ، والتى كانت – بعد ماأصاب المسلمين فى أحد – تحدث نفسها بالاعتداء عليهم .

فقد لزمت قريش الهدوء ولم تقم بأية حركة عسكرية ضد المسلمين بعد جملتهم هذه التى قاموا بها إلى بدر حتى موقعة الأحزاب الفاصلة التى اشتركت فيه أكثر القبائل العربية المشركة .

ومما يدل على نجاح المناورة الكبيرة التى قام بها الجيش الاسلامى حتى بدر وأن المنطقة الشاسعة الممتدة من المدينة حتى بدر وما حواليها أصبحت تخشى بأس المسلمين ، بعد أن كان زعماؤها يعدون العدة لسحقهم، هو أن مخشى بن عمرو الضمرى أحد زعماء قبائل منطقة بدر

قد جاء إلى النبى ﷺ وهو معسكر بها فى انتظار جيش مكة ، قال له (جاساً النبض وكالمحتج) : يا محمد (ﷺ) أجئت للقاء قريش على هذا الماء ، أى ماء بدر الواقع فى أراضى بنى ضمرة ؟.

فأجابه النبى ﷺ – بلهجة القوى الواثق من نفسه وجيشه – نعم يا أخا ضمرة وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك .

وكان النبى ﷺ – قبل معركة بدر الكبرى – قد عقد بينه وبين قبائل بنى ضمرة معاهدة عدم اعتداء ، وذلك أثناء قيامه بإحدى الدوريات الاستطلاعية فى منطقة (وِدّان) فى السنة الأولى من الهجرة .

لقد أسمع النبى ﷺ سيد قبائل بنى ضمرة هذا الجواب الذى عرض فيه إنهاء المعاهدة بينه وبين بنى ضمرة – فى منطقة تموج بالمسلحين من هذه القبائل – ولكن سيد بنى ضمرة (مخشى بن عمرو) قال للنبى ﷺ – فى تلطف ووجل – لا والله يامحمد مالنا بذلك من حاجة ، وهذا دليل على أن قوة المسلمين العسكرية يوم ذاك بلغت درجة لم تخش معها أحداً من هذه القبائل وأن كل آثار انتكاسة أُحد قد زالت .

٦ – غزوة دومة الجندلِ .. (المحرم السنة الرابعة للهجرة)

تقع دومة الجندل هذه فى الطرف الشمالى الغربى للجزيرة العربية مما يلى الشام وعلى بعد ست عشرة ليلة من المدينة وخمس ليال من دمشق.

وغزوة دومة الجندل هذه ، هى الحملة العسكرية السادسة التى قام بها المسلمون قبل معركة الاحزاب وبعد غزوة أُحد .

وسبب تجريد هذه الحملة هو أن استخبارات الجيش النبوى حصلت على معلومات مفادها أن قبائل دومة الجندل قد أخذوا فى التجمع لغزو المدينة ، وأنهم يخيفون الناس ويقطعون الطريق ويظلمون من يمر بهم .

وعلى عادة النبى المتبعة فى سلوك خطة المباغتة وتأديب الاعراب بنقل المعركة إلى مضاربهم بسرعة ، جهز قوة خفيفة قوامها ألف مقاتل وأسرع بها فى اتجاه دومة الجندل .

ولما كان المسلمون يجهلون تلك المسالك الشاسعة البعيدة اتخذوا أحد العذريين الخبيرين بتلك المناطق واسمه (مذكور) دليلاً إلى دومة الجندل .

أمير المدينة بالنيابة

وقبل مغادرة النبى المدينة أصدر مرسوماً نبوياً عين بموجبه سبّاع ابن عرفطة (١) الغفارى أميراً على المدينة ينوب عنه حتى عودته من هذه الغزوة .

وقد تحرك النبى ﷺ بجيشه بأقصى سرعة ممكنة لكى يأخذ

(١) هو سباع بن عرفطة الغفارى ويقال الكنانى ، قال البخارى فى التاريخ الصغير ، عن أبى هريرة أنه قال : قدمت المدينة والنبى صلى الله عليه وسلم بخيبر وقد استخلف على المدينة سباع بن عرفطة فشهدنا معه الصبح وجهرنا ، وهذا يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم استعمله أميراً على المدينة مرتين

المحتشدين من الأعداء على حين غرة ، وكان (زيادة فى إخفاء خبر هذه الحملة) يسير الليل ويكمن النهار حتى وصل مكان التجمع .

ولكن المحتشدين فى دومة الجندل نقلت إليهم استخباراتهم خبر تحركات المسلمين قبل وصولهم إليهم بيوم تقريباً ، فبمجرد علم هؤلاء الأعراب المجتمعين فى دومة الجندل بدنو الجيش الإسلامى من بلادهم انتابهم الرعب والخوف فتفرقوا بسرعة تاركين منازلهم فراراً بأرواحهم .

وكان الدليل العذرى ، قد أرشد المسلمين إلى المراعى التى فيها سوائم بنى تميم ، فداهم الجيش تلك المراعى فاستولى على عدد كبير من مواشيهم ، وقد فر الرعاة بما أمكنهم الفرار به من المواشى .

نجاح الحملة

ثم واصل الجيش تقدمه حتى نزل منازل القوم فلم يجد بها أحداً فعسكر بها أياماً وبث الدوريات العسكرية للتعقب فلولهم ، فانتشرت فى المنطقة ، ولكنها وجدتهم قد تفرقوا واختفوا ، ولم تجد الدوريات إلا رجلا واحداً أتوا به رسول الله ﷺ فسأله عن قومه ، فأخبره أنهم هربوا قبل وصول الجيش بيوم واحد . فعرض عليه الرسول ، الاسلام فأسلم .

المغزي البعيد للحملة

ولايستبعد أن يكون الرسول ﷺ قد قصد بهذه الحملة العسكرية

التى قطع بها إلي دومة الجندل ست عشرة ليلة .. لايستبعد أن يكون قصد به إرهاب الرومان الذين تقع المنطقة التى وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق .

بل لقد أكد الواقدى هذا فى مغازيه . كما نقل عند ابن كثير فى البداية والنهاية حيث قال .. قال محمد بن عمر الواقدى بإسناده عن شيوخه عن جماعة من السلف قالوا .. أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له .. إن ذلك مما يفزع قيصر .

مدة الحملة

وقد عاد الرسول ﷺ من هذه الغزوة إلى المدينة بعد غيبة استغرقت حوالى خمسين يوماً ، و أثناء عودته من غزوة دومة الجندل عقد مع الزعيم الفزارى المعروف (عيينة بن حصن) معاهدة عدم اعتداء ، بموجب هذه الموادعة سمح النبى ﷺ لعيينه بن حصن أن يرعى بأرض تابعة للمسلمين تقع على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ، لأن الزعيم الفزارى هذا اشتكى للنبى جدب أرض فزارة بنجد .

٧ - غزوة بني المصطلق .. (١) (أول شعبان سنة أربع من الهجرة).

وبنو المصطلق بطن من خزاعة الحجاز ، تقع منازلهم ناحية (قُديد) وعلى بعد حوالى مائة وسبعين ميلا من المدينة . وسبب هذه الغزوة أن

(١) بنو المصطلق (بطن من خزاعة من القحطانيين الذين نزحوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب) واسم المصطلق ، جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة كانت لهم فى الجاهلية وقائع حربية شهرية ، مع هذيل من العدنانية .

الاستخبارات الاسلامية نقلت إلى النبى ﷺ نبأ مفاده أن سيد بنى المصطلق (الحارث بن أبى ضرار) (١) قد أخذ يحشد قومه ومن أطاعه من قبائل العرب المجاورة لحرب رسول الله ﷺ ، وأنه قد جمع جموعاً كبيرة يريد بها غزو المدينة .

فسارع الرسول ﷺ وأرسل أحد استخباراته الأذكياء المحنكين ليستطلع له وينظر فيما إذا كان الخبر الذى تلقاه صحيحاً أم لا ، وكان الذى وقع عليه الاختيار لهذه المهمة هو بريدة بن الحصيب الأسلمى (٢) .

وقبل أن يغادر رجل الاستخبارات النبوية المدينة طلب من الرسول ﷺ أن يسمح له باللجوء إلى الكذب على العدو إذا ما اضطر إلى ذلك أثناء قيامه بمهمته فى أرض العدو ، فسمح له بذلك كضرورة يلجأ إليها رجل الاستخبارات فى مثل هذه المواقف .

وبأقصى سرعة انطلق رائد الاستخبارات النبوية (بريدة) ولم تمض أيام قليلة حتى كان بين بنى المصطلق فى مضاربهم ، وبعد إجراء التحرى اللازم وجد الخبر صحيحاً .

وقد استقى الحقيقة من مصدرها إذ قابل قائد الحشد الحارث بن

---

(١) هو الحارث بن أبى ضرار بن خبيب بن عائذ بن مالك بن المصطلق الخزاعى ، قائد هذه القبيلة العظيمة فى تلك المعركة الخاسرة ، وهو والد جويرية أم المؤمنين ، أسلم بعد غزوة بنى المصطلق ، وحسن إسلامه .

(٢) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمى ، قال ابن السكن ، أسلم حين مر به النبى صلى الله عليه وسلم - مهاجراً - بالغميم .. من فضلاء الصحابة ، وفى الصحيحين أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ست عشرة غزوة ، وكان من قادة الفتح الإسلامى غزا خراسان فى خلافة أمير المؤمنين عثمان ، وتوفى فى خلافة يزيد بن معاوية .

أبى ضرار نفسه ، وبعد أن عرفه بنفسه منتحلاً اسماً غير اسمه ومنتسباً إلى غير قبيلته وأنه جاء للانضمام الى الحشد لحرب محمد ، سأل الحارث هل هو مصمم على غزو المدينة ، فأكد له ذلك قائلاً : فنحن على ذلك فعجل علينا بأصحابك ، فصافحه بريدة مودعاً على أن يأتى بقومه للانضمام الى الحشد ثم أركض فرسه وانصرف .

طار بريدة على فرسه (وبأقصى سرعة) وصل المدينة وأخبر الرسول الخبر وأطلعه على تفاصيل ما رأى ، فاستنفر الرسول قوات الجيش وأعلن أنه ذاهب إلى ديار بنى المصطلق لضربهم وتأديبهم ، فتمت التعبئة بسرعة ، وفصل النبى ﷺ من المدينة بجيش كبير فيه من سلاح المطاردة ثلاثون فرساً .

أمير للمدينة بالنيابة

وقبل مغادرته المدينة عين عليها أميراً زيد بن حارثة ، وقد قسم النبى ﷺ جيشه الزاحف على بنى المصطلق إلى قسمين :

(١) المهاجرون ، وأعطى رايتهم لأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(ب) الأنصار ، وأعطى رايتهم لسيد الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه.

المنافقون في الجيش

وفى هذه الحملة خرج مع الرسول جمع كبير من المنافقين لم يخرج مثله فى غزاة مثلها قط ، وكان من بين هؤلاء المنافقين رأس النفاق (عبد الله بنى أبى بن سلول) .

سار النبى ﷺ بجيشه يحث السير لكى يأخذ بنى المصطلق على حين غرة ، وأثناء تحركات الجيش الإسلامى قبض رجال استخبارات هذا الجيش على رجل اشتبهوا فى أمره ، فجاؤا به إلى النبى القائد ﷺ ، ولدى استجوابه اتضح أنه جاسوس للعدو أرسله زعيم بنى المصطلق للاستكشاف ومعرفة تحركات الجيش الإسلامى ، وبعد استجوابه عرض النبى على هذا الجاسوس الاسلام فأبى ، فامر بإعدامه فى الحال ، وكان الذى تولى إعدامه (ضرباً بالسيف) عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمر خاص من النبى ﷺ .

وقد بلغ قائد الحشد فى بنى المصطلق نبأ إعدام جاسوسه فانزعج لذلك ، وشاع خبر مقتل الجاسوس بين القبائل التى كانت قد تجمعت مع الحارث لحرب النبى ، وبلغها خبر زحف النبى بجيشه عليهم فخافوا خوفاً شديداً ، فتفرق لذلك عن الحارث كثير ممن اجتمعوا إليه لحرب النبى * .

وواصل النبى ﷺ السير بجيشه حتى فاجأ بنى المصطلق فى مكان تحشدهم فى قُديد بالقرب من ساحل البحر الأحمر على ماء لهم ﷺ يقال له المريسيع (١) فعسكر هناك .

نشوب المعركة وانهزام العدو

وبعد أن تصاف الفريقان وقبل أن يعطى الرسول ﷺ شارة الهجوم

---

(١) قال فى مراصد الاطلاع (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وسين مهملة مكسورة وياء أخرى وآخره عين مهملة) ورواه بعضهم بالغين المعجمة – ماء من ناحية قديد إلى الساحل ، به غزوة النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق .

أمر عمر بن الخطاب أن يتوجه إلى بنى المصطلق بنداء يدعوهم فيه إلى الدخول فى الاسلام ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

فوقف ابن الخطاب ونادى .. يابنى المصطلق ، قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم (١) وأموالكم .. فرفضوا وأبوا إلا الكفر والحرب .

ثم ترامى الفريقان بالنبل ، وبعدها أعطى الرسول إشارة الهجوم فحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ثم أحاطوا بهم فما أفلت منهم رجل واحد .

فقد استسلموا جميعهم للأسر بعد أن سقط منهم عشرة قتلى ، ثم استولى الجيش الإسلامى على منازلهم وعلى كل مافيها واستاق كل مايملكون من الخيل والشاة والإبل ، وسبى نساءهم وذراريهم .

الأسري والغنائم

وقد كانت الغنائم فى هذه الغزوة عظيمة جداً ، فقد بلغت الغنائم من الأبل ألفى رأس وخمسة الاف شاة كما أن عدد السبى من النساء والذرارى بلغ سبعمائة (١) بينهم جويرية بنت الحارث زعيم بنى المصطلق وقائد الحشد المهزوم ، وقد تزوجها رسول الله ﷺ ، بعد أن افتداها أبوها وأسلمت وأسلم أبوها .

وبعد أن تم جمع الغنائم ووضع الأسرى من الرجال فى القيود ، وفى

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ٧٠ .

مكان للمعركة قسم الرسول ﷺ الغنائم بين المحاربين حسب النظام المتبع في قانون الحرب الإسلامي .

فأعطى للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفرس وسهم لصاحبه ، وأعطى للرجال سهماً واحداً بعد أن أخذ ﷺ خمس الغنيمة ليتصرف فيها وفق المصلحة العامة وتمشياً مع النص الثابت في القرآن الكريم وهو قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن ماغنتم من شيء فإن لله خُمسُهُ وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ الآية (١) .

أما الأسرى والسبايا من النساء والذرية فقد أطلق النبي ﷺ ، سراح بعضهم (مناً) والبعض الآخر دفع أهله فديته فأطلق سراحه في مكان المعركة .

وقد حمل الجيش معه الى المدينة بعض الأسرى والسبي ، ولكن أهلوهم لحقوا بهم فافتدوهم (أي دفعوا مقابل إطلاق سراحهم مبلغاً معلوماً من المال) ، فلم تبق امرأة من بني المصطلق وقعت في السبي إلا رجعت إلى أهلها ، اللهم إلا جويرية بنت الحارث التي تزوجها النبي ﷺ .

ولم يقتل النبي ﷺ أحدا ﷺ ممن وقع في الاسر من بني المصطلق .

إطلاق سراح جميع الأسري

ولما علم المسلمون بتزوج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث ، قالوا (في حق بني المصطلق) .. أصهار رسول الله ﷺ ثم أعتقوا كل من بقي

---

(١) الانفال ٤١ .

فى أسرهم من الرجال والنساء إكراماً لرسول الله ﷺ ، فكان الذين تم عتقهم بلا فدية من بنى المصطلق أهل مائة بيت ، فكانت عائشة رضى الله عنها تقول .. لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية ، أُعتق بتزويجها لرسول الله ﷺ أهل مائة بيت (١) .

المنافقون يثيرون الفتنة داخل الجيش

وفى غزوة بنى المصطلق هذه كادت تنشب حرب أهلية طاحنة بين المسلمين وهم ديار بنى المصطلق ، وذلك أن رجلاً من غفار حليف للمهاجرين اسمه جهجاه ، وسنان بن وبر الجهنى حليف الخزرج ، تخاصما على الماء ، فصرخ الغفارى مستغيثاً .. يالكنانة ، وصرخ الجهنى يا للأنصار ، وعندها أقبل جمع من الفريقين (الأنصار وقريش) وقد شهروا السلاح حمية فكادت تحدث فتنة ومعركة دامية لولا أن الرسول ﷺ بادر بالخروج إلى مكان الحادث وقضى على الفتنة بحكمته المعروفة .

حيث وقف ﷺ فى ذلك الحشد من المسلمين مستنكراً ماحدث قائلا .. مابال دعوى الجاهلية ، (أى تلك الكلمة القبلية التقليدية ، يالفلان) ؟ فقالوا .. رجل من المهاجرين ضرب رجلاً من الأنصار ، فقال .. دعوها (أى دعوى العنصرية الجاهلية) فإنها منتنة ، من دعا دعوى الجاهلية كان من محشى جهنم ، قيل يارسول الله .. وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم؟ قال .. وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٩٥ .

(٢) السيرة الحلبية ٢ ص ٧٦ .

وقد انتهت هذه الفتنة ، لاسيما وأن الانصارى المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجرى ، فماتت بذلك الفتنة .

رأس الفتنة يتكلم

ولكن انتهاء الفتنة الاهلية بهذه السرعة لم يرق لرأس النفاق عبد الله بن أبى الذى كان موجوداً فى الجيش مع المسلمين ، فقد اعتبر مثل ذلك الحادث فرصة المنافقين الذهبية لإذكاء نيران الفتنة بين أصحاب محمد ، ولكن هذه الفرصة فاتت على المنافقين بتصالح الرجلين وانصياع الفريقين لتوجيهات نبيهم عليه السلام ، فغاظ ذلك عبد الله بن أبى فقال : (وهو فى رهط من قومه الخزرج فى المعسكر وفيهم ، زيد بن أرقم – وكان غلاماً صغيراً) ، قال (فى حنق وعصبية وغيظ) .. أو قد فعلوها – يعنى المهاجرين – ما رأيت كاليوم مذلة قط .. قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا .. والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الاول (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

ثم أقبل رأس النفاق على من حضر من قومه – مذكياً فى نفوسهم روح العداء للمهاجرين – قائلاً .. هذا مافعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم مابأيديكم لتحولوا الى غير داركم (١) .

ثم قال الخبيث (وكلامه موجهاً للأنصار) .. ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه (يعنى النبى ﷺ)

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩١ .

فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد ..

وفى الحال نقل زيد بن أرقم (١) هذا الكلام الخطير الذى فاه به رأس النفاق إلى رسول الله ﷺ ، وقد غضب الرسول ﷺ لهذا الخبر غضباً شديداً وتغير وجهه.

إلا أنه ﷺ (ولئلا تتسع الشقة وتحدث فتنة فى المعسكر من جديد) أحب تلطيف الأمر وأظهر شكه فى صدق ما نقل إليه زيد بن أرقم (وكان شاباً صغير السن) فقال له .. ياغلام لعلك غضبت عليه ، قال .. والله يارسول الله .. لقد سمعته منه .. قال .. لعله أخطأ سمعك .

وقد لام الغلام رجال من قومه الخزرج ، فقالوا له .. عمدت إلى سيد قومك تقول عليه مالم يقل ، فقال زيد والله لقد سمعت ماقال ، ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﷺ - وإى لأرجو أن ينزل الله تعالى على نبيه ﷺ مايصدق حديثى .

حكمة الرسول تنقذ الموقف

وكان عبد الله بن أبى سيداً فى قومه الخزرج ، وماكانت عدواته للنبى وبغضه للمسلمين لتخفى على النبى ﷺ ولكنه ﷺ لم يشأ التوسع فى الموضوع ، بل حاول إسدال الستار عليه خوف الفتنة .

وعندما طلب عمر بن الخطاب من رسول الله ﷺ أن يسمح له بضرب

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا غزوة أحد .

عنق رأس النفاق عبد الله بن أبى - وهم لما يزالوا فى ديار بنى المصطلق - رفض النبى هذا الطلب قائلاً .. فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟؟ . فقال عمر .. إن كرهت أن يقتله مهاجرى فأمر أنصارياً يقتله ، فلم يوافق النبى ﷺ على ذلك . بل رفض هذا الاقتراح أيضاً قائلاً لعمر .. ترعد له (إذن) أُنُفٌ كثيرة بيثرب ، .. يعنى النبى ﷺ بقوله هذا إ قتل عبد الله بن أبى على هذه الصورة قد يكون سبباً فى إثارة حرب أهلية بين المسلمين لأنه كان يتوقع غضب رجال كثيرين من الخزرج لقتل زعيمهم عبد الله بن أبىّ ، لاسيما وأن كثيراً منهم لايعلمون حقيقة نفاقه .

خطوة حكيمة حاسمة

غير أن النبى ﷺ كقائد أعلى للجيش ورئيس دولة مسئول لما رأى تطور الموقف وازدياد الخطر نتيجة للكلام الذى فاه به عبد الله ابن أبى وحرض به على الفتنة فى المعسكر سارع إلى اتخاذ خطوة سريعة حاسمة بها أشغل الناس (تماماً) عن الخوض فى الحديث الذى كان بالأمس من عبد الله بن أبى .

فقد أمر ﷺ بأن يتحرك الجيش بسرعة فى اتجاه المدينة وأمر بأن يسير الجيش حوالى ثلاثين ساعة دونما توقف ، وكان يقصد بذلك أن يتعب الناس فلا يجدوا مجالاً للحديث عن الموضوع الخطير الذى أثاره رأس النفاق وهم فى ديار بنى المصطلق .

قال ابن كثير فى البداية والنهاية - يصف ذلك - .. ثم مشى رسول

الله ﷺ بالناس يومئذ حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى[1] .

هو والله الذليل وأنت العزيز

وقال ابن إسحاق .. فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسيد بن حضير [2] - من سادات الخزرج - فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال يانبى الله ، ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال له (وكان أسيد من خاصة أصحابه) .. أو مابلغك ماقال صاحبكم ؟ . قال .. وأى صاحب يارسول الله ؟ ، قال .. عبد الله بن أبى ، قال .. وماقال ؟ قال .. زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال .. فأنت يارسول الله والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال .. يارسول الله .. إرفق به . . فو الله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً [3] .

---

(١) انظر ترجمة هذا المنافق فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا غزوة بدر الكبرى الطبعة الثانية .

(٣) هذا الكلام الذى رواه ابن اسحاق عن النبى صلى الله عليه وسلم يدل على أن النبى القائد واثق من صدق الغلام زيد بن أرقم فيما نقل إليه من كلام المنافق عبد الله بن أبى إلا أنه صلى الله عليه وسلم أحب أن لايتسع الحديث والنقاش حول هذا الموضوع الخطير ولذلك قال لزيد بن أرقم .. لعلك غضبت عليه ، أو لعله أخطأ سمعك ثم أمره (فوراً) بالرحيل لينسى الناس هذا الحديث الخطير

ولم يشأ النبى ﷺ أن يجرى أى تحقيق فيما نسب إلى رأس النفاق من قول خطير أو يتخذ أى إجراء ضده للمقالة القبيحة التى قال ، إلا إن وجوه قوم ابن أبى من الخزرج جاءوا إليه وقالوا له .. يا ابا الحبُاب ، إن كنت قلت مانقل عنك فأخبر به النبى ﷺ - فليستغفر لك ولاتجحده فينزل فيك مايكذّبك وإن كنت لم تقله فائت رسول الله ﷺ فاعتذر له .

فحلف لقومه بالله العظيم أنه ماقال من ذلك شيئاً ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئاً مما نقله إليه زيد بن أرقم .

هكذا تصنع العقائد الرجال

وقد كان لهذا المنافق الكبير عبد الله بن أبى ، إبنٌ صالح بار ، فلما بلغه مقالة أبيه الخبيثة وما أشيع من استئذان ابن الخطاب فى قتله ، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال :

« يارسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله (يعنى والده) فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى أن أحمل لك رأسه ، فول الله لقد علمت الخزرج ماكان بها رجل أبر بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار » .

فقال رسول الله ﷺ لهذا الشاب المؤمن .. ماأردت قتله ولا أمرت به ولنحسنن صحبته ماكان بين أظهرنا ، وكان لهذا الموقف الحيكم الذى وقفه

النبى ﷺ من رأس النفاق أثر كبير فى الحد من شرور هذا المنافق ، فكان قومه - بعد ذلك إذا أحدث الحدث هم الذين - يعاتبونه ويأخذون ويعنفونه .

يمنع أباه من دخول المدينة

وذكر عكرمة أن عبد الله هذا لما بلغته مقالة أبيه الخبيثة وقف له - آثر عودة الجيش من بنى المصطلق - عند مضيق المدينة ثم قال له قف فو الله لاتدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ فى ذلك ، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه فى ذلك فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة .

وبعد أن عرف قوم ابن أبىّ حقيقة هذا المنافق وقف منه ابنه وقومه ذلك الموقف حيث صاروا هم يتولون تعنيفه وتبكيته ، وقد أحب الرسول ﷺ أن يبين لعمر بن الخطاب نتائج الموقف الحكيم الذى وقفه من رأس النفاق ساعة أن قال تلك المقالة الخبيثة ، فقال ﷺ .. ياعمر أما والله لو قتلته يوم قلت لى ، لأرعدت له أُنُفَ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى .

مقالة ابن أبي في القرآن

وأنزل الله تعالى سورة من القرآن - بعد المقالة الخبيثة التى قالها رأس النفاق ، فوضح فيها أمر هذا المنافق الكذاب ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (١) .

ولما نزلت هذه السورة وفيها (بالطبع) تأكيد ما قاله الغلام زيد ابن أرقم عن رأس النفاق ، أخذ النبى ﷺ بأذن الغلام زيد ، ثم قال - مؤكداً صدقه - هذا الذى أوفى الله بأُذُنِه (٢) .

وقد عاد النبى ﷺ إلى المدينة من غزوة بنى المصطلق فى غرة شهر رمضان ، فاستغرقت غيبته عن المدينة فى هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً . وقد كان بعض المؤرخين يسمونها (بغزوة العجائب) لكثرة ماحدث فيها من الأمور العجيبة .

المعركة الكبري .. حديث الإفك

وأثناء عودة الرسول ﷺ من غزوة بنى المصطلق هذه ، قال المنافقون فى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تلك المقالة الخبيثة من الإفك ، الذى به نالوا عرض رسول الله ﷺ حتى آذوه أشد الإيذاء وجعلوه عرضه لأعنف الآلام النفسية وأشدها .

الشرارة الأولي

كان رأس النفاق ، ممثل عصبة اليهود والمنافقين ، عبد الله ابن أبى بن سلول ، موجوداً ضمن الجيش الإسلامى الذى غزا بنى المصطلق ،

(١) المنافقون آية ٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٩٢ .

وكان هذا المنافق المجرم ، لايجد فرصة يكيد فيها للإسلام ويحط من شأن رسالته إلا اغتنمها .

وبينما هذا المنافق الأكبر موجوداً فى المعسكر بين قومه الخزرج ، إذا بالصحابى الجليل صفوان بن المعطل يمر بهودج أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فيقول هذا المنافق (إبن أبى) : من هذه ؟ . فيقولون : عائشة رضى الله عنها ، فيقول المنافق الأكبر : والله مانجت منه ولانجا منها ، ثم يعقب على ذلك بقوله : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

هذه القولة الخبيثة المنكرة ، هى الشرارة الأولى التى أشعلت حديث الإفك ، فكانت (بسببها) معركة كبرى من الآلام خاضها النبى ﷺ طيلة شهر كامل .

لقد كان حديث الإفك من تدبيرات المنافقين القاتلة ، وهو أحد الأسلحة السياسية الكبيرة الفتاكة التى تلجأ إليها عصابة النفاق للكيد للإسلام وتفريق كلمة المسلمين وتفتيت وحدتهم .

ولقد نظم المنافق الأكبر وحزبه حملات واسعة أشاع بها هذا الحديث المفترى ، وروج له بدقة وإحكام حتى انخدع به كثير من المسلمين ، فخاض فيه منهم من خاض حتى وصل البعض منهم فى الخوض فى هذا الحديث المفترى ، إلى الدرجة التى بها أقيم عليه الحد ، كحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن أثاثة ، وقد تضخم حديث الإفك حتى صار شغل أهل المدينة الشاغل .

ولقد آتت مساعى عصبة الإفك والنفاق ثمارها إلى حد بعيد فقد فعلت حملات الإفك الظالمة فعلها المخيف فى نفوس المجتمع الإسلامى ..

وحتى ذلك القلب الكبير النقى الطاهر ، قلب النبى محمد ﷺ صار عرضة لنزوع الشك والحيرة والقلق ، فقد أثرت تلك الإشاعات الكاذبة فى نفسه فأعرض عن زوجته الطيبة الطاهرة الحنون ، مما اضطرها إلى الانتقال إلى بيت أبيها الصديق رضى الله عنه مشكوكاً فيها من زوجها العظيم وظلت هناك حتى نزلت براءتها من السماء قرآناً يتلى أبد الآبدين .

وكانت محنة (بل أعظم محنة نفسية شاقة مضنية) تعرض لها النبى محمد ﷺ فى حياته ، وهل هناك أعظم وأشد إيلاماً من أن يطعن الانسان فى عرضه ، وخاصة من هو على مستوى النبوة والقيادة للأمة كلها ؟ .

ولقد استمرت المحنة (التى تكلف فيها صاحب أطهر نفس فى تاريخ الإنسانية من الآلام ماتنهد له الجبال) شهراً كاملاً انقطع خلاله اتصال السماء بالأرض ، وظل فيه ذلك القلب الكبير النقى معلقاً بحبال الشك تعتصره الآلام الى أخف منها آلام طعن الرماح ووقع السيوف .

أما آل الصديق ، أما بنت الصديق ، أما زوج الصديق ، أما الصديق نفسه ، ذو الوقار المتناهى والحساسية المرهفة والطيبة الكاملة فقد كانت مصيبتهم أعظم من أن توصف ، ويالها من مصيبة ، وهل هناك أعظم من أن يصاب بيت كريم رفيع العماد بالطعن فى عرض ابنته .. وزوجة من ؟؟ .. زوجة محمد بن عبد الله ﷺ ، حبيب أبيها ورفيقه فى النضال والجهاد منذ بزغت شمس الاسلام على هذه الأرض .

ولقد عقد هول الفاجعة ألسنة أهل ذلك البيت الطاهر بيت الصديق

الأكبر ، فكانوا أمام تلك الإشاعات الظالمة الكاذبة المدبرة المغرضة التى أغرقت المدينة ، لا يحيرون جواباً . وماذا عساهم أن يقولو ، والشك فى ابنتهم قد تسرب إلى قلب زوجها النبى ﷺ نفسه ، ولقد انطوى أهل البيت الطيب الوادع الكريم على أنفسهم ، يهد منهم الألم بعنف وضراوة وهم لا يدرون ما يصنعون أو يقولون ، أمام هذه النازلة التى امتحنهم الله بها ، ولقد فاض الألم المدمر على لسان ذلك الرجل الوقور الصابر المؤمن ، الذى استفزته ضراوة ألم تلك الإشاعات القاتلة مرة فقال : والله ما رمينا بهذا فى جاهلية ، أفنرضى به فى الإسلام ؟ .

وعندما قالت له ابنته البرئية المعذبة المظلومة (والألم يطحن قلبها الأبيض الطاهر) : أجب عنى رسول الله ﷺ قال - فى ألم وإشفاق : والله مأدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

حقاً لقد كان حادث الإفك معركة آلام عنيفة طاحنة خاضها البيت النبوى الكريم ، وأضننت جروحها الثخينة قلوباً كبيرة طاهرة نقية ، وكادت تودى بنفوس بريئة كمداً وغماً .

عائشة تروي القصة المؤلمة

ولما فى هذا الحادث الخطير من عبر وعظات وتربيات يمكن أن يستفيد منها الذين يتسرعون فى رمى الأبرياء ، فإنا سندع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تروى لنا قصة هذا الالم القاتل الذى عاشته طيلة شهر كامل .

فقد روى الزهرى عن عروة وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت :

كان رسول الله ﷺ إذار أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها ، خرج بها معه ، وإنه أقرع بيننا فى غزوة (وهى غزوة بنى المصطلق) فخرج سهمى ، فخرجت معه بعد ماأُنزل الحجاب وأنا أُحمل فى الهوج ، وأنزل فيه .

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا (عقد) لى من جزع أظفار قد انقطع .

فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساءُ ، إذا ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ، وإنما نأكل العلقة (١) من الطعام .

فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم ، وليس فيه منهم ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ .

فبينما أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل (٢) السّلمى ، ثم الذكوانى ، قد عرَّس (١) وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند

---

(١) العلق (بضم ففتح) : جمع علقة ، وهى مافيه بلغة من الطعام إلى وقت الغذاء .

(٢) هو صفوان بن المعطل بن ربيعة (بالتصغير) بن خزاعى بن محارب السلمى ثم الذكوانى ، من السابقين فى الإسلام ، شهد الخندق والمشاهد كلها (فى قول الواقدى) كان فى غزوة بنى المصطلق اميراً على ساقة الجيش ، ولذلك كان آخر من يرتحل من رجال الجيش ، فى تلك الغزوة ، وقد عاش إلى أيام الخليفة الفاروق ، فغزا مع المسلمين حتى استشهد فى معركة بأرمينية سنة تسع عشرة .

منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه [٢] حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ماكلمنى بكلمة ، ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها .

فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعد مانزلوا معرسين[٣] قالت : فهلك فى شأنى من هلك ، وكان الذى تولى كبر الإثم عبد الله بن أبى بن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت [٤] بها شهراً ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ، ولاأشعر ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى ، وإنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف ، فذلك الذى يريبنى منه ، ولا أشعر بالشر حتى نقهت [٥] .

فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، وكنا لانخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكُنُف ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط .

---

(١) قال فى (اللسان) : والتعريس نزول القوم فى السفر من آخر الليل - يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم ينيخون وينامون نومة خفيفة ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين .

(٢) الاسترجاع هو قوله (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

(٣) سبق تفسير التعريس .

(٤) كناية عن المرض ، فإذا مرض الإنسان قالوا : (اشتكى) .

(٥) يعبر بالنقاهة عن قرب العهد بالمرض .

فأقبلت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب - حين فرغنا من شأننا نمشى ، فعثرت أم مسطح فى مرطها [1] فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئس ماقلت . أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : ياهنتاه ألم تسمعى ماقال ؟ فقلت : وما قال ؟ .

فأخبرتنى بقول أهل الافك ، فازددت مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى دخل رسول الله ﷺ .

فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لى أن آتى أبوىَّ وأنا حينئذ أُريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى .

فأتيت أبوىَّ فقلت لأمي : ياأمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ .

فقالت : يابنية هونى على نفسك الشأن ، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى أصبحت أبكى .

فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، والذى يعلم فى نفسه من الود لهم ، فقال أسامة : هم أهلك يارسول الله ، ولا نعلم والله إلا خيراً .

---

(١) المرط (بكسر الميم) الكساد .

وأما على بن أبى طالب فقال : يارسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تخبرك ، قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أى بريرة ، هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟

فقالت : لا والذى بعثك بالحق نبياً إن رأيت (أى مارأيت) منها أمراً أغمصه [1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن [2] فتأكله .

النبي يطلب كف أذي رأس النفاق

قالت : فقام رسول الله من يومه ، واستعذر من عبد الله بن أبى بن سلول « كبير مجرمى الإفك والناشرين له » فقال – وهو على المنبر : – (من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فو الله ، ماعلمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ماعلمت عليه إلا خيراً وماكان يدخل على أهلى إلا معى) .

قالت :فقام سعد بن معاذ رضى الله عنه فقال : يارسول الله أنا والله أعذرك منه . إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك .

فقام سعد بن عبادة رضى الله عنه وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحاً ولكن أخذته الحمية ، فقال : لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لاتقتله ولاتقدر على ذلك ، فقام أسيد بن حضير [3] – وهو

---

(١) أغمصه : أعيبه .

(٢) الداجن : الشاة فى البيت .

(٣) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

ابن عم سعد بن معاذ – فقال لسعد بن عبادة [١] : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين .

كادت الفتنة أن تنشب بين الأوس والخزرج

قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا « وهذا أغلى مايتمناه ويسعى إليه عبد الله بن أبى وحزبه من المنافقين واليهود » ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ونزل .

قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، فأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدى ، فبينما هما جالسان عند وأنا أبكى إذا استأذنت امرأة من الانصار ، فأذنت لها فجلست تبكى معى .

فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ، ثم جلس ولم يجلس عندى من يوم قيل فى ماقيل قبلها ، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء .

فتشهد حين جلس ، ثم قال :« أما بعد فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإذا كنت بريئة فسيبرؤك الله تعالى وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله تعالى عليه » .

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال .

قال : والله ماأدرى ماأقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله ﷺ قالت : والله مادرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

قالت عائشة : وأنا جارية حديثة السن لا اقرأ كثيراً من القرآن فقلت: إنى والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدث الناس به . فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة ، لتصدقننى ، فو الله ماأجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : { فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون } . ثم تحولت فاضطجعت على فراشى، وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى فىّ بأمر يتلى .

نزول الوحي ببراءة عائشة

قالت : ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله تعالى بها ، فو الله مارام مجلسه ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ فأخذة ماكان يأخذه من البرحاء ، فسرى عنه ، وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : ياعائشة إحمدى الله تعالى فإنه قد برأك ، فقالت أمى : قومى إلى رسول الله ﷺ

فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله تعالى ، وهو الذى أنزل براءتى.

قالت : فأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم .. العشر آيات ﴾ .

قال عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال : (يازينب . ماعلمت ومارأيت ؟) فقالت : يارسول الله أحمى سمعى وبصرى ، والله ماعلمت عليها إلا خيراً ، وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع ، قالت : فطفقت أُختها حمنة بنت جحش تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك . إ هـ

وقصة الإفك هذه أخرجها البخارى ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهرى ، وهكذا رواها ابن إسحاق كذلك مع اختلاف يسير

آيات التبرئة

وكانت الايات التى نزلت لتبدد غيوم فتنة الإفك عشر من سورة النور وهى قوله تعالى :

﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرى منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره [1] منهم له عذاب عظيم لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون – والمؤمنات بأنفسهم خيراً

---

(١) أى تحمل أكبر قسط من إثم الإفك : وهو رأس النفاق عبد الله بن أبى ، رأس كل فتنة وأساس كل إرجاف ، وحامل لواء الكيد للإسلام ونبى الإسلام ، فقد روى =

وقالوا هذا إفك مبين [1] .. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم ، الكاذبون .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والاخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم .. إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .. ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .. يعظكم الله أن تعودا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين .. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم .. إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم .. يا أيها الذين آمنوا

= أن هذا المنافق (وكان ضمن الجيش) لما رأى صفوان بن المعطل يمر بهودج أم المؤمنين ، (قال فى ملإ من قومه الخزرج) : من هذه ؟ فقالوا عائشة رضى الله عنها .. فقال المجرم : والله مانجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها . وهى قولة شنعاء نجح رأس النفاق إلى حد بعيد فى الترويج لها ، وكادت تصيب من المجتمع الإسلامى كله مقتلاً لولا أن الله كان من وراء هذا المنافق وعصابته المجرمة محيطاً ، فحفظ دينه وعصم رسوله ورعى أمته ، ففضح هذا المنافق وحزبه فى قرآن يتلى ابد الآبدين .

(١) هذه الآية تعنى أبا أيوب الانصارى وزوجته رضى الله عنهما ، فقد روى الإمام محمد بن إسحاق : أن أبا أيوب – خالد بن زيد – قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع مايقول الناس فى عائشة ؟ قال نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ماكنت لأفعله ، قال فعائشة خير منك ، وفى تفسير الإمام الزمخشرى (الكشاف) : أن أبا أيوب الانصارى قال لأم أيوب : ألا ترين مايقال فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سواءاً ؟ قال : لا . قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ، ماخنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى وصفوان خير منك ، فذلك الذى عنى الله تعالى بقوله ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون﴾ الآية .

لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم .. ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم (١) إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم .. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين .. الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون (٢) لهم مغفرة ورزق كريم (٣) .

القضاء علي الفتنة

وبذلك انتهى حديث الإفك وبطل مفعوله المدمر فقضى على تلك الفتنة الاجتماعية التى كادت تذهب بوحدة المسلمين ، بل وتثير بينهم حرباً أهلية طاحنة ، فتزلزل بنيان هذا الدين الوليد .

(١) نزلت هذه الآية ﴿ولايأتل أولوا الفضل منكم﴾ فى أبى بكر الصديق الذى كان ينفق على مسطح بن أثاثة لأنه قريبة ، ثم امتنع عن الإنفاق عليه ، وآلى على نفسه أن لاينفع مسطحاً لأنه ممن خاضوا فى حديث الإفك ، بل ممن أدينوا ، وأقيم عليهم الحد (ثمانين جلده) وكان مسطح من فقراء المهاجرين ولكنه انزلق مع المنزلقين ، وقد ذكر القرآن الصديق أنه من الخير الصفح عن مسطح والاستمرار فى الانفاق عليه ففعل الصديق الأكبر ، وواصل الإنفاق على مسطح بالرغم مما حدث .

(٢) وهذه الكلمة ﴿ أولئك مبرأون مما يقولون﴾ خاصة بأم المؤمنين عائشة التى رميت بما هى منه بريئة .

(٣) النور آية ١١ إلى آية ٢٦ .

وما قصدت عصبة النفاق (والله) من تضخيم حديث الإفك والتنظيم لإشاعته إلا تفريق كلمة المسلمين بإثارة النزعات بينهم ، لأن هذه العصبة الخبيثة تعلم أن إشاعة مثل هذا الحديث الخطير سيكون مثار جدل واختلاف بين المسلمين ، يصل بهم إلى درجة التلاحى وإثارة النعرات القديمة مما قد يكون سبباً فى إثارة حرب قبلية بين الخصمين القديمين العنيدين (الأوس والخزرج) ، ولقد كاد يحدث ذلك فعلاً ، وذلك هو الغاية الكبرى التى يهدف إلى تحقيقها حزب النفاق الذى حمل لواء حديث الإفك وقام (بطرق مدروسة ملتوية) بإشاعته ، فباعث الحديث هذا (فى حد ذاته) هو باعث سياسى خبيث نو مرامى بعيدة ، ويكفى لتأكيد مانقول أن مطلق شرارة فتنة حديث الإفك ، هو رأس النفاق عبد الله بن أبى ، الذى منذ وطئت قدما الرسول الأعظم تراب المدينة المنورة ، وهو يحيك الدسائس وينظم المؤمرات ضد هذا النبى الكريم والدين القويم الذى جاء به .

إقامة الحد علي المفترين

وبعد نزول القرآن بتبرئة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أجرى التحقيق مع الذين لهم ضلع فى إشاعة حديث الإفك ، فلم يثبت التحقيق سوى إدانة ثلاثة نفر .. رجلين وامرأة ، وهم حسان ابن ثابت) ، و(حمنة بنت جحش) و (مسطح بن أثاثة ، وقد أُقيم حد القذف على هؤلاء الثلاثة (ثمانين جلدة جلد بها كل واحد منهم) .

والغريب فى الأمر أن كل الذين تعرضوا لعقاب الجلد ليس بينهم

منافق واحد ، بل كلهم مسلمون تأثروا بقوة الأراجيف فجرفهم تيار الاشاعات الكاذبة ، فنطقوا بما أوقعهم تحت طائلة العقوبة من صريح الكلام فى عرض زوج نبيهم الطهور .

ولقد نجا عبد الله بن أبى وعصبته المنافقة من عقوبة القذف لأن التهمة لم تثبت عليه قانوناً ، بالرغم من أن الناس يعلمون (فى قرارة أنفسم ويشعرون ومنهم النبى الأعظم) أن المحرك الأول لحديث الإفك إنما هو هذا المنافق (ابن أبى وحزبه) ، ولكن الشعور والاعتقاد شىء ، والقانون وإجراءاته الرسمية شىء آخر .

ولهذا نجا رأس النفاق وعصابته من العذاب (عذاب السياط التى أصابت غيرهم حداً) لأن هذا المنافق كان يعلم عقوبة القذف الصريح ، فكان لذلك أحذر من أن يقع تحت طائلة القانون ، بكلام صريح مشهود يفوه به من حديث الإفك الذى لم يكن له سواه باعثاً ومروجاً ، ولهذا أفلت من العقوبة بعد أن أوقع غيره لينال عذابها .

أضخم معركة يخوضها الرسول

قال فى ظلال القرآن : لقد كانت – حادثة الإفك – معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك ، وخاضها الاسلام ، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التى خاضها الرسول ﷺ وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره ، فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله ، والآلام التى تناوشه لعلها أعظم الآلام التى مرت به فى حياته ، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التى تعرض لها فى تاريخه .

وإن الإنسان ليقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة فى حياة الرسول ﷺ وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجته المقربة وهى فتاة صغيرة فى نحو السادسة عشرة ، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة .

فها هى ذى عائشة الطيبة الطاهرة ، ها هى ذى فى براءتها ووضاءة ضميرها ونظافة تصوراتها ، هاهى ذى ترمى فى أعز ماتعتز به ، وترمى فى شرفها وهى ابنة الصديق الناشئة فى العش الطاهر الرفيع ، وترمى فى أمانتها ، وهى زوج محمد بن عبد الله من ذرية بنى هاشم ، وترمى فى وفائها وهى الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير .. ثم ترمى فى إيمانها وهى المسلمة الناشئة فى حجر الإسلام ، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة ، وهى زوج رسول الله ﷺ .

هاهى ذى ترمى وهى بريئة غرة غافلة ، لاتحتاط لشى ، ولا تتوقع شيئاً ، فلا تجد ما يبرؤها إلا أن ترجوا فى جناب الله ، وتترقب أى يرى رسول الله ﷺ رؤيا تبرؤها مما رميت به ، ولكن الوحى يتلبث لحكمة يريدها الله شهراً كاملاً ، وهى فى مثل هذا العذاب .

وياله لها وهى تفاجأ بالنبأ من أم مسطح ، وهى مهدودة من المرض فتعاودها الحمى وهى تقول لأمها فى أسى : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ، وفى رواية أُخرى تسأل : وقد علم به أبى ؟.

فتجيب أمها : نعم ! .

فتقول : ورسول الله ﷺ ؟ . فتجيبها أمها كذلك نعم .

ويا لله ورسول الله ﷺ نبيها الذى تؤمن به ورجلها الذى تحبه يقول لها : « أما بعد فإنه بلغنى عنك كذا ، فان كنت بريئة فسيبرؤك الله تعالى ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » .

فتعلم أنه شاك فيها ، لايستيقن من طهارتها ، ولايقضى فى تهمتها وربه لم يخبره بعد ، ولم يكشف له عن براءتها التى تعلمها ولكن لاتملك إثباتها ، فتمسى وتصبح وهى متهمة فى ذلك القلب الكبير الذى أحبها ، وأحلها فى سويدائه .

وصف محنة الصديق الأكبر وأهل بيته

وها هو ذا أبو بكر الصديق - فى وقاره وحساسيته وطيب نفسه يلذعه الألم وهو يرمى فى عرضه فى ابنته زوج محمد صاحبه الذى يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذى يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل ، لايطلب دليلاً من خارجه .. وإذا الألم يفيض على لسانه وهو الصابر المحتسب القوى على الألم ، فيقول : والله مارُمينا بهذا فى جاهلية ، أفنرضى به فى الاسلام ؟.

وهى كلمة تحمل من المرارة ماتحمل حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عنى رسول الله ﷺ قال ، فى مرارة هامدة والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

وأم رومان - زوج الصديق - وهى تتماسك أمام ابنتها المفجوعة فى كل شىء . المريضة التى تبكى حتى تظن أن البكاء فالق كبدها ، فتقول

لها : يابنية هونى على نفسك الشأن ، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها : أجيبى عنى رسول الله ﷺ فتقول كما قال زوجها من قبل : والله ما أدرى ماأقول لرسول الله ﷺ.

ابن المعطل يضرب حساناً بالسيف

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد فى سبيل الله ، صفوان بن المعطل . وهو يُرمى بخيانة نبيه فى زوجه . فيرمى بذلك فى إسلامه وفى أمانته ، وفى شرفه ، وفى حميته ، وفى كل مايعتز به صحابى وهو من ذلك كله برىء .

وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه برىء من تصوره ، فيقول : سبحان الله ! والله ماكشفت كتف أنثى قط ، ويعلم (وهو الشجاع) أن حسان ابن ثابت يروج لهذا الإفك عنه .

فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودى به ، ودافعه إلى رفع سيفه على امرىء مسلم ، وهو منهى عنه ، أن الألم قد تجاوز طاقته فلم يملك زمام نفسه الجريح (١)

---

(١) قال ابن إسحاق : ثم إن صفوان بن المعطل اعترض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ماكان يقول فيه ، وقدكان حسان قال شعراً مع ذلك يعرض بابن المعطل وبمن أسلم من مضر فاعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف ثم قال :

تلق ذباب السيف عنى فإننى ... غلام إذا هوجيت لست بشاعراً

ولقد ألقى رهط حسان القبض على صفوان فذهبوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخمد الفتنة بحكمته ، بعد أن كادت تشتعل بين الأنصار والمهاجرين أنفسهم ، لأن صفواناً مهاجرى وحساناً أنصارى .

ثم ها هو ذا الرسول ﷺ وهو رسول الله ، وهو فى الذروة من بنى هاشم .. هاهو ذا يرمى فى بيته وفى من ؟ فى عائشة التى حلت من قلبه فى مكان الإبنة والزوجة الحبيبة .

وهاهو ذا يرمى فى طهارة فراشه ، وهو الطاهر تفيض منه الطهارة، وها هو ذا يرمى فى صيان حرمته ، وهو القائم على الحرمات فى أمته ، وها هو ذا يرمى فى حياطة ربه له ، وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

هاهو ذا ﷺ يرمى فى كل شىء حين يرمى فى عائشة رضى الله عنها .. يرمى فى فراشه وعرضه وقلبه ورسالته ، يرمى فى هذا كله ، ويتحدث الناس به فى المدينة شهراً كاملاً ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حدا

والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً ، لايبين فيه بياناً ، ومحمد الإنسان يعانى مايعانيه الانسان فى هذا الموقف الأليم ، يعانى من العار ، ويعانى فجيعة القلب ، ويعانى فوق ذلك الوحشة المؤرقة ، والوحشة من نور الله الذى اعتاد أن ينير له الطريق .

والشك يعمل فى قلبه - مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله ، ولكنه لايطمئن نهائياً إلى هذه القرائن - والفرية تفوح فى المدينة ، وقلبه الإنسان المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك ، فلا يملك أن يطرد الشك لأنه فى النهاية (بشر) ينفعل فى هذه انفعالات (البشر) ، وزوج لايطيق أن يمس فراشه .. ورجل تتضخم بذرة الشك فى قلبه متى استقرت ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم .

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده ، فيبعث إلى أسامة بن زيد حبه

القريب إلى قلبه ، ويبعث إلى على بن أبى طالب ، ابن عمه وسنده ، يستشيرهما فى خاصة أمره .

ورسول الله ﷺ – فى لهفة الإنسان ، وفى قلق الإنسان يستمد من حديث أسامة ، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم فى المسجد ، فيستعذر ممن نالوا عرضه ، ورموا أهله ، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لايعلم أحد عليه من سوء .

فيقع بين الأوس والخزرج من تناور – وهم فى مسجد رسول الله ﷺ، وفى حضرة رسول الله ﷺ ويدل على هذا الجو الذى كان يظلل الجماعة المسلمة فى هذه الفترة الغريبة ، وقد خدشت قداسة القيادة .

ويحز هذا فى نفس الرسول ﷺ والنور الذى اعتاد أن يسعفه لاينير له الطريق ! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس ، ويطلب منها (هى) البيان الشافى المريح .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة فى مواجهة مثل هذا الشأن العظيم أ هـ .

الفصـــل الثـــاني

* مخطط اليهود لغزو المدينة
* طواف زعماء اليهود بين القبائل العربية
  لتحريضها علي الغزو.
* اليهود يرشون زعماء الاعراب.
* قيام التحالف بين الاحزاب - قريش -
  غطفان - اليهود - لاحتلال المدينة .
* رسم الخطط واستعداد الفريقين للمعركة الفاصلة .
* المسلمون يحفرون الخندق كخط
  رئيسي للدفاع عن العاصمة .

كما قلنا فى مقدمة هذا الكتاب ، إن غزوة الاحزاب الخطيرة هذه هى وإن كانت فى الشكل والمظهر ، غزوة قرشية غطفانية ، إلا أنها فى أهدافها البعيدة ومراميها العميقة هى غزوة يهودية لحماً ودماً ، فاليد الحقيقية التى تكمن وراء هذه الحملة المخيفة الموجهة لإبادة المسلمين إبادة كاملة هى يد يهودية .

فغزوة الاحزاب الموجهة لاحتلال المدينة والقضاء على المسلمين وهدم الاسلام فى عقر داره ، قد جاءت وفق تصميمات مدروسة وضعها مفكرون إسرائيليون ، كما أن تمويل هذه الحملة الخطيرة قد ساهم اليهود فيه مساهمة كبيرة .

لقد كان اليهود – وهم مصدر الفتن والقلاقل ومثيروا الحروب فى كل عصر وزمان – هم الذين حزبوا تلك الاحزاب وحشدوا عشرة آلاف مقاتل من أعراب الجزيرة العربية لغزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها .

كما أن قريشاً – العدو العربى التقليدى للمسلمين – لها يد كبيرة فى تنسيق هذا الغزو والتشجيع عليه والترحيب بفكرته التى جاءت من جانب اليهود .

أما قريش فقد كان نزاعها مع النبى ﷺ ودعوته نزاعاً قديماً قدم الدعوة الإسلامية ، وكان صراعها من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين صراعاً قديماً مزمناً يرجع عهده إلى أول ظهور الاسلام ، وقد خاضت قريش – فى سبيل تحقيق هذا الهدف – مع المسلمين معارك رهيبة أولها معركة بدر الكبرى وآخرها معركة أُحد التى – بالرغم من انتصارها الوقتى فيها – لم تحقق لها هدفها المنشود .

أما اليهود فقد كانت العداوة والكره لكل من سواهم من البشر طبيعة متأصلة فى نفوسهم ، فما ظنك بمن جاء يحمل رسالة سماوية فيها الخطر كل الخطر على كيان هؤلاء اليهود المبنى على الغش والدس والوقيعة والاستغلال .

حقد اليهود علي النبي ﷺ .

لقد كان اليهود (دونما جدال) يضمرون للنبى ودعوته من الحقد والبغض والحسد ماهو أعمق مما تضمره قريش وأحلافها من

أعراب الجزيرة ، فكان اليهود – لذلك – أحرص من أعراب الجزيرة على محو الاسلام والقضاء على المسلمين .

وإذا كانت قريش فى مكة قد استطاعت أول الأمر – لقوتها وضعف المسلمين – أن تنكل بهم وتفتن البعض منهم عن دينه تحت وسائل التعذيب بل وتجبر النبى ﷺ على مغادرة وطنه الأصلى (مكة) لجرأتها على الائتمار بقتله ، فإن اليهود الذين يودون أن يفعلوا ذلك وأكثر بالنبى وصحبه ، لم يكن فى مقدورهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك بمفردهم عندما جاءهم النبى ﷺ إلى يثرب .

لأنه ﷺ لم يصل إلى المدينة إلا وقد سبقه تكوين جبهة عسكرية قوية مشكلة من جميع القبائل القحطانية (الأوس والخزرج) فى يثرب .

بالإضافة إلى مهاجرى قريش المسلمين الذين تركوا وطنهم فراراً بدينهم ، وانضموا إلى معسكر يثرب ، فكانت هذه الجبهة العسكرية القوية درع الرسول الحربى الواقى الذى يحتمى به . الأمر الذى غاظ اليهود وقهرهم ، وجعلهم يعجزون عن القيام منفردين بأى عمل عسكرى أ وشبه عسكرى ضد المسلمين كما كانت تفعل قريش ، لأن هؤلاء اليهود بالرغم من قدمهم فى الجزيرة هم عنصر أجنبى دخيل على الأمة العربية لم يستطع الامتزاج بهذه الأمة – بالرغم من إقامته بينها آلاف السنين .

وكل ماقام به اليهود فى يثرب ضد النبى – قبل غـزوة الاحـزاب – هو عمليات دس وتفريق بين المسلمين ومحاولات لإثارة الحرب

الأهليـــة بينهم ، وحركات عصيان ضيقة النطاق .. عمليات كلها باءت بالفشل .

وآخر محاولة جريئة قام بها اليهود هى محاولة بنى النضير اغتيال النبى ﷺ وهو بين منازلهم ، فكانت نهاية هذه المحاولة الفاشلة هى طرد يهود هذه القبيلة وإجلاءهم عن المدينة نهائياً .

تفكير اليهود في تحزيب الأحزاب

من أجل ذلك ازداد حقد اليهود على النبى ﷺ ، وصار زعماؤهم يفكرون فى رسم خطة محكمة تكون نهايتها سحق المسلمين سحقاً كاملاً وهدم كيان الإسلام من الأساس . فكانت ثمرة هذا التفكير اليهودى (غزوة الأحزاب) الخطيرة هذه التى كادت (فعلاً) أن تعصف بكيان الإسلام والمسلمين .

فقد توالت اجتماعات زعماء يهود بنى النضير فى « خيبر» لبحث الوضع الذى آل إليه اليهود فى الجزيرة العربية بعد انهيار مركزهم الرئيسى فى المدينة وقيام الدولة الاسلامية قوية متماسكة فى يثرب .

بعد بحث شامل دقيق للموضوع من جميع نواحيه قرر برلمان اليهود فى خيبر وضع خطة محكمة لغزو شامل كامل ساحق ضد المسلمين يشترك فيه أكبر عدد ممكن من القبائل العربية القوية ، وخاصة قبائل نجد وكنانة وقريش ، على أن تتولى خيبر اليهود الدعوة إلى هذا الغزو وتنظيمه بل وتحمل جانب كبير من نفقاته المالية .

وفد اليهود يطوف بين الأعراب

ونتيجة لهذا القرار الخطير ، قرر برلمان خيبر تشكيل وفد من أعضائه البارزين للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، والاتصال بالقبائل العربية المطلوب الإتصال بها للقيام بذلك الغزو .

وقد تكون هذا الوفد اليهودى على النحو التالى :

١ – حيى بن أخطب ، رئيساً .

٢– سلام بن مشكم ، عضواً .

٣ – كنانة بن أبى الحقيق ، عضواً

٤ – هوذة بن قيس الوائلى ، عضواً .

٥ – أبو عامر الفاسق ، الذى كان قائد فصيلة خونة الأوس فى معركة أحُد ضد المسلمين ، عضواً.

وقد غادر هذا الوفد اليهودى مدينة خيبر فى أوائل شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة – أى بعد مرور حوالى سنة على معركة أُحد وبعد مرور أربعة أشهر (فقط) على إجلاء بنى النضير من المدينة .

الوفد اليهودي في مكة

وبالرغم من أن قبائل غطفان النجدية – التى ألفت فيما بعد العمود الفقرى لغزو الأحزاب – كانت منازلها أقرب إلى هؤلاء اليهود من قبائل الحجاز ، فإن الوفد اليهودى قد توجه رأساً إلى مكة .

فاتصل (أولاً) بزعمائها وقادتها وعرض عليهم كامل المخطط الذى يحمله لإنشاء الاتحاد العسكرى القبلى الكبير لغزو المدينة ووضع حد لسلطان المسلمين باستئصال شأفتهم .

ولدى اطلاع زعماء مكة على المخطط اليهودى سروا سروراً عظيماً وأبدوا موافقتهم الكاملة عليه واستعدادهم لتنفيذه بكامله ، بعد أن شكروا لليهود مجهودهم الكبير فى وضع هذا المخطط والسعى من أجل تنفيذه .

اليهود في برلمان مكة

فعند وصول الوفد اليهودى إلى مكة عقد برلمانها جلسة خاصة لبحث المخطط اليهودى الموضوع لإنشاء الاتحاد العربى الوثنى اليهودى لمحاربة الإسلام والقضاء على المسلمين .

وبعد ان ألم أعضاء دار الندوة (برلمان مكة) بالمشروع اليهودى ودرسوه من جميع نواحيه وعرفوا أن فى تنفيذه هدم الاسلام والقضاء على المسلمين أبدوا للوفد اليهودى سرورهم العظيم وموافقتهم الكاملة ، ووقف قائد عام جيش مكة (أبو سفيان بن حرب) خطيباً فى البرلمان الذى سمحت مكة للوفد اليهودى بحضور جلسته الخاصة لأنها تتعلق ببحث مشروعهم لغزو المدينة .

وقف وأعلن أبو سفيان فى خطبته باسم برلمان مكة وجيشها الترحيب بفكرة اليهود الداعية إلى انشاء الإتحاد العربى اليهودى العسكرى لغزو المدينة وسحق المسلمين فيها سحقاً كاملا ، فقال – مرحباً باليهود – .. أهلاً ومرحباً ، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد (١) .

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ٩٦ طبعة الحلبى .

وقد جرت داخل برلمان مكة بين زعمائها وأعضاء الوفد اليهودى مناقشات حول الإسلام والوثنية ، وتقدم بعض نواب مكة إلى أحبار اليهود فى الوفد بأسئلة يسألونهم فيها (بصفتهم أهل كتاب والاكثر معرفة بالأديان منهم) عن دين محمد ودين الوثنية وأيهما أحق بالاتباع .

قال ابن اسحاق - يصف محادثات الوفد اليهودى مع قريش للتأليب على رسول الله ﷺ - وهم (أى اليهود) الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة .

فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا .. إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت قريش .. يامعشر يهود .. إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟.

وهنا تجلت طبيعة اليهود فى الكذب والتزوير والتحريف حيث أجابوا قريشاً بعكس الحقيقة التى يعلمون إذ قالوا لقريش .. بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه لأنكم تعظمون هذا البيت وتقومون على السقاية وتنحرون البدن وتعبدون ماكان يعبد آباؤكم ، بل إن اليهود لم يكتفوا بهذا الكذب والافتراء إذا سجدوا لأصنام قريش إرضاء لهم عندما طلبوا منهم ذلك ليطمئنوا إلى قولهم الذى قالوا بشأن الوثنية والاسلام (١) .

وذكر ابن إسحاق أن الله تعالى أنزل فى هذا الوفد اليهودى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ٩٦ .

والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ (١) .

الوفد اليهودي في ديار غطفان

وبعد أن ضمن الوفد اليهودى موافقة قريش على مشروع غزو المدينة وحدد موعداً لهذا الغزو ، توجه هذا الوفد الشرير الى ديار غطفان بنجد لعرض مخططه على زعماء تلك القبائل ، وعندما وصل إلى منزل غطفان صار ينتقل بين مضارب البدو وخيامهم للدعاية لمشروعه الخبيث وإيغار صدر الأعراب على النبى ﷺ وشحن نفوسهم بالكره للمسلمين .

ثم شرع فى محادثاته مع زعماء هذه القبائل العظيمة ، فعرض عليهم مشروع غزو المدينة وأطلعهم على مخطط هذا الغزو ، وأبلغهم موافقة قريش عليه ، وأنها قد أخذت تتجهز للزحف على المدينة وفق هذا المخطط .

وقد دارت محادثات الوفد اليهودى الرئيسية مع عيينة بن حصن (٢)

---

(١) النساء ، آية ٥١ - ٥٢ .

(٢) هو عيينة بن حصن بن بدر أبو مالك سيد بنى فزارة (من غطفان) ، قال ابن السكن له صحبة ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يتميز بالغلظة وجفاء الأعراب ، أخرج الطبرانى أن عيينة بن حصن دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال (وعنده عائشة) .. قبل أن ينزل الامر بالحجاب - من هذه الجالسة إلى جانبك ؟ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم .. هذه « عائشة » قال .. أفلا أنزل لك عن خير منها يعنى امرأته ؟ . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم .. أخرج فاستأذن . فقال .. إنها يمين على أن لا أستأذن على مضرى ، فقالت عائشة .. من هذا .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا الأحمق المطاع (يعنى فى قومه) =

الفزارى لأنه أقوى شخصية مطاعة بين قبائل غطفان ، وهو الذى وصفه النبى ﷺ بالأحمق المطاع لأنه مع (حمقه) من جرارى الجيوش المشهورين تتبعه عشرة آلاف قناة ..

كما حضر محادثات الوفد اليهودى من زعماء قبائل غطفان كل من (الحارث بن عوف) قائد بنى مرة ، و(ابى مسعود بن رخيلة) قائد بنى أشجع، و (سفيان بن عبد شمس) قائد بنى سليم ، و (طليحة) ابن خويلد)[1] . قائد بنى أسد .

وقد وافق زعماء هذه القبائل الغطفانية على المشروع اليهودى وأعجبهم المخطط المرسوم لغزو المدينة ، وتم الاتفاق بينهم وبين اليهود على تنفيذه بحذافيره .

نجاح اليهود في إنشاء الاتحاد ضد المسلمين

وهكذا نجح اليهود فى محادثاتهم مع قبائل غطفان نجاحاً كبيراً هذه القبائل التى لم تكن أقل تحمساً من قريش لفكرة قيام الاتحاد العربى الوثنى اليهودى العسكرى ضد المسلمين .

فكم حاولت قبائل غطفان هذه القيام بغزو المسلمين فى المدينة

= لأنه كان (فعلاً) مطاعاً فى قومه ، تتبعه (كما هو مشهور بين العرب) عشرة آلاف مقاتل ، كان عيينه بن حصن ممن ارتد عن الإسلام فى عهد الخليفة أبى بكر وقاتل المسلمين تحت قيادة طليحة بن خويلد الذى ادعى النبوة ، ثم عاد إلى الإسلام ، ويقول ابن حجر العسقلانى فى كتابه الإصابة .. إنه قرأ فى كتاب الأم للشافعى أن عمر بن الخطاب قتل عيينه بن حصن الفزارى هذا على الردة ، وأنه لم ير من قال ذلك غير الشافعى والله أعلم .

(١) تقدمت ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

منفردة فتفشل ، حيث يحبط النبى القائد محاولاتها بضربها (بسرعة) فى ديارها فيشتت جموعها قبل أن تتحرك .

ولهذا فقد كان ماعرضه اليهود فى مشروعهم على هذه القبائل من المشاركة مع قريش واليهود فى غزو المدينة أمنية تتمناها هذه القبائل .

اتفاقية الاتحاد وشروطها

وقد أبرم الوفد اليهودى مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربى الوثنى اليهودى العسكرى ضد المسلمين ، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو :

١ – أن تكون قوة غطفان فى جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل .

٢– أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل ثمر نخل خيبر لسنة واحدة .

وهكذا لم يعد الوفد اليهودى الشرير إلا بعد أن حشد عشرة آلاف مقاتل من قبائل قريش وغطفان وجمعها على حرب النبى ﷺ ، وهو جمع لم يسبق للمسلمين أن واجهوا مثله فى حروبهم مع الأعداء وقد أبلغ الوفد اليهودى قادة قريش بتفاصيل الاتفاقية التى تمت بينه وبين قبائل غطفان ليكون تنسيق الغزو بموجبها ، فاغتبطت قريش غاية الاغتباط بذلك .

الاحزاب يتجهزون

وقد شرع قادة الأحزاب فى التجهيز ، وبذلوا جهوداً جبارة لحشد جيوشهم وتنظيمها وتموينها لكى يكون الغزو مركزاً ناجحاً محققاً أهدافه.

أما قريش فقد استطاعت أن تحشد أربعة آلاف مقاتل بما فى ذلك حلفاؤها ، وكان جيشها فى هذا الغزو أحسن جيش من حيث دقة التنظيم وجودة التسليح ووفرة التموين .

فقد كان لقريش من سلاح النقليات ألف وخمسمائة بعير ، ومن سلاح المطاردة ثلثمائة فرس .

وفى دار الندوة عقدت قريش اللواء وأعطته لعثمان بن طلحة [١] العبدرى ، أما قيادة الجيش فقد أسندت إلى أبى سفيان بن حرب الأموى ، وتسلم خالد بن الوليد المخزومى قيادة سلاح الفرسان ، وهذا كله تم ويتم بموجب نظام أبدى تسير عليه قريش فى حروبها منذ عهود سحيقة .

حيث كان النظام المتفق عليه بين قبائل قريش أن تكون القيادة العامة للجيش فى بنى أمية ، والسقاية والرفادة فى بنى هاشم ، وحمل اللواء فى الحروب يختص به بنو عبد الدار مع الحجابة ، وقيادة الفرسان (ضمن القيادة العامة) تكون دائماً فى بنى مخزوم .

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

تحالف قريش عند أستار الكعبة

وزيادة في التصميم من قريش على حرب النبي ﷺ خرج من بطونها خمسون رجلاً إلى الحرم فتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها وتعاهدوا (وهم كذلك) على أن لايخذل بعضهم بعضاً ، ويكونوا يداً واحدة على محمد مابقى منهم رجل واحد (١) .

قادة جيوش غطفان

أما قبائل غطفان فقد حشدت ستة آلاف مقاتل منها ومن أحلافها ، ولما كانت غطفان ليس لها نظام ثابت تسير عليه في الحروب كما هو الحال عند قريش التي يكون القائد العام لجيوشها رجل من بني أمية (دائماً) فقد تحركت قواتها تحت أربع قيادات ، وذلك حسب القبائل الرئيسية في غطفان وهي :

١ - بنو فزارة ، وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر) .

٢ - بنو أسد .. وقائدها (طليحة بن خويلد) .

٣ - بنو أشجع .. وقائدهم (مسعود بن رخيلة بن نويرة) .

٤ - بنو مرة .. وقائدهم (الحارث بن عوف) .

الموقف في المدينة

ولم تكن المدينة غافلة عما يجرى ضدها في مكة وبين مضارب البدو في نجد ، فقد كانت استخباراتها العسكرية على غاية من التيقظ والنشاط.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٦ .

فقد كان رجالها يتتبعون حركات الوفد اليهودى منذ فصل من خيبر فى اتجاه مكة ، وكانت على علم تام بكل مايجرى بين الوفد اليهودى وبين قريش (أولاً) ثم غطفان ثانياً .

فكان رجال هذه الاستخبارات يبعثون بمعلوماتهم الخطيرة عن مفاوضات الأحزاب ، أولاً بأول .

فظل المسلمون على غاية من الحذر والترقب ينتظرون النتائج النهاية للمساعى التى كان يقوم بها وفد خبير لدى تلك القبائل العربية المعادية للمسلمين.

وبمجرد حصول الوفد اليهودى على موافقة قريش وغطفان على إنشاء الإتحاد العسكرى الثلاثى المؤلف من اليهود وغطفان وقريش تلقت المدينة من رجال استخباراتها هذا النبأ الخطير ، كما تلقت المدينة بعد ذلك من رجال استخبارات جيشها مايجب أن تحصل عليه من معلومات دقيقة عن مبلغ قوة جيوش الأحزاب وعدد جنوده وأسماء قادته ومتى سيكون ميعاد تحركه نحو المدينة .

وفور حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو ، شرع الرسول ﷺ فى اتخاذ الإجراءات الفورية الدفاعية اللازمة ، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيشه من المهاجرين والانصار ، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعى اليهود الخبيثة .

خطة الدفاع عن المدينة

ولما كانت المعلومات قد أكدت أن الهدف الرئيسى من الغزو هو احتلال المدينة نفسها ، فقد دار البحث فى مجلس الرسول

العسكرى (بصفة رئيسية) حول مايجب اتخاذه من خطوات فعالة حاسمة للدفاع عن العاصمة ، وهل يخرج المسلمون للقاء الأحزاب خارج المدينة كما فعلوا فى غزوة أُحد أم يبقون متحصنين داخل المدينة ؟ .

وأخيراً ، تقرر أن يتحصن المسلمون فى المدينة للدفاع عنها لاسيما وأن الجيش الذى جاء لغزوهم لايقل عن عشرة آلاف مقاتل بينما لايزيد جيش المدينة (فى أكبر تقدير) على ثلاثة آلاف مقاتل : بينهم كثير من المنافقين الذين لايؤمن جانبهم (ساعة الحرب) .

ولقد اختيرت المنطقة الشمالية من المدينة لتكون خطاً للدفاع الرئيسى فيها .

المشكلة الكبري

وبالرغم من توفيق القيادة الاسلامية فى اختيار ذلك المكان للدفاع عن المدينة ، و الذى لايوجد أصلح منه للصمود فى وجه الغزاة فإن مشكلة (لدى وضع الخطط) قد اعترضت القادة المسلمين وأقلقت بالهم ، وهى أنهم فكروا (لدى وضع خطة الدفاع عن المدينة) كيف يمكنهم الصمود فى وجه جيوش الأحزاب الجرارة ومنعها من احتلال المدينة إذا ما شدّت عليهم شدة رجل والتحموا معها فى معركة فاصلة فى ذلك المكان الواسع الواقع عند مداخل المدينة الشمالية ؟ .

فجيش المسلمين وإن كان رجاله يمتازو ن بالشجاعة النادرة التى مبعثها قوة العقيدة الصادقة ، إلا أن كثرة العدد الغامرة الساحقة التى

يتفوق بها جيش العدو ، لابد من أن يحسب حسابها بتعقل لأن الكثرة فى أغلب الأحيان تغلب الشجاعة (كما يقولون) .

صاحب فكرة الخندق

ولهذا كان المسلمون (وهم يبحثون خطة الدفاع عن المدينة) يفكرون في إيجاد وسيلة فعالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب الجرارة المتفوقة (عدداً وعدة) فى معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميدها وتعطيلها عن الحركة على النحو الواسع الذى تريد وترغب .

ولدي بحث هذا الموضوع ، كان سلمان الفارسى موجوداً ضمن هيئة أركان حرب الجيش الاسلامى للتشاور ، فتقدم إلى القائد الأعلى النبى ﷺ بمشروع مهم عظيم ، وافق عليه النبى ﷺ واغتبط به القادة من أصحابه الكرام . ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعى أكبر الأثر فى تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو فى النهاية .

الخندق أعظم خط للدفاع عن المدينة

فقد اقترح سلمان الفارسى أن يسارع المسلمون إلى حفر خندق عميق يشمل كل المنطقة التى يتوقع أن ترتادها جيوش الأحزاب لاقتحام المدينة منها ، على أن يتم حفر هذا الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب إلي المكان الذى تبلغت القيادة فى المدينة أنها قررت الوصول إليه ، وهو السهل الواقع شمال غرب المدينة .

فقد قال سلمان الفارسى - بعد أن تقدم بمشروعه - يارسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا

تفاصيل خطة الدفاع

وهكذا تم الاتفاق بين قادة الجيش الإسلامى على خطة الدفاع عن المدينة ، وهى كما يلى :

١ - أن يبقى المسلمون فى المدينة للدفاع عنها وأن لايخرجوا إلى الاحزاب خارجها .

٢ - أن تكون خطوط الدفاع الرئيسية فى الطرف الشمالى من المدينة والواقع أمام جبل (سلع) على أن يكون هذا الجبل خلف ظهر القيادة الإسلامية .

٣ - أن يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يكون حاجزاً بينهم وبين جيوش الأحزاب .

٤ - أن يقوم المسلمون بإخلاء المدينة من النساء والأطفال والعجزة ، على أن يجمعوهم فى الحصون والآطام المنيعة ، بعيدين عن العدو ، ولتسهل حمايتهم (وخاصة من يهود بنى قريظة الواقعة منازلهم فى المدينة والذين لايأمن المسلمون جانبهم) .

٥ - أن تقوم الدوريات الاسلامية بحراسة المدينة على التوالى ، طول الليل حتى الصباح .

استراتيجية موقع الجيش الإسلامي

لقد كان اختيار المنطقة الشمالية من المدينة لتكون موقعاً رئيسياً للجيش الإسلامى ، اختياراً موفقاً من الناحية الاستراتيجية .

فقد كان ذلك المكان هو أصلح مكان يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التى لابد لأى غاز يريد احتلال المدينة من أن يتجه إليها .

لأن الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة الأخرى ، والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة التى لاتسمح لقوات الاحزاب الكبيرة أن تقوم بإجراء أى قتال على نطاق واسع كما تريد ، الامر الذى يجعل قادة الأحزاب لايفكرون فى ارتياد تلك الجهات للهجوم على المدينة منها .

فالناحية الوحيدة الصالحة للقتال على أوسع نطاق (كما يريد قادة الاحزاب) هى الناحية الشمالية للمدينة حيث المسالك الواسعة والميادين الفسيحة ، دونما حواجز طبيعية تذكر ، وهذه الناحية هى التى قررت القيادة الاسلامية حفر الخندق فيها بصفة رئيسية .

كيف وأين حفر الخندق ؟

لقد كانت الخارطة التى وضعت (على أساس مشروع سلمان الفارسى) لحفر الخندق تقضى بحفر خندق رئيسى يمتد من الطرف الغربى لجبل (سلع) حتى طرف (حرة الوبرة) المطبقة على المدينة من الناحية الغربية ، على أن يمر هذا الخندق بشكل قوس فى الطرف الشرقى للحرة المذكورة ، ثم يمتد على خط (شبه مستقيم) أمام جبل سلع متجهاً نحو الشرق حتى أطراف (حرة واقم) المطبقة على المدينة من الناحية

الشرقية ، فيفصل (تماماً) بين معسكر الأحزاب الوقع فى الناحية الشمالية حول (أحد ومجمع الأسيال) وبين معسكر الاسلام الواقع أمام جبل سلع وعند مداخل المدينة الشمالية الواقعة مابين الحرتين .

كما يتناول المشروع حفر خنادق جزئية ثانوية يرتبط بعضها ببعض تمتد من طرف الخندق الرئيسى عند الطرف الغربى لجبل سلع وتتجه جنوباً حتى مجمع وادى بطحان ورانونا بحيث تجىء هذه الخنادق المترابطة خلف المسجد النبوى من الناحية الغربية (١) .

وبموجب الخريطة الموضوعة للخندق شرع رجال الجيش فى حفره فوراً ، وكان الرسول القائد ﷺ يشترك معهم فى الحفر ، فكان يعمل كأى فرد من المسلمين حتى انتهى حفر الخندق .

وقد باشر جند الإسلام فى الحفر بجد وتصميم ومثابرة ، وكانت قيادة المدينة قد قررت بذل الجهد لإنجاز حفر الخندق قبل أن تصل جيوش الأحزاب إلى ضواحى المدينة ، وذلك أن هذا الخندق هو الذى سيكون خط الدفاع الرئيسى عن العاصمة ، ولهذا كان لابد من إنجازه قبل وصول جيوش العدو .

الجيش هو الذي حفر الخندق

وكان الذى قام بحفر الخندق هم أفراد الجيش الإسلامى فقط (بما فيهم النبى القائد) لأنهم ليس لهم خدم ولاعبيد (كالأمم الاخرى) يسخرونهم لمثل هذا العمل العسكرى الشاق .

---

(١) أنظر خارطة المعركة مفصلة فى آخر الكتاب

وبالرغم من أن يهود بنى قريظة هم من سكان يثرب ومواطنون ملزمون (بموجب المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين) بالمشاركة فى حفر الخندق ، كعمل من أعمال الدفاع عن المدينة ، فإن هؤلاء اليهود لم يشارك منهم أحد فى عملية حفر الخندق ، وكان هذا أول عمل (غير ودى) ومخالفاً لنصوص المعاهدة قام به يهود بنى قريظة .

ومن أجل إنجاز حفر الخندق (قبل وصول جيوش الأحزاب) أجهد الجيش نفسه فى العمل ، فكانوا يعملون فى الحفر طيلة النهار ولايستريحون إلا فى الليل ، وكان النبى القائد * يشرف بنفسه على أعمال الحفر ، ويحفر بيده الكريمة مع المسلمين حتى تم إنجاز الخندق .

ظروف صعبة

وبالإضافة إلى أن عملية حفر الخندق (الذى لايقل طوله عن خمسة آلاف ذراع) كانت – فى حد ذاتها – عملية شاقة لغاية ، فإن الظروف المعيشية التى قام المسلمون فيها بحفر الخندق ، كانت ظروفاً صعبة جداً .

فقد كان ذلك العام (بالنسبة للمسلمين) عام مجاعة ، فكان أكثر المسلمين الذين يقومون بأعمال حفر لايجدون القوت الضرورى الذى يسدون به جوعتهم ، بما فى ذلك النبى الأعظم * الذى كان (وهو يقوم بأعمال الحفر) يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وكان الطعام الرئيسى ، للذين يجدونه ، هو التمر فقط .

ومما يدل على أن المسلمين كانوا عند حفر الخندق فى ظروف معيشية صعبة ، وفى حالة مجاعة شديدة مارواه ابن اسحاق عن سعيد ابن مينا أنه حدث : أن ابنة لبشير بن سعد - أخت النعمان بن بشير - قالت دعتنى أمى عمرة بنت رواحة ، فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ، ثم قالت: أى بنية ، أذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله ابن رواحة بغدائهما .

قالت : فأخذتها ، فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى فقال : تعالى يابنية ماهذا معك ؟ قالت : فقلت : يارسول الله ، هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد ، وخالى عبد الله بن رواحة يتغديانه .

قال : هاتيه ، قالت : فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأتهما ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دعا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : أصرخ فى أهل الخندق : أن هلم إلى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب .

وبالإضافة إلى حالة المجاعة الشديدة التى كان عليها المسلمون عند حفر الخندق ، كان البرد قارصاً والرياح شديدة مزعجة .

قال البخارى رواياً عن سهل بن سعد قال : كنا مع النبى ﷺ فى الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة .

وفى البخارى أيضاً عن أنس ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون (فى غداة باردة) ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد مابقينا أبداً

النبي يحمل التراب في الخندق

ولقد كان النبى القائد ﷺ يعمل فى حفر الخندق ويحمل التراب على ظهره كأنشط واحد فى الجند ، فقد روى البخارى من حديث البراء ، قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بشعر ابن رواحة وهو ينقل التراب ويقول :

اللهم لولا أنت ماهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

الصخرة التي حطمها الرسول

وقد جاء فى صحيح البخاروى عن جابر قال : إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية [1] شديدة (وعند النسائى : صخرة لا تأخذ منها المعاول) فجاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ،

(١) الكدية (بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية) هى القطعة الصلبة .

فقام - وبطنه مشدود بحجر (من الجوع) - ولنا ثلاثة أيام لانذوق ذوقاً ، فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب ، فعادت (أى الكدية) كثيباً أهيل .

وعند احمد والنسائى ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال : بسم الله ، فضرب ضربة فنثر ثلثها ، وقال : والله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، وإى والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة أهـ.

وهذا القول النبوى الكريم أثبتت الأحداث (فيما بعد) صدقه فصار من أعلام النبوة التى لاتخطىء ، فقد تم استيلاء المسلمين على كل الأماكن التى ذكر النبى ﷺ - عند تفتيت هذه الصخرة فى الخندق - أنه أعطى مفاتيحها (الشام واليمن وفارس بعاصمتها المدائن وقصرها الأبيض) وتم فتح كل ذلك فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر.

وبالرغم من الهول وجو الرعب والفزع الذى يحيط المنطقة التى أصبحت كلها آذان فى انتظار وصول جيوش الأحزاب التى سبقتها سيول من التخويف والترويع لأهل المدينة ، بالرغم من ذلك كله ، فقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق بثقة واطمئنان وثبات ، قدوتهم الكبرى فى ذلك نبيهم الأعظم ﷺ الذى (هو بينهم يعمل) يتبسط معهم فى الحديث ، ويداعب ويمازح فى روح حلوة حانية لايقول صاحبها إلا حقاً .

وإنه لمنظر رائع حقاً ، محمد بن عبد الله النبى والقائد يحفر التراب بالمسحاة فى الخندق ويضرب بالفأس والمعول ، وينحنى ليجرف التراب ويحمله فى المكتل على ظهره .

ويختلط بأصحابه كواحد منهم ، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرفعون أصواتهم بالرجز فى أثناء العمل ، فيشاركهم الترجيع ، وقد كانوا يتغنون بأغانى ساذجة من وحى الحوادث الجارية .

كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل ، فكره رسول الله ﷺ ، اسمه وسماه عمراً ، فراح العاملون فى الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج

سماه من بعد جعيل عمراً وكان للبائس يوماً ظهراً

فإذا مروا فى ترجيعهم بكلمة « عمرو» قال : رسول الله ﷺ ، «عمرا» وإذا مروا بكلمة « ظهر» قال رسول الله ﷺ « ظهراً» .

ولنا أن نتصور هذا الجو الذى يعمل فيه المسلمون ، والرسول ﷺ بينهم يضرب بالفأس ، ويجرف بالمسحاة ، ويحمل فى المكتل ، ويرجع هذا الغناء (إن صح تسميته غناء) ، ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو فى أرواحهم ، وأى ينبوع يتفجر فى كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز [1] .

أبو رقاد

ولم يخل ذلك الجو الجاد من ممازحة ومداعبة وتبسط ، فقد كان زيد بن ثابت [2] غلاماً صغيراً ، وكان فيمن يعمل بنقل التراب فى الخندق ،

---

(١) فى ظلال القرآن ج٢١ص ١٤٧ .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

وقد أثنى عليه النبى ﷺ عندما رآه (على صغر سنه) يعمل فى الخندق) فقال : أما إنه نعم الغلام

وغلبت الغلام (زيد) عيناه فنام فى الخندق – بعد أن أحس الدفىء ، وكان البرد شديداً – فأخذ عمارة بن حزام سلاحه (مازحاً) وهو لايشعر ، فلما قام الغلام ولم يجد سلاحه ، فزع ، وكان النبى ﷺ حاضراً ، فقال له (مداعباً) : « يا أبا رقاد نمت حتى ذهب سلاحك » ثم قال : « من له علم بسلاح هذا الغلام ؟» فقال عمارة : يارسول الله هو عندى ، فقال : رده عليه ، ونهى ﷺ أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعباً .

وما أحلاها روح الدعابة واللطف التى مازح بها النبى الأعظم والقائد الأعلى ذلك الغلام الصغير الذى غلبه النوم أثناء العمل ، فنام حتى أخذ منه سلاحه « يا أباد رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك » . وجرس الدعابة الحلوة الحانية يتجلى فى كلمة « يا أبا رقاد » التى داعب بها النبى القائد ﷺ ذلك الغلام الصغير ، وصدق الله الذى يقول فى هذا النبى الكريم (وإنك لعلى خلق عظيم) .

عمل المنافقين التخريبي في الخندق

وبينما العمل يجرى بجد ونشاط واجتهاد وإخلاص لحفر الخندق من جانب النبى ﷺ والصفوة من أصحابه ، وبالرغم من حرص قيادة المدينة على إنجاز حفر الخندق ، حتى يتم قبل وصول جيوش الأحزاب ، فإن قيادة المدينة قد واجهت (منذ اللحظة الأولى) متاعب وأعمالاً عليها طابع التخريب والتفتيت ، من فئات ينتسبون

إلى الإسلام وهم ليسو منه فى شىء (وهم المنافقون) قد كان لهم (منذ بدأت الاستعدادات لمعركة الخندق) أدوار غير مشرفة وسيئة .

فقبل وصول الأحزاب ، وأثناء عملية حفر الخندق كان هؤلاء المنافقون (الذين كانوا بحكم الظاهر جزءاً من الجيش الإسلامى) يتكاسلون فى العمل أثناء عملية الحفر ، وإن عملوا مع الجند ، لايعملون إلا الضعيف التافه من العمل .

وكانوا بالإضافة إلى هذا التكاسل ، يقومون بأعمال تخريبية يشجعون بها ضعاف النفوس على التهاون فى العمل فى الخندق ، بغية تأخير إنجاز الخندق حتى تصل جيوش الأحزاب .

فقد كان هؤلاء المنافقون (بالرغم من الأوامر العسكرية المشددة التى تقضى بأن لايترك أحد مكانه فى العمل فى الخندق إلا بإذن خاص من النبى القائد ﷺ) يتركون العمل ويتسللون منه إلى أهليهم دون أن يستأذنوا الرسول القائد ﷺ ، فيكون لأعمالهم التخريبية هذه آثار سيئة على سير العمل فى حفر الخندق .

أما المسلمون الصادقون فقد كانوا يقدرون الظروف الاستثنائية الخطيرة التى تستلزم مواصلة الحفر لإنجاز الخندق بأسرع مايمكن ، فكانوا لذلك ، لايتركون العمل فى الخندق إلا لضرورة قصوى تستدعى ذلك.

ومع ذلك فقد كانوا إذا نابت أحدهم نائبة من الحاجة التى لابد منها،لايتركون العمل لقضائها ، إلا بعد أن يأخذوا إذناً خاصاً من النبى القائد ﷺ امتثالاً لأمر الله تعالى الذى جاء فيه ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى

يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

فيأذن لهم النبى ﷺ فى اللحاق بحاجتهم ، فإذا قضوها عادوا إلى ماكنوا عليه من العمل فى الخندق بأقصى سرعة رغبة منهم فى الخير وحرصاً على إطاعة أوامر نبيهم الكريم .

أما المنافقون فقد كانوا يتسللون من الخندق ويتركون العمل فيه ، ويذهبون إلى حيث شاءوا دون أن يستأذنوا النبى القائد ﷺ يفعلون ذلك بقصد التخريب والتثبيط) ، لأنهم لايؤمنون فى قرارة أنفسهم بالنبى ﷺ ولابما يدعو إليه بالرغم من تظاهرهم بالاسلام وانخراطهم فى سلك جيشه، ذلك التظاهر الذى لم يكن إلا (تقية) تجعلهم - فقط - يتمتعون بحقوق المواطن المسلم ، وهم فى حقيقتهم بأنهم غير ملزمين بالطاعة أمر النبى ﷺ ، وعلى أساس هذا الشعور كان تصرفهم المشين أثناء عملية حفر الخندق .

تنديد القرآن بالمنافقين

ولقد ندَّد القرآن الكريم بهولاء المنافقين الذين يتركون العمل فى الخندق بدافع التخريب ، فيتركونه دون أن يستأذنوا النبى القائد ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم الله

الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وبالرغم من عمل المنافقين التخريبى وتكاسلهم عن العمل فى الخندق ، فإن عملهم الخبيث هذا لم يؤثر (كثيراً) على سير عملية الحفر ، فقد أجهد الصحابة أنفسهم فى العمل حتى تم حفر الخندق كما أراد الرسول القائد ﷺ وقبل وصول جيوش الأحزاب بعد أيام .

ورغبة من القيادة العامة إنجاز حفر الخندق بأسرع مايمكن لجأت إلى بث روح التنافس الشريف بين المسلمين فى الحفر

طول الخندق

فقد قسم الرسول ﷺ المساحات المطلوب حفرها خندقاً ، بين أصحابه لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً ، عليهم أن ينجزوا حفرها ، (فى حدود العمق والعرض الذى حددته القيادة لهم) ، بأسرع مايمكن .

وقد بلغ طول الخندق حوالى خمسة آلاف ذراع ، أما عمق الخندق فلا يمكن أن يكون أقل من سبعة أذرع ، والعرض (كذلك) لايمكن أن يكون أقل من تسعة أذرع ، لأن الخيل باستطاعتها أن تقتحم ماهوا أقل من هذه المسافة .

وقد استغرق حفر الخندق (كما يقول ابن القيم فى الهدى النبوى) شهراً كاملاً .

---

(١) النور ٦٣ .

فعالية الخندق في الدفاع عن المدينة

وبعد حفر الخندق أصبحت المدينة كالحصن المنيع الذى لايمكن الوصول إليها إلا عن طريق المغامرات الانتحارية ، وبعد تضحيات باهظة جسيمة .

فقد كانت المدينة - بالاضافة الى الخندق وهو خط الدفاع الرئيسى - مشبكة بالبنيان ومحاطة بأشجار النخيل الكثيفة ولمسافات بعيدة ، وغير النخيل من الزورع الأخرى بالإضافة إلى الحواجز الطبيعية الصعبة الكبرى، وهى الحرار الثلاث التى تُكتنف المدينة من جهاتها الثلاث .. حرة من الجنوب وحرة واقم من الشرق ، وحرة الوبرة من الغرب .

والحرار فى منطقة المدينة تشكل حواجز طبيعية فعالة لايستطيع أحد (راجلاً كان أم راكباً) اجتيازها إلا بصعوبة كبيرة لأنها مزروعة بحجارة سوداء محروقة يكون لها (غالباً) رؤوس جارحة كأطراف الآلات الحادة .

وهكذا وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الإسلامى أن تعزل جيوش العدو عن مكان تجمع الجيش الاسلامى المدافع عن المدينة عزلاً تاماً وأن تحول بينه وبين اقتحام مداخل المدينة كما يريد لأن هذه المداخل صارت بعد حفر الخندق خلفه ممنوعة به .

فقد حال الخندق بين الجيشين وبين أى التحام جدى شامل ، وهذا هو الذى تهدف إليه القيادة الاسلامية ، وتكرهه ولا تريد حدوثه قيادة جيوش الأحزاب التى ما حشدت تلك الحشود التى لم تشهد الجزيرة مثلها

إلا لتشتبك مع المسلمين في معركة فاصلة تهدف من ورائها إلى محو الكيان الاسلامى إلى الأبد .

لقد تحصن المسلمون وراء الخندق الواسع العميق الذى يبلغ طوله حوالى اثنين من الكيلو مترات ، الخندق الذى لايجرؤ على اقتحامه إلا فارس فذ زاهد فى الحياة ، أما المشاة فلا سبيل لهم إلى اقتحامه أبداً .

وقد استفاد الجيش الاسلامى من مناعة جبل سلع الذى جعله خلف ظهره ، كما استفاد من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحه الأيسر ووعرة حرة واقم لحماية جناحه الأيمن ، والحرة الجنوبية لحماية مؤخرته .

فأمن كلياً من خطر أى التفاف يقوم به العدو ، فظهره إلى جبل سلع ومن ورائه المدينة وأبنيتها المتشابكة ونخيلها المتلاصق مع الحرة وجناحاه محميتان بالحرتين مع جزء من الخندق ، أما صدره فقد واجه به جيوش الأحزاب التى صار الخندق فاصلاً بينه وبينها .

وهكذا نجحت خطة الدفاع التى اتبعها المسلمون نجاحاً كاملاً ، حيث صاروا بعد تطبيقها وكأنهم فى قلعة منيعة يكون الموت مصير من تحدثه نفسه بالاقتراب منها من ناحية الخندق الشمالية التى لايمكن لجيوش الأحزاب أن تقوم بأى قتال جدى وعلى نطاق واسع كما تريد إلا عن طريقها .

فكان الخندق بحق من أعظم الاعمال الدفاعية التى قام بها المسلمون لإحباط هجوم الأحزاب على المدينة ، فقد وجد قادة الأحزاب المكان الذى حددوه ليكون هدف هجومهم الرئيسى وهو مداخل المدينة الفسيحة الواقعة بين الحرتين ، وجدوا هذا المكان تعسكر فيه جيوش الإسلام رابضة ليوثها وراء الخندق العميق ، فتحطمت آمالهم وانهارت خططهم التى رسموها لاقتحام المدينة من الأساس.



الفصــل الثــالث

* وصول جيوش الأحزاب إلي مشارف المدينة
* ضرب الحصار علي المدينة
* بنو قريظة ينقضون العهد ويحاولون ضرب المسلمين من الخلف .
* إنسحاب المنافقين من الجيش الإسلامي وإرجافهم ضد المسلمين .
* تشديد الحصار إلي درجة الإختناق .
* إقتحام الفرسان الخندق وقتل فارس قريش .
* اشتداد الكرب وبلوغ القلوب الحناجر .
* النبي يحاول عقد صلح منفرد مع غطفان ويعرض عليهم ثلث ثمار المدينة .
* الأنصار يرفضون فكرة عقد هذا الصلح ويقررون المقاومة حتي النهاية .

بعد أن أتم المسلمون حفر خندقهم حول المدينة بقيت قواتهم خلفه مرابطة متيقظة فى انتظار جيوش الأحزاب بينما انتشرت دورياتهم المسلحة تطوف بمشارف المدينة مظهرة التهليل والتكبير لحراسة المدينة من أية مباغتة ، وخاصة من ناحية يهود بنى قريظة الذين (بالرغم من الحلف المعقود بينهم وبين المسلمين) كان المسلمون يتوقعون منهم الشر .

النبي يستعرض جيشه

وكان النبى ﷺ بعد حفر الخندق قد استعرض جيشه وقام بتنظيمه (كما هى عادته) فقسم الجيش إلى فرقيتن :

١ - المهاجرون وأعطى لواءهم لمولاه زيد بن حارثة (١) .

٢ - الأنصار ، وأعطى لواءهم لسعد بن عبادة .

وكانت أغلبية الجيش تتألف (كما هى العادة) من الأنصار .

وعند استعراض الجيش ، عُرض عليه فتيان المسلمين الذين حاولوا الاشتراك فى معركة الدفاع عن المدينة . وبعد استعراضهم أمر من لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بأن يرجع إلى أهله ولم يسمح له بالانخراط فى سلك الجيش ، وأجاز من الفتيان من بلغ الخامسة عشر ، ومن هؤلاء الذين سمح لهم بالاشتراك فى المعركة : عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب (٢) .

أمير المدينة بالنيابة

وكما هى عادته عند العزم على خوض المعارك أصدر مرسوماً عين بموجبة ابن أم مكتوم (٣) ليكون أميراً على المدينة حتى تنتهى معركة الأحزاب .

كما انتخبت لحراسة المدينة قوة خاصة ، قسمها إلى فصيلتين ،

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) انظر ترجمة هؤلاء الأربعة فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٣) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

فصيلة أعطى قيادتها لزيد بن حارثة ، والأخرى أعطى قيادتها لمسلمة ابن أسلم [1] ، وأمر هاتين الفصيلتين بأن تقوما بأعمال الدورية داخل المدينة وعلى مشارفها وخاصة ناحية الجنوب حيث تقع منازل بنى قريظة الذين لم يكن المسلمون على ثقة منهم بالرغم من الحلف العسكرى المعقود بين الفريقين .

وكان أخشى ما يخشاه المسلمون من ناحية يهود بنى قريظة هو تعرضهم للنساء والذرارى ، ولذلك فإن الرسول ﷺ أمر بأن ترفع النساء والصبيان فى الحصون والآطام ليمتنعوا فيها .

تحركات الأحزاب نحو المدينة

أما جيوش الأحزاب فبعد أن تكامل حشدها وتم تجهيزها تحرك بها قادتها نحو المدينة ، ففصل من ديار غطفان وأحلافها ستة آلاف مقاتل يقودها أربعة من زعمائهم . هم (كما تقدم) : عيينة بن حصن ، قائد بنى فزارة ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، قائد بنى أسد ، ومسعود ابن رخيلة ، قائد بنى أشجع ، والحارث بن عوف ، قائد بنى مرة .

كما فصل من ديار قريش وأحلافها أربعة آلاف مقاتل يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وقد كان (ضمن الجيش القرشى) سبعمائة مقاتل من بنى سليم [2] ، يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف بنى أمية ، وقد وافى قريشاً بجيشه هذا بمر الظهران [3] ، أما اليهود فقد كان جيشهم الذى

---

(١) مسلمة بن أسلم بن حريش بمهملة بوزن (عظيم) الأنصارى ، قال فى الإصابة ذكره ابن عبد البر ، وقال قتل شهيداً يوم الجسر فى فارس .

(٢) انظر ترجمة هذه القبيلة فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٣) قال فى مراصد الاطلاع .. مر الظهران ، مكان على مرحلة من مكة .

كان من المتفق بين الوفد اليهودى وقريش أن يشترك مع جيوش الاحزاب هو جيش بنى قريظة الواقع فى الطرف الجنوبى للمدينة ، والذى تعاهد حيي بن أخطب لقادة الأحزاب أن يوجه ضربته المميتة من الخلف للمسلمين ساعة الصفر .

القائد العام لجيوش الأحزاب

وقد اتفق قادة جيوش الأحزاب على إسناد القيادة العامة لكل هذه الجيوش إلى أبى سفيان (صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف) .

وقد كان الميعاد المتفق عليه بين قادة الأحزاب للتجمع حول المدينة هو شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة .

ففى أول هذا الشهر تكامل حشد جيوش الأحزاب حول المدينة ، فرابطت هناك عشرة آلاف مقاتل من قريش وأحلافها وغطفان وأحلافها يساندهم حوالى ألفين من اليهود داخل المدينة وخارجها ، ظلوا لهم كالاحتياطى ، بينما لايزيد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل على أكثر تقدير.

حقيقية عدد قوات المسلمين

وذكر ابن حزم فى كتابه (جوامع السيرة) ص ١٨٧ (وصححه) أن جيش المسلمين لم يزد على تسعمائة فى غزوة الأحزاب .

وأقول .. هذا أقرب إلى الصواب ، وخاصة بعد انسحاب المنافقين الذين كانوا يشكلون جزءاً كبيراً من الجيش وتركهم المسلمين وشأنهم

عندما اشتد الكرب وتأزمت الحالة ، وتصويبنا لرأى الإمام ابن حزم يستند إلى الأمور المنطقية التالية :

أ – أن الجيش الذى اشترك فى معركة أُحد (وهو كل القوة التى لدى الدولة فى المدينة) لايزيد على سبعمائة مقاتل ، حيث لم يتخلف عن معركة أُحد من يقدر على حمل السلاح .

ب – من الموكد أن المدة بين معركة الأحزاب وغزوة أُحد لاتزيد على سنة واحد [١] ، ولم تكن هذه السنة إلافترة صراع مرير بين الإسلام والوثنية فى جيمع أنحاء الجزيرة العربية ، وخاصة المناطق المحيطة بالمدينة .

جـ – لذلك يكون من المؤكد أن الداخلين فى الإسلام (فى تلك المدة) هم قليلون جداً ، وعلى هذا يكون من المستبعد أن يرتفع عدد الجيش الاسلامى (فى فترة الصراع العصبية تلك) من سبعمائة مقاتل إلي ثلاثة آلاف مقاتل .

---

(١) اختلف أصحاب المغازى والسير فى تاريخ غزوة الأحزاب ، فقال ابن إسحاق إنها كانت فى شوال سنة خمس للهجرة ، وبذلك صرح غيره من المؤرخين ، ولكن الذى رجحه البخارى ومال إليه هو قول (موسى بن عقبة) إنها كانت فى شوال سنة أربع للهجرة ، وقد رجح الإمام ابن حزم ماذهب إليه الإمام البخارى من أن هذه الغزوة كانت فى السنة الرابعة ، لا الخامسة ، وقد استند الإمام البخارى ومن تبعه عى القول بأنها كانت سنة أربع ، ويقول عبد الله بن عمر بن الخطاب الذين أرادوا الاشتراك فى معركة أحد (وهى سنة ثلاث للهجرة) رد عبد الله بن عمر ولم يجزه لأنه كان ابن أربع عشرة سنة وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه (أى سمح له بالاشتراك فى القتال لبلوغه) سن الرشد ، فيكون (على هذا) بين غزوة أحد وبين الزحزاب سنة واحدة ، وغزوة أحد كانت سنة ثلاث فتكون الأحزاب (بالتأكيد) سنة أربع ، والله أعلم .

د – مما يعضد الرأى الذى ذهب إليه ابن حزم هو أن المصادر التاريخية (كما فى حديث حذيفة بن اليمان فى البداية والنهاية) ذكرت أنه فى الليالى الأخيرة الحاسمة من ليالى الخندق ، لم يبق مع النبى ﷺ فى وجه الاحزاب أمام الخندق سوى ثلاثمائة مقاتل أو نحوهم (١) .

هـ – لو كان جيش المسلمين الذى ظل صامداً فى وجه الأحزاب طيلة ليالى الخندق ، هو ثلاثة آلاف مقاتل ، لما خاف المسملون ذلك الخوف الشديد الذى بلغ حد الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا ﴾ (٢) .

ذلك أن نسبة المسلمين تكون (إذا كان جيشه ثلاثة آلاف مقاتل فى غزوة الأحزاب) واحداً لثلاثة تقريباً ، وهذه ليست أول مرة تكون فيها نسبة المحاربين المسلمين واحداً لثلاثة من المشركين ، ففى معركة أحد كانت النسبة أقل من ذلك ، حيث كانت نسبة المسلمين واحد لأربعة من المشركين (تقريباً) حيث خرج من المدينة سبعمائة مقاتل اصطدموا فى العراء (حيث لاخندق ولا أبنية ولا حرار تحميهم) بثلاثة ألاف مقاتل فأنزلوا بهم فى الجولة الأولى هزيمة منكرة كادت تكون ساحقة لولا غلطة الرماة .

فكيف (إذن) يبلغ الخوف والفزع بالمسلمين إلى تلك الدرجة وهم متحصنون داخل المدينة وكأنهم فى قلعة منيعة ، ونسبة محاربيهم واحد

---

(١) سيأتى حديث حذيفة بن اليمان هذا مفصلاص فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله

(٢) الاحزاب ١١ .

لثلاثة فقط من محاربى الأحزاب ، وهى نسبة أكثر من نسبتهم فى معركة أُحد التى قابلوا فيها جيش العدو ، دون أن يشعروا بخوف أو فزع ؟ ،

فهل انخفضت نسبة الشجاعة والثبات والاقدام بين المسلمين بعد معركة أُحد ، حتى يبلغ بهم الخوف والفزع إلى تلك الدرجة فى معركة الأحزاب ، ونسبة عددهم إزاء عسكر الاحزاب فيها أكثر من نسبته إزاء عسكر مكة فى معركة أُحد ؟ .. الجواب الصحيح هو النفى (قطعاً) فالمسلمون بعد معركة أُحد لم يزدادوا إلا شجاعة وثباتاً وإقداماً وتضحية .

(إذن) وقد ثبت أن الخوف والفزع قد بلغ بين المسلمين إلى درجة الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر فى غزوة الأحزاب لابد من القول (أو الترجيح على الأقل) بأن مصدر ذلك الخوف والفزع الاساسى ، هو أن المسلمين (على شجاعتهم) كانوا (لكثرة عدوهم وقلتهم) كالجزيرة الصغيرة التى يحيط بها البحر الهائج ويهددها بالابتلاع فى كل لحظة ، وأن كثرة العدو الغامرة الهائلة التى بلغت فيها النسبة واحداً من المسلمين لعشرة من المشركين مع تربص اليهود وتوقع المسلمين منهم نقض العهد وضربهم من الخلف ، مع إرجاف المنافقين داخل الجيش ، هى السبب الاكبر فى ذلك الخوف والفزع الذى انتاب المسلمين بصورة لم يسبق لها مثيل .

وعلى هذا لابد من ترجيح القول الذى قال به الإمام ابن حزم ، وهو أن جيش المسلمين الذى رابط وراء الخندق وصمد في وجه عشرة آلاف مقاتل من عساكر الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل .

ولايستبعد أن يكون عدد الجيش الإسلامى أول الامر – وعندما كان

المنافقون يشكلون جزءاً منه – قد بلغ الألفين أو أكثر ، وأنه بانخذالهم وتسللهم منه عندما بدأت جيوش الأحزاب تصل إلى المنطقة لم يبق فيه إلا تسعمائة من المؤمنين الصادقين الذين لم يجد الشك سبيلاً إلى نفوسهم ، فيكون صحيحاً القول بأن الجيش الإسلامى الذى واجه الأعداء يوم الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل كما أكد ذلك الإمام ابن حزم ، وبهذا (فقط) نستطيع أن نجد تفسيراً مقنعاً لذلك الخوف الشديد الذى بلغ بالقلوب الحناجر .

أول شهيدين من المسلمين

وكان النبى ﷺ قبل وصول جيش الاحزاب قد بعث رجلين من رجال استخبارات الجيش الإسلامى للاستطلاع ومعرفة تحركات العدو والحصول على المعلومات الكافية عنه ،

والرجلان هما (سليط) و(سفيان بن عوف) [(١)] وقد وقع هذان الرجلان فى قبضة العدو ، حيث التقيا وهما يقومان بعملية الاستكشاف التقيا بدورية كبيرة مسلحة من دوريات جيوش الأحزاب الاستطلاعية فطوقهما رجال الدورية ثم قبضوا عليهما ، ثم سلموهما لقيادة الأحزاب ، وبمجرد علم هذه القيادة أن الرجلين عيناً لمعسكر المدينة أمرت بإعدامهما فأعدما فوراً ، وقد تمكن المسلمون من نقل جثتى هذين الشهيدين إلى المدينة فدفنهما النبى ﷺ فى قبر واحد ، فكانا أول شهيدين قتلا فى معركة الأحزاب .

---

(١) ذكر ذلك فى السيرة الحلبية ج٢ ص ١٠١ فقال : وأرسل سليطا ، وسفيان ابن عوف طليعة للأحزاب فقتلوهما ، غير أننى لم أجد (فيما بين يدى من مصادر) ترجمة واضحة لهذين الشهيدين .

أين عسكر الأحزاب ؟

وبعد أن وصلت جيوش الأحزاب إلى المدينة .. عسكر الجيش المكى فى مجمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة ، كما عسكرت غطفان بجيوشها بذنب نقمى إلى الطرف الغربى من جبل أحد .

وكان الزعيم اليهودى الكبير محزِّب الأحزاب ، حيبى بن أخطب موجوداً مع الأحزاب ينتقل بين المعسكرين وعلى اتصال دائم بقادة الفريقين (غطفان وقريش) يرسم الخطط ويقدم المشورة .

خطة الأحزاب لاحتلال المدينة

كانت الخطة التى وضعها قادة الأحزاب لاحتلال المدينة (باستشارة قادة اليهود) تقضى بأن يكون زحف جيوش الأحزاب على المدينة من الناحية الشمالية على هيئة قوس يمتد من الشمال الغربى حتى الشمال الشرقى ، فيطبق هذا القوس - زحف سريع ساحق عارم - على عسكر الاسلام المرابط عند مداخل المدينة الشمالية .

على أن يتحرك - ساعة الصفر - (كما هو المتفق عليه بين زعماء اليهود وقادة الأحزاب) تسعمائة مقاتل من يهود بنى قريظة (حلفاء المسلمين) والواقعين فى الطرف الجنوبى من المدنية وخلف ظهر الجيش الاسلامى ، فيسددوا الى الجيش الاسلامى الصغير - ساعة الالتحام - من الخلف ضربة قاتلة ، وبهذا (وكما تتصور قيادة الأحزاب) يتم استئصال شأفة المسلمين بسهولة .

الحلف بين المسلمين واليهود

ومن الجدير بالذكر أن حلفاً عسكرياً ومعاهدة دفاع مشترك كانت حتى وصول جيوش الأحزاب – معقودة بين المسلمين وبين يهود بنى قريظة ، إلا أن زعيم خيبر وسيدها حيى بن أخطب النضرى قد أقنع يهود بنى قريظة بنقض هذا العهد والانقضاض على المسلمين من الخلف ساعة الصفر كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

الخندق يحبط خطة الأحزاب

وكانت خطة الأحزاب خطة دقيقة رهيبة محكمة كان من الممكن (لو نجحت) أن يحقق الغزو أهدافه فتجنى قيادة الأحزاب ثمار هذه الخطة بسهولة بسحق المسلمين واستئصال شأفتهم لو لم يهد الله المسلمين إلى حفر الخندق .

إذا لولا هذا الخندق لكان من السهل على أحد عشر ألف مقاتل تحيط بتسعمائة مقاتل من كل مكان أن تقضى على هذه التسعمائة إذا ما اشتبكت معها فى معركة فاصلة ، وخاصة إذا كانت هذه التسعمائة بينها من يتربص بها الدوائر ويشيع روح الهزيمة بين صفوفها من المنافقين كما هو واقع المسلمين فى المدينة .

ولكن المسلمين بحفر الخندق نسفوا خطة الأحزاب المرسومة للمعركة من الأساس وأبطلوا مفعلوها ، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب وبين الإلتحام مع عسكر الإسلام فى معركة فاصلة كما تريد ، وكما هى الخطة المرسومة سلفاً للمعركة .

فقد وقف قادة الأحزاب حائرين أمام هذه المكيدة الكبيرة (الخندق) هذه المكيدة التى ماكان العرب يكيدونها ولايعرفون عنها شيئاً فى تاريخهم الطويل .

تجميد نشاط جيوش الاحزاب

فقد جمد وجود هذا الخندق نشاط تلك الالاف المؤلفة من جيوش الأحزاب ، التى كما سنفصله لم تستطع مقاتلة المسلمين إلا عن طريق حركات تسلل انتحارية عبر (الخندق) كانت نتيجة الإقدام عليها إما القتل وإما الفرار كما حدث لفرسان عمرو بن ود الذين اقتحموا الخندق بأفراسهم كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

لقد ذهب قادة الاحزاب ومعهم رأس الفتنة ومثير عواصف هذا الغزو (حُيى بن أخطب) ذهبوا بأنفسهم لارتياد واختيار مواقع الهجوم العام على المدينة ليوزعوا الكتائب ساعة الزحف على أساس هذا الاختيار .

مكيدة ماكنت العرب تكيدها

ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مفاجأة عسكرية وبدعة حربية ذهلوا لها وصعقوا .. وجدوا أنفسهم أمام خندق وكأنه أفعى تكاد تلف المدينة من جميع نواحيها [١] .. خندق يبلغ طوله حوالى ألفى متر فى سعة أربعة

---

(١) انظر موضوع الخندق من الخارطة العامة للمعركة فى هذا الكتاب .

أمتار وعمق ثلاثة ، ترابط على مشارفه وتطوف بنواحيه ليل نهار كتائب من جند الله كأنها الأسد الضوارى فى انتظار الفرائس .

فأسقط فى يدى أولئك القادة ، وأخذوا يطوفون بخيلهم (فى ذهول وغيظ) حول الخندق لتفقده والكشف عليه فوجدوه أمنع خط دفاع أقامه المسلمون فى وجههم .

فحاروا فى هذه المكيدة الحربية العظيمة التى كانت سبباً فى قلب خططهم رأساً على عقب ، وشل حركاتهم الواسعة التى كانوا ينوون القيام بها والتى كانت مناط أملهم للإطباق على المدينة وسحق المسلمين فيها .

وبعد أن طاف قادة الاحزاب بجيمع نواحى الخندق وتأكدوا من صعوبة اقتحامه ، وقفوا على مشارفه فقالوا (وقد أخذ الغيظ منهم كل مأخذ) .. إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها .. وفعلا فقد كانت عملية الخندق بدعة حربية ماكان العرب يعرفونها فى تاريخهم الطويل بالرغم من أنهم شعب محارب منذ عرف .

ولكن المشركين بالرغم من أن الخندق قد شل حركة جيوشهم وجعلهم يقفون أمامه مكتوفى الأيدى حائرين ، فإنهم قد صمموا على البقاء وفرض الحصار الخانق على المدينة ، والقيام بمناوشة المسلمين على الدوام بالتناوب ليلاً ونهاراً لإرهاقهم ، وفى انتظار الفرص المواتية لإقتحام المدينة. لاسيما وأنهم كانوا يتوقعون من اليهود ضرب المسلمين من الخلف ..

أما المسلمون ، فالبرغم من تحصنهم وراء الخندق التى كان أحسن وآمن خط دفاع أقاموه فى وجه جيوش الأحزاب الجرارة الغامرة ، فإنهم ظلوا على حذر وخوف ، لأنهم كانوا يخشون غدر يهود بنى قريظة الواقعة

حصونهم خلف خطوطهم ، كما يخشون قيام المنافقين الموجودين بينهم بحملات تثبيط وإرجاف يشيعون بها روح الهزيمة بين ضعاف الإيمان داخل الجيش .

خوف المسلمين من غدر اليهود

وأخشى مايخشاه قادة جيش المدينة (داخلياً) هو غدر يهود بنى قريظة عندما تتحرج الحالة ، لأن ذلك يعنى تعريض الكيان الاسلامى بأكمله لأشد الأخطار .

لأن انضمام يهود بنى قريظة الذين توازى قواتهم (فقط) قوات الجيش الإسلامى بأكمله ، يجعل المسلمين بين نارين .. اليهود خلف خطوطهم ، والأحزاب - بآلافهم العشرة - أمامهم .

ودخول بنى قريظة المعركة ضد المسلمين وضربهم من الخلف يقلل من أهمية الخندق بالنسبة لجيوش الاحزاب ، لان الخندق إنما يكون ذا أهمية بالنسبة للدفاع عن المدينة إذا كان هناك قوة كافية من المسلمين تطوف حوله ليلاً نهاراً لضرب أية قوة تحاول المغامرة باقتحامه عن طريق القفز بالخيل أو عن طريق الردم .

فضرب بنى قريظة المسلمين من الخلف ، وهم (أى بنو قريظة) قوة لايستهان بها يجبر المسلمين أو قسماً كبيراً من قواتهم المرابطة فى وجه الأحزاب على مشارف الخندق يجبرهم على ترك مراكزهم حول الخندق لمواجهة الهجوم اليهودى الآتى من الخلف .

وهذا دونما شك يسهل لقوات الأحزاب اجتياز الخندق ناحية المسلمين ، بأعداد كبيرة ، سواء عن طرق القفز بالخيل ، أو عن طريق ردم

الخندق فى مواضع يستطيع رجال الأحزاب ردمها للعبور دون أن يجدوا مقاومة تذكر من المسلمين لأن رجالهم سيكونون قليلين جداً بعد الهجوم اليهودى مما يجعل مراقبة الخندق وحراسته حراسة فعالة من الامور الصعبة ، لاسيما وأن الخندق يبلغ طوله حوالى ألفى متر ، قد جندت قيادة المدينة كل جيشها (تقريبا) لمراقبته وحراسة مشارفه .

ولقد حدث ما كان المسلمون يتوقعون حدوثه ويخشونه ، سواء من ناحية نقض اليهود العهد وانضمامهم إلى جيوش الأحزاب ، أو من ناحية انفضاض المنافقين من حول النبى ﷺ وتسللهم من الجيش ساعة الشدة وقيامهم بعمليات الإرجاف والتثبيط وبث روح الهزيمة بين المحاربين المسلمين .

كيف نقض اليهود العهد

لقد كانت استخبارات الجيش الاسلامى تراقب مناطق بنى قريظة مراقبة شديدة وتتبع حركاتهم وسكناتهم لتأتى بما يجد من أخبارها إلى النبى القائد ﷺ أولاً بأول ، وذلك لئلا يؤخذ المسلمون على حين غرة .

فقد كانت القيادة الإسلامية فى المدينة عند وصول الأحزاب على غاية من الحرج ، وموقفها بلغ من الدقة إلى أبعد الحدود .

كان قادة جيش المدينة على يقين بأن شيطان بنى النضير (حيى ابن أخطب) سيتصل بيهود بى قريظة لتحريضهم على نقض العهد وحملهم على الانضمام الى جيوش الأحزاب .

وقد أجمع أصحاب المغازى والسير على أن زعيم يهود بنى قريظة (كعب بن أسد) ماكان راغباً (مطلقاً) فى نقض العهد الذين بينه وبين المسلمين ولم تكن له أية رغبة فى الغدر بهم ، خوفاً على اليهود من النتائج المخيفة التى ستترتب على نقض العهد والغدر بالمسلمين فى تلك الظروف الخانقة التى بلغت فيها حالة المسلمين من الدقة والحراجة أقصى الدرجات، لان اليهود لم يكونوا واثقين من تغلب الأحزاب على المسلمين .

شيطان خيبر في صفون بني قريظة

ولكن شيطان خيبر والعدو رقم واحد للإسلام والمسلمين – حيى ابن أخطب .. الذى تعهد لقادة قريش وغطفان – عندما حزّبها وشجعها على حرب النبى ﷺ وفد على بنى قريظة يدعوهم إلى اغتنام فرصة وجود جيوش الأحزاب وحسن لهم الغدر بالمسلمين والمشاركة مع الأحزاب فى استئصال شأفتهم ، هذا الاستئصال الذى ماكان سيد خيبر اليهودى الحاقد يشك لحظة فى نجاح عمليته .

ولقد قاوم سيد بنى قريظة كعب بن أسد هذه المحاولة الخطيرة طويلاً، وقبح لحيى بن أخطب فكرة مايدعو إليه من الغدر بالمسلمين ، وذكره بالعواقب الوخيمة التى سيتعرض لها شعب قريظة نتيجة هذا الغدر الذى يلح حيى بن أخطب فى القيام به .

ممانعة سيد قريظة في نقض العهد

حتى إن كعباً هذا عندما علم بقدوم حيى بن أخطب إلى ديار بنى قريظة لمقابلته أمر بإقفال باب الحصن فى وجهه ورفض (أول الامر

مقابلته) وطلب منه مغادرة ديار بنى قريظة والعودة من حيث أتى لأنه يعلم أن مجيئه لم يكن إلا لحمل بنى قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين ، فكعب هذا يعرف مدى العداوة الشديدة التى يحملها حُيى بن أخطب للنبى ﷺ خاصة .

ولكن هذا اليهودى الشرير (حيى بن أخطب) بالرغم من إقفال باب الحصن فى وجهه وأمره بمغادرة ديار بنى قريظة ظل (فى مكر وخبث) لاصقاً بباب حصن سيد بنى قريظة ، طالباً منه (وبإلحاح) أن يفتح له باب الحصن ليكلمه ، حتى خجل من كلامه القارص الذى كان يوجهه إليه ، ففتح له .

المناقشة بين الزعيمين اليهودين

ولقد دارت بين سيد بنى النضير وسيد بنى قريظة حول هذا الموضوع الخطير المناقشة التالية :

فعندما وقف حيى بن أخطب بباب الحصن ، نادى كعب بن أسد طالباً منه أن يفتح له (وقد تمنع) قائلاً :

« ويحك ياكعب .. افتح لى » .

فقال له كعب .. « ويحك ياحيى إنك امرؤ مشؤوم وإنى قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً » .

فقال حيى .. « ويحك افتح لى أكلمك» .

فقال .. « ما أنا بفاعل » .

فغاظ ذلك حيياً ، فقال لكعب .. « والله ماأغلقت دونى إلا تخوفاً على جشيشتك [1] أن آكل معك منها » فخجل منه كعب (على أثر هذا الكلام اللاذع) ففتح له .

فقال له حيي .. ويحك ياكعب جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بجمع الأسيال وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أُحد . قد عاهدونى وعاقدونى أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

فقال له كعب .. جئتنى والله بذل الدهر ، وكل مايخشى ، فإنى لم أر فى محمد إلا صدقاً ووفاء .. جئتنى ياحيي بجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شىء . يعنى بذلك كعب : ان جيوش الأحزاب عليك كثرتها وعظمتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذى تصك رعودة الآذان ويخطف برقة الأبصار وليس فيه قطرة ماء .

ثم أردف كعب قائلاً .« ويحك ياحيي فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً » .

ولما ألح حيي بن أخطب فى كلامه وأخذ بأسلوبه الخادع الماكر يؤثر فى نفوس القوم دعا سيد بنى قريظة كعب بن أسد إلى اجتماع حضره جميع زعماء وقادة بنى قريظة للتشاور فى الأمر وبحث ماعرضه عليهم سيد بنى النضير من الانضمام الى جيوش الأحزاب ونقض العهد الذى بين قريظة والمسلمين .

أحد زعماء اليهود يحذر من نقض العهد

وفى هذا المجلس تكلم أحد عقلائهم من القادة وهو عمرو بن

---

(١) الجشيشة : البر يطحن غليظا .

سعدى ، فنصح بنى قريظة وحذرهم مغبة نقض العهد ، وذكرهم بوفاء محمد الدائم وصدقه فى معاملته لهم ، وأنهم ملزمون بالقتال إلى جانبه ، فكيف يسوغ لهم (بدلاً من ذلك) أن يشهروا السلاح فى وجهه ويعينوا عدوه عليه ؟ ثم طلب منهم الثبات على العهد وألا يصغوا لكلام حيى بن أخطب ، بل وطلب منهم حمل السلاح إلى جانب المسلمين كما تفرض ذلك المعاهدة المعقودة بينهم ، وطلب عمرو بن سعدى فى هذا المجلس من قومه أن يقفوا على الأقل موقف الحياد إذا لم ينصروا النبى ﷺ قائلاً : « إذا لم تنصروا محمداً فاتركوه وعدوه » .

ولكن وساوس وتأثيرات حيى بن أخطب كانت أقوى من كل معارضة حيث مازال - كما قال بن إسحاق - يستدرج زعماء بنى قريظة ويفتل كعباً فى الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ماطلب ، فوافقوا على نقض العهد والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيوش الأحزاب .

وذلك بعد أن أخذوا العهد والميثاق على سيد بنى النضير حيى بن أخطب أن يبقى معهم فى حصونهم ليصيبه ماأصابهم إذا رجعت قريش وغطفان دون أن تقضى جيوشها على المسلمين ، وبعد أن أخذت قريظة العهد على حيي بن أخطب بهذا الخصوص ، أعلن زعيمها كعب بن أسد نقضه للعهد وبرىء ما كان بينه وبين النبى ﷺ .

إعلان قريظة الغدر بالمسلمين

ثم استدعى كعب زعماء بنى قريظة ، ومنهم : الزبير بن باطا .. وعزال بن ميمون .. وشاس بن قيس وعقبة بن زيد وعمروا بن سعدى ، وأحضر الصحيفة التى تتضمن نص العهد المعقود بين النبى ﷺ ويهود

بنـى قريظـة وطلـب مـنـهم الموافقة علـى تمزيـقـها إيـذانـاً بـنـقض العـهد والانضمام إلى الأحزاب .

فوافق الجميع على ذلك ، إلا الزعيم القرظى (عمر بن سعدى) فإنه أبى ذلك وأعلن رفضه المشاركة فى جريمة الغدر هذه قائلاً : « والله لا أغدر بمحمد أبداً » وبقى على عهدة ، وسانده فى موقفه النبيل هذا ثلاثة من هؤلاء اليهود وهم ثعلبة وأسيد أبناء سعية ، وأسد بن عبيد .

وقد كان موقف عمرو بن سعدى اليهودى هذا سبباً فى نجاته عندما حاق بيهود بنى قريظة مكرهم السىء وأعدمهم المسلمون بعد انصراف الأحزاب عن المدينة ، أما الثلاثة الآخرون فقد خرجوا إلى النبى ﷺ ، وأعلنوا إسلامهم كما سيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله .

تمزيق صحيفة المعاهدة

أما كعب بن أسد فقد تغلب طيشه على عقله وحلمه فأصر مع زعماء قريظة على الغدر بالمسلمين فأخذوا الصحيفة التى تتضمن نص العقد الذى بينهم وبين المسلمين فمزقوها ، وبهذا أصبحوا حرباً على النبى ﷺ وجزءاً من قوة الأحزاب .

ولما كانت ديار بنى قريظة تحت مراقبة رجال الاستخبارات الإسلامية ، فقد علم هؤلاء الرجال بالحدث الخطير الذى أحدثته قريظة الخائنة ، فسارعوا بنقل الخبر إلى الرسول القائد ﷺ .

فجاءوا إليه وهو فى معسكره وراء الخندق ، وبلغوه (سراً) هذا الخبر الخطير ، فشق عليه ذلك كثيراً ، إلا انه كتم الخبر وأمر بأن لايشاع منه شىء .

وفد النبي إلي بني قريظة

ثم استدعى ﷺ حليف بنى قريظة وسيد الأوس (سعد بن معاذ) وهو شاب لم يبلغ الأربعين من عمره ، كما استدعى سيد الخزرج (سعد بن عبادة) وهما قطبا الأنصار وعبد الله بن رواحة وأسيد بن حضير ، والجميع من الانصار ، وبعد أن حضروا كلفهم النبى ﷺ بأن يذهبوا إلى بنى قريظة وأمرهم بان يتصلوا رسمياً بزعماء هؤلاء اليهود ، ويسألوهم عما بلغهم من خبر نقضهم العهد .

وقد أمر النبى ﷺ رجال هذا الوفد بأن يكتموا الخبر عن الجيش إذا ماصح أن يهود بنى قريظة قد نقضوا العهد وأعلنوا الحرب ، وذلك لكى لايؤثر هذا الخبر الخطير على معنويات الجند الاسلامى ، الذى هو فى حالة كرب وشدة لمواجهته الأحزاب على مشارف الخندق ليلاً ونهاراً .

قال ابن إسحاق .. فقال ﷺ .. انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً ، فالحنوا لى لحناً أعرفه ، دون القوم ، ولا تفتوا فى عضد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فذهب الوفد النبوى إلى منازل بنى قريظة لمعرفة الحقيقة ومراجعة هؤلاء اليهود ومحاولة إعادتهم إلى الصواب إذا كانوا قد نقضوا العهد .

المشادة بين الوفد النبوي وبني قريظة

ولما وصل الوفد النبوى استقبلهم زعماء بنى قريظة ودخلوا معهم حصنهم ، وهناك بدأوا المحادثات ، وقد بدأ الوفد الإسلامى هذه المحادثات

بدعوة بنى قريظة إلى توثيق الحلف الذى بينهم وبين المسلمين أو الوقوف على الحياد على الأقل (بالموادعة) .

ولكن اليهود بمجرد سماعهم ذكر النبى ﷺ والحديث عن العهد قالوا .. فى قحة وصفاقة : « من هو رسول الله هذا ؟؟» ثم أردفوا قائلين للوفد النبوى :« لاعهد بيننا وبين محمد » ، وقالوا للوفد (وقد تملكهم الغرور) مامعناه : » الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذى بيننا وبين محمد ، وهو الذى كسر جناحنا وأخرج إخواننا بنى النضير اذهبوا لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد » .

فغضب عند ذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة (وكان فى طبعه حدة) وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه وأغضبوه كثيراً .

غير أن سيد الأوس الشاب وحليف هؤلاء اليهود (سعد بن معاذ) تدخل فى الأمر ، وطلب من سعد بن عبادة أن يسيطر على أعصابه قائلاً : « دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة » .

سعد بن معاذ ينصح حلفاءه من اليهود

ثم توجه سعد بن معاذ إلى حلفائه (فى محاولة أخيرة) ناصحاً إياهم بالرجوع عن غيهم ومحذرهم العواقب المخيفة التى ستترتب على إصرارهم على نقض العهد .

فقد قال سعد بن معاذ ليهود بنى قريظة : « إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة وأنا أخاف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمَرّ منه » .

فكان جواب هؤلاء اليهود لحليفهم الناصح على مستوى الخسة والسفاهة التى هى من طبيعتهم ، حيث قالوا لسعد ساخرين من نصحه : «أكلت أير أبيك » .

فقال لهم سعد (وكان حليماً ثبتاً) : « غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يابنى قريظة » ، فتمادى بنو قريظة فى غيهم وصاروا ينالون من النبى ﷺ ويقعون فيه ، وهنا يئس سعد بن معاذ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب ، فعاد الوفد الإسلامى يحمل إلى النبى ﷺ تأكيد غدر اليهود ونقضهم العهد .

كلمة السر بين النبي والوفد

وعندما وصل الوفد إلى المعسكر وراء الخندق سلموا على النبى ﷺ، وأبلغوه (بواسطة كلمة السر) حقيقة الموقف وأن يهود بنى قريظة (فعلا) قد غدروا ونكثوا .

وكلمة السر هذه التى تبلغ بها النبى ﷺ هذا الخبر المزعج (دون أن يعلم أحد غيره فى المعسكر) هى - عضل والقارة - فبمجرد أن قال رئيس الوفد هذه الكلمة للنبى ﷺ أدرك - حالاً - أن اليهود قد غدروا ونقضوا العهد .

وعضل والقارة هما قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النبى ﷺ فى ذات الرجيع من أرض الحجاز وهم فى طريقهم للقيام بتعليم تلك القبائل أصول الدين الاسلامى - كما فصلناه فيما مضى من هذا الكتاب .

الموقف بعض نقض اليهود العهد

لقد كان نشاط الأحزاب العسكرى - قبل أن تنقض قريظة العهد الذى بينها وبين المسلمين - فاتراً إلى حد ما فلم يكن هناك من عمل عسكرى يذكر سوى الطواف بالخيل للاستكشاف والإزعاج والإرهاب لأن المشركين قد قطعوا الأمل فى عبور الخندق بأعداد كبيرة تمكنهم من الالتحام فى معركة فاصلة مع جيش المدينة ، لان هذا الجيش قد أصبح بأكمله يقوم بأعمال الدورية وحراسة مشارف الخندق .

ولكن لما تلقت الأحزاب (رسميا) انضمام يهود بنى قريظة إليهم ازداد نشاطهم العسكرى وصاروا يضاعفون من جولاتهم وتحفزاتهم الجدية حول الخندق حيث عاد إليهم الامل فى اقتحام مواقع المسلمين وراء الخندق بأعداد كبيرة بسهولة .

ذلك أن انضمام قريظة إليهم سيجبر أكثرية الجيش الإسلامى على ترك مواقعة التى يرابط فيها لحراسة مشارف الخندق ، وإذا ماقامت القوات اليهودية - التى ليس بينها وبين المسلمين أى حاجز من خندق أو غيره - بالهجوم على معسكر المسلمين من الخلف كما هو المتفق عليه بين قادة قريش وغطفان وبين اليهود ، فسيؤدى ذلك إلى إشغال عدد كبير من قوات المسلمين .

تدهور الحالة عند المسلمين

لقد كان موقف القوات الإسلامية منذ وصول جيش الأحزاب - وقبل نقض اليهود العهد - موقفاً حرجاً (دونما شك) .

لأنه مهما يقال من مناعة خط الدفاع الأول (الخندق) ومهما يمتاز به المسلمون من شجاعة وثبات وإقدام فإن وجود تسعمائة مقاتل من هؤلاء المسلمين أمام عشرة آلاف مقاتل كلهم غيظ وحقد على المسلمين ، يتحفزون لابتلاعهم ، كما يتحفز البحر الهادر المحيط بالجزيرة الصغيرة جداً لابتلاعها – هو أمر من الخطورة بحيث يجعل مركز قوة المسلمين الصغيرة من الحراجة بمكان يقض مضاجع القيادة المسئولة عن هذه القوة ويجعلها فى مركز حرج للغاية .

غير أن انضمام يهود بنى قريظة إلى معسكر الأحزاب قد عقد الوضع داخل المعسكر الاسلامى وجعل الحالة فيه تسير من سىء إلى أسوأ .

بلغت الحالة أعلى درجات الحراجة والتأزم ، فأصبح مصير الكيان الاسلامى كله فى مهب العاصفة .

بلوغ القلوب الحناجر

ولقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور هذه ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف وفزع فى تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف ، حيث قال الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ (١) .

---

(١) الأحزاب : ٩ – ١٠

فقد عظم البلاء على المسلمين وتضاعف الابتلاء ، واشتد الخوف وانتاب الفزع كل القلوب (تقريباً) ، وبلغ الجزع بأفراد الجيش الصغير (كما حدثنا القرآن) إلى درجة الزلزال ، بعد أن أصبح هذا الجيش الإسلامى الصغير - بعد غدر اليهود - بين نارين .. الأحزاب من الأمام .. واليهود من الخلف .

وكأن الله تعالى أراد بهذ البلاء العظيم أن يمتحن هذه الأمة الناشئة التى سستنشىء على كاهلها أعظم دولة عرفها التاريخ ، ويوكل إليها مهمة نشر أشرف عقيدة عرفتها الدنيا .

فقد ظهر بهذا الامتحان العظيم الطيب من الخبيث والصادق من الكاذب .

أما المؤمنون فقد ثبتوا على إيمانهم ولم يزدهم توتر الحالة وتدهور الموقف إلا تمسكاً بدينهم والتفافاً حول نبيهم .

ظهور النفاق داخل جيش المدينة

أما الذين فى قلوبهم مرض والذين يتسترون وراء التظاهر بالإسلام فقد كشفتهم هذه التطورات الخطيرة وظهروا - أمام هذه الامتحان العظيم على حقيقتهم كذابين مخادعين يظهرون مالا يبطنون .

فقد كانت فئات من هذا النوع الخبيث (كالطابور الخامس [١] داخل

(١) الطابور الخامس ، أو الرتل الخامس كما يطلق عليه فى ا لعراق ، هم جماعة من الناس يكونون معك (ظاهرياً) ومع عدوك (سراً) . وأول ما استعمل فى الحرب الاسبانية الأهلية بين الوطنيين من جهة وبين الشيوعيين ، وكانت النتيجة استيلاء قوة فرانكو .

الجيش الإسلامى ، يتظاهرون بالاسلام وهم – فى حقيقتهم – يعملون ضد الإسلام ويتمنون زوال المسلمين ، وهؤلاء هم المنافقون .

وكان ظهور هذا النوع الخبيث على حقيقته ، بل وتظاهره (داخل الجيش الاسلامى) بميله نحو الأحزاب وإطلاقه الإشاعات والأراجيف ضد مقدرة المسلمين على الصمود فى وجه العدو ، كل ذلك ضاعف من بلاء المسلمين وجعل محنة جيش المدينة الصغيرة تستحكم حلقاتها .

ظهرت من داخل الجيش الاسلامى جماعة تناوئه وتتمرد على قيادته فى تلك الساعات الحاسمة من تاريخه ، وهذا من أخطر الأخطار التى تواجهها الجيوش المحاربة وتهددها بالدمار – حتى وإن كانت ضخمة كبيرة- فكيف بجيش صغير تبلغ نسبة جنوده حيال أعدائه المحيطين به واحداً لأحد عشر .

لقد ظنت فئة المنافقين الموجودين داخل الجيش الإسلامى – وخاصة بعد غدر قريظة وانضمامها إلى الأحزاب – ظنت هذه الفئة أن الكيان الاسلامى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانهيار .

ولذلك تجرأت تلك الفئة المنافقة ، وصارت – داخل المعسكر الإسلامى– تتفوه بكلمات خطيرة من شأنها إشاعة الفزع وتحطيم الروح المعنوية بين صفوف الجيش التى استحكمت عليه حلقات المحنة.

مقالة المنافقين

وقف واحد من هؤلاء المنافقين داخل المعسكر الاســـلامى وقال – فى سخرية واستهزاء : – « كان محمد يعدنا أن نأكل كنـــوز كســرى

وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » .

ويقول ابن إسحاق : إن الذى قال هذا القول المنكر ، هو معتب ابن قشير أخو بنى عمرو بن عوف ، غير أن الذى لاغبار عليه هو أن معتب بن قشير هذا كان من البدريين ، وقد ذكر اسمه فى عدادهم ابن إسحاق نفسه، ولهذا عقب ابن هشام الرواى للسيرة على قول ابن إسحاق بقوله .. وأخبرنى من أثق به من أهل العلم أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر .

وعلى العموم فقد تفوه المنافقون بهذا القول المنكر ، وقد أشار القرآن الى الذين تفوهوا به فقال تعالى :

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾(١) .

وهكذا كان وجود فئات المنافقين داخل الجيش الإسلامى ابتلاءاً ثالثاً ابتلى به المسلمون .

القوة الثالثة ضد المسلمين

فقد كان هؤلاء المنافقون – بالاضافة إلى قوة الأحزاب ويهود بنى قريظة – قوة ثالثة ضد المعسكر الإسلامى ، صارت عن قصد وإصرار – وخاصة بعد نقض اليهود العهد – تقوم بأعمال تخريبية داخل صفوف

(١) سورة الأحزاب ١٢ .

المسلمين مما زاد الطين بلة (كما يقولون) وضاعف من متاعب القيادة العليا فى الجيش الإسلامى .

فقد صار هؤلاء المنافقون (وخاصة بعد غدر اليهود واشتداد الحالة على المسلمين) صاروا وبصورة شبه علنية يبثون روح الفزع والتخاذل واليأس داخل صفوف جيش المدينة .

انسحاب المنافقين من الجيش

ولم تكتف فئات المنافقين بالإرجاف والسخرية من الإسلام وبث روح الانهزام بين صفوف جيش المدينة ، بل لقد ذهبوا إلي أبعد من ذلك حيث أخذوا فى الانحساب والتحريض على الانسحاب من الجيش فى ذلك الظرف الدقيق الذى يمر به الكيان الإسلامى كله هادفين من وراء ذلك إلي مساندة الاحزاب وتسهيل مهمتهم بطريق غير مباشر ، وتحت ستار حماية منازلهم من غارات يهود بنى قريظة .

ففى تلك الحالة التى بلغ فيها موقف المسلمين الذروة من الحرج ، تقدم أحد هؤلاء المنافقين الموجودين فى الجيش الإسلامى ، فطلب – باسم ملأ من قومه – أن يسمح لهم الرسول القائد ﷺ بالانسحاب من المعسكر المواجه للأحزاب على مشارف الخندق بحجة أنهم بحاجة إل حماية بيوتهم المكشوفة الواقعة فى أطراف المدينة .

وماكان قصد هؤلاء المنافقين حماية بيوتهم ، وإنما قصدهم الفرار ثم بث الفزع وروح الهزيمة والتذمر داخل الجيش الصغير الذى أحاط به عدوه من كل مكان .

قال أوس بن قيظى - أحد بنى حارثة بن الحارث - يارسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو (وذلك على ملأ من رجال قومه) فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى ديارنا ، فإنها خارج المدينة .

وقد فضح القرآن الكريم هؤلاء المنافقين ، حيث صرح بأن طلبهم الانسحاب من الجيش فى ذلك الظرف الدقيق ، لم يكن لحماية بيوتهم ، وإنما كان القصد منه الفرار وتفتيت وحدة الجيش ، وبث مزيد من الخوف والفزع فى نفوس الجند ، فبيوتهم لم تكن عورة (كما زعموا) وإنما هم كاذبون منافقون لاسيما وأن دوريات المسلمين داخل المدينة قد كلفت بحماية ديار هؤلاء ، فقال تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ (1) .

وهكذا ازدادت حالة المسلمين دقة وازداد موقفهم تحرجاً ، بعد اكتشاف فئات المنافقين الذين ظهروا على حقيقتهم داخل صفوف الجيش، وصاروا يسخرون من المسلمين ويبثون روح الهزيمة واليأس داخل صفوفهم .

وبالرغم من أن الخندق قد جمد نشاط جيوش الأحزاب ، وجعلها عاجزة عن القيام بأى هجوم جدى واسع ، فإن النبى كان (وخاصة بعد نقض اليهود العهد وانضمامهم إلى الأحزاب ونجوم النفاق داخل الجيش الإسلامى) يشعر بحراجة مركز جيشه ويخشى عليه - مع قلة رجاله بين

---

(1) الأحزاب : ١٣ .

فكى الكماشة الرهيبة التى تمثلها جيوش الأحزاب وبنى قريظة ، هذه الكماشة التى بدأت - وخاصة بعد غدر يهود بنى قريظة - تضغط بعنف على عنق جيش المدينة نفسه الذى برزت - داخل صفوفه - فئات المنافقين ، تثبط وتُخَذِّلْ وتنشر روح الهزيمة والعصيان داخل هذا الجيش الصغير الذى بلغت نسبته إلى أعدائه واحداً لأحد عشر .

محاولة النبي عقد صلح منفرد مع غطفان

ففى هذه الظروف الخانقة التى بلغت فيها الخطورة والاختناق بالجيش الإسلامى الذروة ، وكان لابد للقائد الأعلى النبى ﷺ من أن يفكر فى وسيلة تخفف (على الأقل) من الضغط الخانق الذى يتعرض له جيشه الصغير ، والذى ينتظر أن يتعرض لمزيد من الأخطار المزلزلة إذا ما وفت قريظة الخائنة بوعدها للأحزاب وشنت قواتها الهجوم من الخلف على الجيش الإسلامى ، الذى كان قد جند كل إمكانياته المحدودة للمرابطة وراء الخندق ومنع الأحزاب من اجتياز هذا الخندق .

ولهذا - وقبل أن تقوم قريظة بأى هجوم فعلى على المسلمين - فكر النبى ﷺ - كقائد عسكرى وسياسى - فكر فى القيام بعمل يحدث به الفرقة والاختلاف بين قادة الأحزاب ، ليخفف من شدة وطأة الحصار العنيف المضروب على المدينة ، وليفت فى عضد اليهود ليؤخروا (على الأقل) عملية القيام بضرب المسلمين من الخلف ، هذه العملية المخيفة التى كان الجيش الاسلامى يتوقعها بين لحظة وأخرى .

اتصال النبي بقيادة غطفان

فقد اتصل الرسول القائد ﷺ بقائدى غطفان (سراً) ، وهما (عيينة بن حصن الفزارى) و (الحارث بن عوف المرى) . فقد أرسل إليهما (فى جنح الظلام) أحد رجال استخباراته الأمناء الأذكياء ليبلغهما رغبته فى الاجتماع بهما (سراً) فى مقر قيادته وراء الخندق.

وكان النبى ﷺ - كقائد أعلى مسئول وكسياسى محنك مجرب - أعلم الناس بنفسيات الرجال ، وكان على علم تام بأهداف وغايات كل من القادة والزعماء الذين يقودون هذا الغزو الخطير الساحق .

فهو يعلم (مثلاً) أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك فى هذا الغزو أى هدف سياسى يريدون تحقيقه أو باعث عقائدى يقاتلون تحت رايته ، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الإشتراك فى هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء على مايمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها .

ولهذا فإن الرسول القائد السياسى المحنك ، لم يحاول الاتصال بقادة الأحزاب من اليهود (كحييى بن أخطب وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبى سفيان بن حرب ، لأن هدف أولئك الرئيسى ، لم يكن المال وإنما كان هدفهم ، هدفاً سياسياً وعقائدياً يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الاسلامى من الاساس ، لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان ، الذين (فعلاً) لم يترددوا فى قبول العرض الذى عرضه عليهم النبى ﷺ .

فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن والحارث بن عوف) لطلب النبى القائد ﷺ وحضرا (مع بعض أعوانهما) الى مقر

قيادة النبى ﷺ ، اجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد.

بنود الصلح المقترح

ولدى وصولهما ، شرع النبى ﷺ فى مفاوضتهما ، كانت هذه المفاوضة تدور - بصفة رئيسية - حول عرض تقدم به النبى ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان ، وأهم البنود التى جاءت فى هذه الاتفاقية المقترحة هى :

١ -عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الاحزاب .

٢ - توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأى عمل حربى ضدهم (وخاصة فى هذه الفترة) .

٣ - تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها .

٤ - يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع ، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة .

وقد وافق قائد غطفان (عيينة بن حصن والحاثر بن عوف) على هذا العرض موافقة تامة إلا أنهما طلبا نصف ثمار المدينة بدل الثلث ، ولكن النبى (فى هذه المفاوضة الأولية) أصر على الثلث .

فقبلت غطفان ذلك ورضوا بثلث ثمار المدينة ، وتم (مبدئياً) الاتفاق على عقد الصلح ، وفعلا ، حررت المعاهدة وسجلت بنودها ، وكان كاتبها

عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ولم يبق لإنفاذها إلا توقيع الطرفين عليها وإشهاد الشهود

استشارة الأنصار

ويظهر أن النبى ﷺ قد اشترط موافقة سادة الأوس والخزرج من الأنصار على هذه الاتفاقية لتكون نافذة المفعول ، لأن ثمار المدينة هى ملك للأنصار وحدهم ، ولا يمكن التعهد بإعطاء أحد شيئاً من هذه الثمار دون موافقة مالكيها وخاصة إذا كان الامر اجتهاداً سياسياً من النبى ﷺ لا وحياً من السماء .

ولهذا - وقبل التوقيع على هذه الاتفاقية - استدعى النبى ﷺ ، سعد بن معاذ (سيد الأوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) وشرح لهما - بحضور عيينة بن حصن والحارث بن عوف - مادار بينه وبين هذين القائدين وما توصل إليه من اتفاق معهما تنسحب بموجبها وتفك الحصار عن المدينة جميع قبائل غطفان (التى يتكون منها العمود الفقرى لهذا الغزو الكبير) مقابل إعطائها ثلث ثمار المدينة .

ثم استشار النبى ﷺ السعدين فى الأمر - وخاصة البند المتعلق بإعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان - وطلب منهما إبداء رأيهما الأخير فى هذه الاتفاقية .

سادة الأنصار يرفضون الصلح

وبعد أن استمعا إلى النبى ﷺ وأطلعا على بنود الاتفاقية - لم يعجبهما ولم يرق لهما البند المتعلق بإعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة ، فلم يلق قبولاً من نفسيهما بل استعظماه .

إلا أنهما كمؤمنين صادقين لايبيحان لأنفسهما الخروج على أمر النبي - حتى ولو كان فيه هلاكهما - أبلغا النبي القائد ﷺ أنهما - باسم الأنصار جميعاً - على أتم استعداد للموافقة على هذه الاتفاقية بكاملها إذا كان ذلك عن أمر الله ووحي منه .

أما إذا كان الأمر ، لايعدو أن يكون رأياً فيه مجال لأخذ والرد فإن لهما رأيا غير الرأى الذى رآه النبى ﷺ وهو أنهما يرفضان (بصراحة) إعطاء قبائل غطفان تمرة واحدة من ثمار المدينة على هذه الصورة .

فقد قال السعدان .. يارسول الله .. أمراً تحبه فتصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ، فإن كان أمراً من السماء فامض له ، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف .

فقال رسول الله ﷺ .. لو أمرنى الله ماشاورتكما ، والله ماأصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما .

والله لانعطيهم إلا السيف

فقال له سعد بن معاذ (سيد الأوس) ..وكان شاباً لم يكمل الأربعين من عمره : يارســـول الله ، قـــد كـــنا نحـــن وهؤلاء القوم - يعنى

غطفان لايطمعون أن يأكلوا منا تمرة ، إلا قِرى [١] أوبيعاً ، وإن كانوا ليأكلوا العِلْهِز [٢] فى الجاهلية من الجهد .

ثم قال سعد بن معاذ - معترضاً على الاتفاقية الآنفة الذكر - .. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، ونقطعهم أموالنا ، مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم [٣] .

ولما رأى رسول الله ﷺ معارضة سيدى الأنصار لهذه الاتفاقية التى كتبت ولم يبق إلا التوقيع عليها وشهادة الشهود [٤] عدل النبى ﷺ عن رأيه ومال إلى رأى السعدين قائلاً لسعد بن معاذ الذى تولى المناقشة .. فأنت وذاك .

وهنا أخذ سيد الأوس - سعد بن معاذ - الصحيفة التى قد تم فيه تسجيل اتفاقية الصلح ومزقها ، ثم وجه حديثه إلى سيدى غطفان عيينة

---

(١) القرى - بكسر القاف وفتح الرآء - الضيافة .

(٢) العلهز - بكسر أوله وسكون ثانية وكسر ثالثه - وبر يخلط بدماء الحلم - بفتح الحاء واللام - كانت العرب فى الجاهلية تأكله فى الجدب .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٣ ومابعدها .

(٤) قال ابن إسحاق .. فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم - عن محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهرى ، إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف ابن أبى حارثة المرى، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما - أى عرض عليهما - ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولاعزيمة الصلح إلا مراوضة ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه .. إلى أن ذكر بن إسحاق كيف أن السعدين لم يوافقا فى النهاية على الاتفاقية المذكورة .

ابن حصن والحارث بن عوف قائلاً – وقد رفع صوته فى تحد – إرجعا ليس بيننا وبينكم غير السيف ، فانصرفا إلى مقر قيادتهما فى قيادة الأحزاب .

وهكذا ازداد البلاءُ على المسلمين ، فقد ضاعف رفض سادة الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة .. ضاعف هذا الرفض من متاعب المسلمين العسكرية ، وبدد الأمل فى تخفيف الضغط عليهم ، هذا التخفيف الذى كان هو المقصود بالدعوة إلى مصالحة غطفان .

إلا أن هذا الرفض من ناحية أخرى ، أثبت للقادة المسئولين فى الجانبين – الأحزاب والمسلمين – أن هناك داخل الجيش الاسلامى الصغير، رجالاً يعدون بالآلاف ، لاتزيدهم المحن إلا قوة ، ولا البلايا إلا إيماناً وثباتاً وتمسكاً بينهم والتفافاً حوله .

فارتفعت (لهذا الموقف المتصلب) نسبة الروح المعنوية بين المؤمنين الصادقين ، وخرج قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير ، وصور أولئك الأسود الضوارى الذين جاءوا ليقولوا لقادة أقوى قوة ضاربة تبلغ نسبة رجالها إلى رجالهم (أحد عشر لواحد) وقفوا ليقولوا لقادة هذه القوة (التى تكاد تغرقهم بكتائبها الهائجة من كل مكان وقفوا ليقولوا لها (فى تحد واستخفاف) .. والله لانعطيكم ثمرة واحدة من ثمار المدينة إلا ضيافة ، فافعلوا مايحلو لكم .

موقف رائع

نعم عاد قادة غطفان من معسكر المسلمين ، وقد أدركوا حقيقة كانوا يجهلونها كل الجهل ، وهى أن الذى يصنع الانتصارات الحقيقية ويبعث

الأمن والطمأنينة فى النفوس - ساعة الروع - ليس كثرة الجيوش وقوتها ، وإنما الذى يصنع كل ذلك هو قوة العقيدة وزَخَم الإيمان بالله تعالى ، عاد قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير وهذه الكلمات تدوى فى آذانهم دوى الرعود :

« يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لايطعمون فى أن يأكلوا منا تمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا ؟؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » .

كلمة قالها سعد بن معاذ - سيد الأوس - أمام قادة غطفان ، فى ذلك الظرف الحرج الدقيق الذى بلغت فيه قلوب المسملين الحناجر من شدة الكرب وتلاحق المحن وتقاطر البلايا ، .. كلمة ماكان ليقولها (لولا الإيمان الصادق) أمام قادة تلك القوة الضاربة ، إلا الذى يملك قياد عشرين ألف مقاتل على الأقل .

ولكن محور العجب (هنا) هو أن الذى قال هذه الكلمة التى تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة والإيمان والثقة المتناهية بالنفس ليس وراءه أكثر من ثمانمائة مقاتل تقابلها فى الجانب المعادى الآخر أحد عشر ألف مقاتل ومن ورائها احتياطى لايقل عن ثلاثة آلاف مقاتل فى خيبر والمدينة .

ولعل هذه الكلمة التى قالها سعد بن معاذ للرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه بحضور قادة غطفان ، كانت من أكبر الأسباب التى جعلت قادة هذه القبائل يعيدون النظر فى مخططهم العدوانى ، فيتقلّون بشأن

المجازفة فى مقاتلة المسلمين ، فمن الجدير بالذكر أنه (بعد عودة عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرى من معسكر المسلمين وسماعهم الذى سمعوا من سعد بن معاذ) لم يكن لغطفان أى دور حربى ضد المسلمين ، حيث ظلت قوات هذه القبائل مرابطة فى معسكراتها حتى أذن القائد العام أبو سفيان بالرحيل وفكت الاحزاب الحصار عن المدنية

توتر الحالة ومضاعفة التيقظ

ومما لاجدال فيه أن التوتر بعد نقض قريظة العهد ورفض الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان – كما اقترح النبى ﷺ – قد بلغ الذروة.

وحسبانا للطوارىء التى ينتظر المسلمون حدوثها نتيجة هذه التطورات الخطيرة ، ضاعف المسلمون من يقظتهم واستعدادهم و صاروا يرهقون أنفسهم بالعمل المتواصل للدفاع عن كيانهم .

فقد وضعت قيادة المدينة المواقع الضيقة من الخندق ، المحتمل اقتحامها من جهة خيل الاحزاب – تحت المراقبة الشديدة المتواصلة ، خوفاً من أن تدفع نشوة الفرح بانضمام اليهود إلى جانب الأحزاب ، بعض شجعانهم إلى اقتحام الخندق بالخيل .

حتى إن الرسول القائد ﷺ قد رابط بنفسه حول أخطر نقطة يتوقع المسلمون اقتحامها من قبل خيل الاحزاب . كما ضاعفت القيادة النبوية من نشاط دوريات الحراسة المتجولة على طول الخندق . كما كلفوا قوة أخرى من احتياطيهم بالمرابطة خلف خطوطهم الخلفية لمراقبة اليهود والصمود فى وجههم إذا ماحاولوا الهجوم .

ولقد تضاعف الخوف واشتد الفزع وركضت القلوب بين الجُنُوب (رعباً وهلعاً) حتى بلغت الحناجر ، وأخذ المنافقون - فى تلك الليالى المخيفة التى تحالفت فيها (على المسلمين) البلايا وتقاطرت فيها ضدهم الخطوب والرزايا - أخذ هؤلاء المنافقون يتسللون (هرباً) من مواقعهم داخل صفوف الجيش الإسلامى ، تاركين هذا الجيش الصغير لمصيره فى مهب العاصفة التى تنوشه رياحها الهُوج بعنف وقسوة تنخلع لها القلوب .

ثبات العصبة المؤمنة

وظلت الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ الأبرار بجانب الرسول القائد العظيم ، صامدة ثابتة ، فى تلك الليالى الحاسمات المثقلات بالمحن والكروب ، فى انتظار ما ستتمخض عنه هذه الليالى من أحداث خطيرة مقلقة ، لايعلم مداها إلا الله ، وخاصة مايتوقعه المسلمون من هجوم تقوم به قريظة الغادرة على الجيش الإسلامى من الخلف ، كما هى الخطة المتفق عليها بين اليهود والأحزاب .

نقطة التحول في المعركة عسكرياً

وبعد نقض قريظة العهد وانضمامها إلى الاحزاب ، دخلت (فعلاً) الحرب فى مراحل أكثر جدية من ذى قبل . فقد كانت مفاجأة قيادة المدينة لقيادة الأحزاب بحفر الخندق (كخط أول للدفاع عن المدينة) صدمة عنيفة جعلت قادة الأحزاب يفقدون الأمل فى سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم فى معركة فاصلة كما هى الخطة المرسومة للمعركة والمتفق عليها من الأساس .

ولكن الأمل فى سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم فى معركة فاصلة أخذ يعود إلى نفوس قادة الأحزاب ، بعد ان تبلغوا من يهود بنى قريظة (رسمياً) انحيازهم إليهم واستعدادهم لضرب المسلمين من الخلف .

فأخذوا لذلك يضاعفون من تحفزاتهم ومحاولاتهم لاقتحام الخندق وعبوره نحو المسلمين ، وضاعفوا من دورياتهم الأستفزازية على طول الخندق لإرهاب المسلمين وتحطيم معنوياتهم تمهيداً للخطة الحاسمة التى يشنون فيها الهجوم العام المرتقب عليهم بالإشتراك مع يهود بنى قريظة

ولذلك فقد اتفق قادة قريش (أبو سفيان بن حرب ، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب الفهرى وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى هبيرة ، ونوفل بن عبد الله) اتفقوا على أن يقودوا عملية مناوشة المسلمين وإزعاجهم بأنفسهم .

فقد اتفق هؤلاء القادة على أن يكون لكل واحد منهم يوم ، يقود فيه عمليات الاستفزاز والمناوشات على طول مشارف الخندق ، فصار رجال كل قائد من هؤلاء القادة يقوم بهذه العمليات لمدة يوم وليلة دونما انقطاع.(١)

---

(١) قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى .. وكان عباد بن بشر على حرس قبة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة ، فكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدوا أبو سفيان بن حرب فى أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوماً ويغدوا ضرار بن الخطاب الفهرى يوماً ، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقدمون رماتهم فيرمون .

إلا أن هذه المناوشات الجديدة المنظمة – بسبب وجود الخندق – لم تتعد الجولان بالخيل والرمى بالنبل والقذف بالحجارة ، مما لم يكن له أى أثر حاسم يذكر فى سير المعركة .

اللغز العسكري في المعركة

واللغز العسكرى فى سير عمليات الأحزاب الحربية هو أن أحداً من المؤرخين لم يذكر أنه قد كان لقبائل غطفان النجدية – التى يشكل رجالها العمود الفقرى لهذا الغزو – أى عمل حربى بارز ضد المسلمين فى هذه الغزوة المقصود بها استئصال شأفة المسلمين وهدم الإسلام .

فقد كان من المفروض أن يشارك قادة غطفان قادة قريش فى عمليات الاستفزاز والمناوشة التى قادها أولئك القادة القرشيون بأنفسهم ضد المسلمين على مشارف الخندق ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث طيلة أيام الحصار .

وهذا يعنى بالتأكيد أن قبائل غطفان (طيلة أيام الحصار) لم تطلق سهماً واحداً ضد جيش المدينة ولم يقم أحد من رجالها بأى عمل حربى ضد المسلمين ، فكل الذين جاء ذكرهم فى كتب التاريخ أنهم قاتلوا وقاموا بمختلف العمليات الحربية ضد المسلمين طيلة أيام حصار المدينة إنما هم من قريش فقط .

ترى . ماهو السبب فى هذا وماسر هذا اللغز ؟.

قد نتمكن فى تعليقنا على المعركة فى آخر الكتاب من الوصول إلى حل هذا اللغز العجيب .

نقل المعركة إلي معسكر المسلمين

ظل الحال هكذا مدة من الزمن قصيرة - ترام بالنبل وجولان بالخيل (للإرهاب) من جانب قريش، ودوريات مستمرة منظمة تتطوف بالخندق من الجانبين - حتى تطور القتال (قليلاً) من جانب الأحزاب .

فقد قام فريق من فرسانهم الأشداء المغامرين باقتحام الخندق بخيلهم من ناحية ضيقة به ، فنقلوا المعركة (جزئياً) إلى معسكر المسلمين وراء الخندق .

فقد اقتحم عمر بن عبد ودّ العامرى وعكرمة بن أبى جهل المخزومى وضرار بن الخطاب الفهرى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ونوفل بن عبد الله .. اقتحم هؤلاء الفرسان (وكلهم من قريش) بخيلهم مضيقاً فى الخندق ، فسارع إلى ملاقاتهم ذوو النجدة والبأس من المسلمين ، فأخذوا عليهم (أولاً) الطريق الذى اجتازوه ، فقطعوا عليهم خط الرجعة ، حيث احتلوا فم المضيق الذى اقتحموه ، ثم اشتبكوا معهم فى معركة سريعة عنيفة حتى أبادوا أكثرهم ، وأجبروا الباقين على الفرار .

قال ابن إسحاق .. فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ، وعدوهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال إلا أن فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عبد ودّ ، أخو عامر بن لؤى ، وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان وضرار بن الخطاب الشاعر ، وابن مرداس أخو بنى محارب بن فهر ، تلبسوا للقتال ، حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا تهيئوا يابنى

كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان ، ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا .. والله إن هذه لمكيدة ماكنت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السبخة ، بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فى نفر معه من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم (أى تسرع) أ هـ .

مصرع فارس قريش

وكان عمر بن عبد وِدّ العامرى (وهو كبش الكتيبة) قد حضر معركة بدر الكبرى وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جرح فى المعركة ، فنذر أن لايمس رأسه دهنا حتى يقتل محمداً ، ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين ، فالتقى به على بن أبى طالب فبارزه حتى قتله .

قال ابن إسحاق .. وكان عمرو بن عبد وِدّ العامرى (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أُحداً (لأنه كان لايزال جريحاً) فلما كان يوم الخندق خرج مُعلماً ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال .. من يبارز ، فبرز إليه على بن أبى طالب أ هـ .

ولما مشى على إلى عمرو ليبارزه قال له .. ياعمرو إنك كنت تقول لايدعونى أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها ، قال له .. أجل .

فقال له .. إنى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتسلم لرب العالمين .

فقال عمرو .. يا ابن أخى أخِّره عني هذه .

قال على .. وأخرى ، ترجع إلى بلادك ، فإن يك محمد رسول الله صادقاً كنت أسعد الناس به وإن يك كاذباً كان الذى تريد .

فقال عمرو .. هذا مالا تتحدث به نساء قريش أبداً .

كيف وقد قدرت على استيفاء ما نذرت.

ثم قال عمرو .. فالثالثة ماهى ؟ .

فقال على .. البراز ..

فضحك فارس قريش عمرو – وكان فارساً مشهوراً معمراً قد جاوز الثمانين – ثم قال لعلى .. إنّ هذه الخصلة ماكنت أظن أحداً من العرب يروعنى بها .

ثم قال لعلى .. لم يابن أخى ؟ فو الله ماأحب أن أقتلك .

فقال علىّ كرم الله وجهه .. ولكنى والله أحب أن أقتلك فغضب عند ذلك عمرو غضباً شديداً .

ولما كان عمرو فارساً وعلىّ راجلاً ، إقتحم عمرو عن فرسه ، فعقره وضرب وجه[1] ثم أقبل على علىّ فتنازلا بالسيف حى قتله وأراح المسلمين من شره .

وقد جُرح على بن أبى طالب جرحاً بسيطاً فى رأسه أثناء المبارزة[2] .

---

(١) وهذا من تقاليد العرب المرعية – حتى فى الجاهلية – وهو أنه – وقت المبارزة ولكى يتم التكافؤ لابد من أن ينزل الفارس من على فرسه ليبارز خصمه راجلاً مثله .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٢٢٤ ومابعدها ..والبداية والنهاية ج٤ ص ١٠٦ ومابعدها ..والسيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٤ ومابعدها .

قال الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة .. إن عمرواً لما التقى بعلى قال له .. من أنت ؟.

قال له .. أنا علىّ .

قال .. ابن عبد مناف ؟.

فقال على .. أنا على بن أبى طالب .

فقال عمرو .. ياابنى أخى .. من أعمامك من هو أسن منك ، فإنى أكره أن أُهريق دمك .

فقال له على .. ولكنى والله لا أكره أن أُهريق دمك .

فغضب عند ذلك عمرو ، فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو علىّ مغضباً واستقبله علىٌ بدرقته فضربه عمرو فى درقته فقدّها وأثبت السيف فيها وأصاب رأسه فشجه ، وضربه علىّ على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج ، وسمع رسول الله ﷺ التكبير ، فعرف الناس أن علياً قد قتل عمرواً .

إنهزام الفرسان الفدائيين

وبعد أن تم القضاء على فارس قريش قائد رعيل [1] الفدائيين من فرسانهم (عمرو بن عبد ودّ) فر باقى أفراد الرعيل القرشى وخرجت بهم خيلهم مسرعة تسابق الريح منهزمة نحو المضيق الذى اقتحموه من الخندق.

---

(١) الفصل يطلق على مجموعة من المشاة (٣٠ - ٤٠) ، ويطلق على مثلها من الفرسان : رعيل محمود شيت خطاب .

فطاردهم بعض فرسان المسلمين ، ولحق الزبير بن العوام بنوفل ابن عبد الله فضربه بالسيف حى شقه نصفين ، ووصلت الضربة إلى كاهل الفرس .

فقيل للزبير .. يا أبا عبد الله مارأينا مثل سيفك ، فقال .. والله ماهو السيف ، ولكنه الساعد ، كما أن الزبير أيضاً طارد فارساً آخر من رعيل الفدائيين القرشيين – وهو هبيرة بن أبى وهب – فضرب ثغر فرسه فقطعه ولكنه تمكن من الفرار .

وقد حاول فارسان فدائيان من فرسان قريش الفدائيين الانتقام لقائدهم – عمرو بن عبد ود – وهما ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبى وهب، حاول هذا الفارسان الفتك بعلى بن أبى طالب ، ولكنه صمد لهما وقاتلها حتى هزمهما .

وهكذا انتهت المعركة الجانبية – التى نقلها الفدائيون القرشيون إلى حيث يرابط المسلمون وراء الخندق – انتهت هذه المعركة الجانبية بالقضاء على كل أفراد رعيل الفرسان الفدائيين ، ماعدا ثلاثة منهم تمكنوا من الفرار ، إذ اقتحموا الخندق بأفراسهم ، وهم ضرار بن الخطاب الفهرى[1]، هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، وعكرمة بن أبى جهل المخزومى ، الذى ألقى برمحه عندما فر من المعركة .

---

(١) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى القرشى ، من فرسان قريش المعدودين ، وكان من أشعرهم وكان محارباً شهيراً ، ومن أشد المحاربين على المسلمين ، كان أبوه رئيس بنى فهر ، ولم يكن فى قريش أشعر منه ، وكان يقول فى الجاهلية ، زوجت عشرة من أصحاب محمد بالحور العين ، يعنى بذلك قتلهم ، أسلم ضرار فى الفتح ، وهو الذى قال للخليفة أبى بكر .. نحن خير لقريش منكم أدخلناهم الجنة (يعنى الذين استشهدوا على أيديهم) ، =

أما المسلمون فلم يُصب أحد منهم أثناء هذه المعركة الجانبية اللهم إلا جرح بسيط أصاب على بن أبى طالب فى رأسه ، وذلك عند مبارزته لعمرو بن ودّ العامرى كما تقدم .

قريش تطلب جثة فارسها

وبعد انتهاء المعركة الجانبية بعث قادة قريش إلى النبى ﷺ ، يعرضون عليه عشرة آلاف ثمناً لجثة فارسهم (عمرو بن عبد ودّ) فأبى النبى ﷺ أن يأخذ الثمن ، وقال .. هو لكم لا نأكل ثمن الموتى .

وفى رواية الإمام أحمد (كما فى البداية والنهاية) قال النبى ﷺ . ادفعوا إليهم جيفته فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية ، فلم يقبل منهم شيئاً أهـ . وقد حملت قريش جثة فارسها إلى معسكرها .

وبهذا فشل رعيل الفدائيين من فرسان مكة فى مهمته وعاد يجر أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن قتل المسلمون أكثر أفراد هذا الرعيل .

ويظهر أن قيادة الأحزاب قررت القيام بهذه المغامرة لاختبار مدى قوة المسلمين الحربية ، ومعرفة ما إذا كان الحصار الخانق قد أثر على معنوياتهم أم لا ؟ .

= وأدخلتموهم النار (يعنى الذين قتلهم المسلمون على الشرك) ، واختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم بدر ، فمر بهم ضرار هذا فقالوا هذا شهدها وهو عالم بها ، فبعثوا إليه فتى منهم فسأله عن ذلك ، فقال .. لا أدرى ما أوسكم من خزرجكم ، ولكن زوجت يوم أحد منكم أحد عشر رجلاً من الحور العين ، يعنى أنه قتل يوم أحد هذا العدد وحده ، حضر ضرار بن الخطاب الفهرى معركة اليمامة وقتل فيها شهيداً ، انظر تفاصيل حياة ضرار فى كتاب : قادة فتح الشام ومصر .

رد فعل الهزيمة في نفوس الاحزاب

وكانت تهدف قريش – على مايظهر – من وراء قيام فرسانها بهذه المغامرة ، مواصلة القيام بمثل هذه الحركات الخاطفة – إذا ما نجحت التجربة التى قام بها الفرسان عبر الخندق – لأن قادة الأحزاب أدركوا أنه مع وجود الخندق حاجزاً بينهم وبين عدوهم ويستحيل عليهم القيام بأى هجوم شامل على مواقع المسلمين وراء الخندق ، وخاصة من ناحية المشاة الذين يشكلون الأغلبية الساحقة فى جيوش الأحزاب ولهذا قرر قادة الأحزاب الاعتماد على سلاح الفرسان ليكون هو السلاح الرئيسى فى المعركة التى كانوا ينوون نقلها إلى معسكر المسلمين ذاته ، لاسيما وأنهم على موعد مع يهود بنى قريظة ليضرب هؤلاء اليهود المسلمين من الخلف ساعة الصفر .

ولكن فشل رعيل الفرسان هذا فى المغامرة التى قام بها رجاله والتى انتهت بالقضاء على أكثرهم وفرار الباقين منهم أكدت لقادة الاحزاب أن كل هذه الزلازل والمحن والبلايا التى أحاطت بالمسلمين (على قلتهم وكثرة عدوهم) لم يكن له أى تأثير على قوتهم المعنوية وأن ذلك كله لم يزدهم إلا ثباتاً وضراوة وإيماناً وتلهفاً للاستشهاد فى سبيل الله .

توقف قريش عن مغامرات القفز بالخيل

ولهذا كفت قيادة الأحزاب عن مغامراتها الحربية ، فتوقفت عمليات قفز الفرسان الاشداء بخيلهم عبر الخندق ، فلم يستطع فرسان الأحزاب القيام بأية مغامرة من هذا النوع – بعد تلك المغامرة الفاشلة التى قتل فيها

المسلمون فارس قريش عمرو بن عبد ودّ – حتى انسحاب الأحزاب نهائياً .

ولكن الأحزاب ، إذا كانوا قد أوقفوا عمليات المغامرة عن طريق قفز الخيل عبر الخندق ، فإنهم من ناحية أُخرى قد شددوا الحصار على المسلمين وضاعفوا من عمليات الضغط عليهم ، فكأنهم أرادوا الاعتماد على حرب الأعصاب المرهقة عن طريق إرهاب المسلمين وإزعاجهم والجلب عليهم بالخيل والرجل وكل وسائل الإعنات والتخويف لعل ذلك يوهن من قوة المسلمين المعنوية التى هى السلاح الوحيد الرئيسى الذى بقى فى أيديهم أمام هذه الجيوش الهائلة الجبارة التى تطبق عليهم من كل مكان .

(وفعلاً) لقد تقاطرت البلايا (من جديد) وتضخمت متاعب الجيش الصغير القابع وراء خطوطه خلف الخندق وكأنه نقطة يابسة بيضاء وسط بحر محيط هائج أسود ، وبلغ الكرب والضيق والشدة (من جديد) بالرسول وصفوة أصحابه الأوفياء مبلغاً عظيماً لم يكن ليصمد معه ويثبت إلا من كان على مستوى محمد ﷺ وصحبه الأبرار (رضى الله عنهم) ، إيماناً وعزيمة وثقة بالله واطمئناناً بوعده .

الفقر والجوع في الجيش الاسلامي

ولقد كان المسلمون – بالإضافة إلى المتاعب والمحن والكروب التى سببها لهم هذا الحصار الخانق الرهيب – يعانون متاعب كبيرة أخرى مصدرها حالة الفقر والعوز التى كانوا عليها فى ذلك الظرف مع عوامل الطبيعة القاسية من برد قارص يلسع أجسادهم شبه العارية ، وهم

مرابطون أو يقومون بأعمال الدورية الدائمة على طول الخندق ليلاً ونهاراً ، فقد كانت تلك السنة سنة جدب وقحط بالنسبة للمسلمين ، كما أن الفصل كان فصل شتاء قارس تتخلله الرياح الهوجاء .

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ ، إلي الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى النبى ﷺ مابهم من النصب والجوع قال :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » .

كما جاء فى « البداية والنهاية » - نقلاً عن صحيح البخارى - أن المجاعة كانت منتشرة بين المسلمين أيام الاحزاب ، وأن النبى ﷺ ، كان من شدة الجوع - وقت حفر الخندق - يربط الحجر على بطنه الكريم .

وجاء فى السيرة الحلبية ج٢ ص ٩٨ .. وحصل للصحابة رضى الله عنهم تعب وجوع ، لأنه كان فى زمن عسرة وعام مجاعة ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه من النصب والجوع قال متمثلاً بقول عبد الله بن رواحة

اللهم لاخير إلا خير الآخرة   فبارك الأنصار والمهاجرة

ومع هذه المحن والبلايا التى غرق فيها المسلمون جاءت قريظة الغادرة لتنقض العهد الذى بينها وبين المسلمين وتتواطأ مع الأحزاب على ضربهم .

فازدادت حلقات المحنة استحكاماً ، وتحالفت عوامل الكرب والبلاء على المسلمين ، ولكنهم - رغم كل هذا - ظلوا صامدين فى انتظار الفرج من عند الله الذى كانوا على ثقة تامة من نصره لهم .

مصادرة قافلة للعدو

وقد استولى جيش المدينة على عشرين بعيراً كانت محملة تمراً وشعيراً وتبنا ، أرسلها اليهود لقريش مدداً وتقوية ، فصادرها المسلمون وأتوا بها إلي الرسول القائد ﷺ فخفف الله بها من ضائقة المجاعة التى كان المسلمون فيها .

وكان الذى استولى على هذه القافلة دورية مسلحة من الأنصار كان قد خرج رجالها ليدفنوا ميتاً منهم فى المدينة فصادفوا هذه القافلة ، ولما بلغ أبا سفيان خبر استيلاء جيش المدينة على قافلة التموين هذه قال .. إن حيى بن أخطب لمشؤوم قطع بنا ، مانجد مانحمل عليه إذا رجعنا (١) .

نشاط خيل المشركين

ولقد تزايد نشاط خيل المشركين ، فكانت هذه الخيل تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح ، فتخلفها أعداد أخرى طول النهار حتى الليل ، وأصحابها يطمعون فى أن يأخذوا المسلمين على حين غرة ، مما جعل البلاء يشتد والجهد ينال منهم إلى قرب درجة الإعياء .

فقد أجبرهم (فى ليالى الخندق الأخيرة) نشاط خيل المشركين المتزايد حول الخندق على السهر (طول الليل) حتى الصباح ، وذلك للقيام بأعمال الدورية لحراسة مشارف الخندق خوفاً من أن تأخذهم خيل العدو على حين غرة ..

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٧ .

وقد كان الرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه عندما اشتد ضغط خيل الأحزاب - يقوم بنفسه (ليلا) لحراسة أخطر نقطة فى الخندق يخشى المسلمون أن يأتيهم المشركون عن طريقها .

فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يرابط ليلاً على ثلمة فى الخندق لمنع العدو من اقتحامها وكان يقول ﷺ .. «ماأخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها» أهـ .

فإذا أخذته شدة البرد جاء إلى خيمته ليدفأ فيها بعض الوقت ، فإذا دفى عاد ليرابط على تلك الثلمة الخطيرة ويحرسها بنفسه .

وفى ليلة من تلك الليالى الباردة ، وبينما هو فى خيمته القريبة من الثلمة (يستدفىء) وباله على تلك الثلمة ، قال (كما روت عائشة) .. ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة .

فسمع ﷺ فى غلس الظلام ، صوت السلاح حول خيمته فقال . من هذا ؟.

فقال سعد بن أبى وقاص .. سعد يارسول الله ، أتيتك أحرسك ، فطلب منه أن يتولى تلك الليلة (بدلاً منه) المرابطة على تلك الثلمة المهمة قائلاً .. عليك هذه الثلمة فاحرسها .

فأطاع سعد أمر نبيه وسارع بمن معه من الجند ورابطوا عندها لحراستها .

وبعد أن أطمأن الرسول ﷺ إلى أن تلك النقطة الخطيرة الحساسة قد أصبحت تحت حراسة فارس يثق به ، نام (وكان متعباً من شدة السهر) نوماً هادئاً فترة من الليل حتى غط فى نومه (كما قالت عائشة) .

النبي يقوم بأعمال الدورية

وبعد أن أخذ النبى ﷺ قسطاً من النوم قام - قبل انقضاء الليل - وصلى ركعتين ثم خرج من خيمته ، واتجه نحو مشارف الخندق ليشارك فى القيام بأعمال الدورية ، وترصد العدو الذى كان لايكف عن الطواف بخيله حول الخندق طول الليل .

وأثناء قيامه ﷺ بأعمال الدورية (وكان ذلك فى الثلث الأخير من الليل) شعر بحركة خيل المشركين وهى تتحفز حول مشارف الخندق فنبه أصحابه إلى مكانها قائلاً .. هذه خيل المشركين .

ثم نادى رئيس حرسه الخاص ، وأمره بأن يراقب هو رجاله خيل العدو قائلاً .. ياعباد بن بشر ، قال : لبيك (يارسول الله) قال .. هل معك أحد ، قال : نعم أنا فى نفر حول قبتك يارسول الله .

فأمره بأن يطيف بالخندق ، وأخبره أن خيل المشركين تطيف به ، فنفذ عباد أمر قائده الأعلى وصار يطيف برجاله إزاء خيل الأحزاب أينما طافت .

خالد بن الوليد واقتحام الخندق [1]

وفى ليلة من ليالى الأحزاب العصيبة حاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين فى ناحية ضيقة منه ويأخذهم على حين غرة.

---

(١) انظر التفاصيل فى : قادة فتح العراق والجزيرة ص (٥٨ - ٥٩) .

ولكن دوريات المسلمين حالت بينه وبين مايهدف إليه ، فقد كان المسلمون أعرف من المشركين بالمناطق الضيقة من الخندق ، والتى يتوقعون أن تقتحمها خيل الأحزاب فى غلس الظلام.

ولهذا كانت هذه المناطق تحت حراسة دوريات المسلمين المستمرة اليقظة ، فعندما حاول خالد بن الوليد اقتحام ذلك المضيق من الخندق بخيله وجد نفسه أمام دورية مسلحة كبيرة من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير الأنصارى الذى كان فى مائتين من أصحابه ، فتراجع خالد بن الوليد عن اقتحام المضيق .

إلا أن خيل خالد ناوشت المسلمين تلك الليلة ، وكانت المناوشة (طبعاً) عبر الخندق بالنبال والحراب ، وقد استشهد فى تلك المناوشة الليلية ، الطفيل بن النعمان ، قتله وحشى الحبشى (قاتل حمزة يوم أحد) زرق الطفيل بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلا .

أبو سفيان يقود الخيل بنفسه

وقد بلغ نشاط خيل المشركين فى الليالى الأخيرة من الخندق حداً خطيراً ، أرهق المسلمين وأجهدهم ، فقد تولى القائد العام لجيوش الأحزاب، أبو سفيان بنفسه ، القيام بعمليات التطواف بالخيل حول الخندق - إذ قاد الفرسان بنفسه - وصار بالإشتراك مع خيل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص يتجول بخيل الأحزاب (فى أعداد كبيرة وفى استفزاز وعناد وإصرار) حول مضايق الخندق .

ويظهر أن قيادة الأحزاب إنتابها السأم والملل بعد أن ظلت جيوشها أكثر من عشرين يوماً حائرة لا تدرى ماذا تصنع حيال هذه المكيدة الحربية العظيمة (الخندق) الذى يسر للمسلمين مهمة الدفاع عن مدينتهم إلى أبعد الحدود ، فقد بقيت (طيلة هذه المدة) عشرة آلاف مقاتل من جيوش الأحزاب معطلة الحركة غير قادرة على القيام بأى عمل عسكري يذكر ضد المسلمين.

وليس أبعث على التذمر بين الجنود (وخاصة فى ذلك العصر) من تجميدهم فى معسكراتهم سيما إذا كانوا بعيدين عن أهاليهم وأوطانهم

المحاولة الأخيرة لاحتلال المدينة

ويظهر أن قيادة الأحزاب لهذا كله قد قررت (بالرغم من فشل كل المحاولات التى قامت بها للعبور ناحية المسلمين) أن تقوم بمحاولة أخيرة لإجبار المسلمين على خوض معركة فاصلة ، وكانت المحاولة هذه المرة أكبر من كل المحاولات التى سبقتها ، وكانت مسبوقة بتخطيط ودراسة اشترك فيها كبار قادة الأحزاب الذين كانوا (كقادة جيوش مسئولين) يقدرون خطورة بقاء جيوشهم الجرارة تلك معطلة الحركة فى معسكراتها بعيدة عن أوطانها وأهاليها ، لاسيما وأن المحارب البدوى الذى هو عماد جيوش الأحزاب لم يتعود إلا على الحرب السريعة الخاطفة التى لاتزيد (فى أطول أوقاته) على يوم واحد .

فقد جاء كل قادة الفرق من قريش بكل ما تحت يدهم من سلاح الفرسان إلي مشارف الخندق ، ومن ورائهم كثير من المشاة وقفوا خلفهم كاحتياطى لدعوته عند اللزوم .

تفاصيل الخطة الجديدة

وصار قادة هذه الفرق من الفرسان يجولون بخيلهم بانتظام وحسب تكتيك معين وفق خطة مرسومة ، وكانوا يديمون الجولان والتحفز حول المضايق من الخندق ، التى يتصورون أنه بإمكانهم السيطرة عليها من الجانبين عن طرق قفز الخندق بأعداد كبيرة من فرسانهم ، فى أماكن متقاربة ، بحيث يمكنهم (إذا مانجحوا فى القفز بأعداد كبيرة من الخيل) أن يقيموا الجيش من فرسانهم نقطة ارتكاز قوية على مشارف الخندق فى مناطق معينة من ناحية المدنية .

وبهذا يسيطر سلاح فرسانهم على مناطق استراتيجية من الخندق تكون تحت حراستهم من الجانبين ، ويقوم سلاح الفرسان الذى يتمكن من احتلال مناطق معينة ناحية المسلمين بالصمود فى وجه المسلمين إذا ما أرادوا إجلاءهم عن هذه المناطق .

وبتنفيذ هذه الخطة يتمكن رجال الأحزاب - تحت حراسة سلاح الفرسان المتمركزين على مشارف الخندق من ناحية المدينة - من ردم مناطق ضيقة من الخندق قد حددت ، وبردم هذه المناطق يتمكن مشاة الأحزاب (الذين يشكلون أكثرية جيوشهم) من عبور الخندق بسهولة إلى حيث يعسكر المسلمون .

وبهذا يتمكن قادة الأحزاب من التعجيل بالمعركة الفاصلة كما يريدون

فقد كان لدى قادة الأحزاب مايشبه اليقين بأن الغلبة ستكون لهم على المسلمين (وخاصة بعد انضمام يهود بنى قريظة إليهم وتهديدها للمسلمين من الخلف) إذا ما التحمت جيوشهم الضخمة الهائلة مع جيش

المدينة الصغير فى معركة فاصلة شاملة . الأمر الذى كانت تتحاشاة قيادة المدينة وتعمل على تجنبه بكل معانى الكلمة ، والذى (لكى لايحدث) قامت قيادة المدينة الحازمة الواعية بحفر الخندق ليكون عازلاً طبيعياً منيعاً يفصل بينهم وبين جيوش الأحزاب .

ومن أجل تنفيذ هذا المخطط الجديد ، تضاعف ضغط المشركين على مواقع الجيش الإسلامى وراء الخندق بصفة عامة ، وصار أبو سفيان القائد العام لجيوش الأحزاب الذى كان يكتفى بإرسال فصائل من سلاح الفرسان لمناوشة المسلمين - يشرف بنفسه على عمليات هذا الضغط ، ويقود بنفسه سلاح الفرسان الذى هو السلاح الرئيسى فى عملية الضغط والإرهاق هذه .

وهكذا - وبعد فترة من الجمود استمرت عدة أيام جند الاحزاب إمكانياتهم (كمحاولة أخيرة) لإجبار المسلمين على الاشتباك معهم فى معركة فاصلة يستأصلون فيها شأفة المسلمين .

ونتيجة لهذه المحاولة الجبارة الأخيرة من قبل الأحزاب ، بلغ الضغط على المسلمين الذروة ، فاشتد البلاء عليهم أكثر من أى وقت مضى ، وأخذ الضيق والكرب والخوف منهم كل مأخذ .

فقد أجهدتهم تنظيمات الحصار الجديدة إجهاداً شديداً مع مايعانون من شدة الجوع وقسوة البرد القارص والتخوف من أن يهجم عليهم اليهود من الخلف وهم بين براثن هذه المحنة الشديدة .

أشد ليالي الخندق

ونتيجة لتلاحق عوامل البلاء ضد المسلمين انسحبت فئات أخرى من ضعاف الإيمان من صفوف الجيش الاسلامى ، ولم يبق مع محمد فى

ليالى المصير الحالكة تلك - صامداً في وجه العاصفة - سوى قلة قليلة من صفوة أصحابه الذين قد ربطوا مصيرهم بمصيره ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن معاذ وطلحة بن عبيد الله ومن على مستوى هؤلاء شجاعة ويقيناً وإيماناً .

ولقد بلغ الضيق والجهد والكرب والخوف - حتى من هذه الصفوة لشدة ما حاق بهم - شأواً بيعداً إلى درجة أنهم في تلك اللحظات الأخيرة من محنة الغزو المرعب ، جاءوا إلي النبى القائد ﷺ وأفصحوا له بصراحة عما يعانونه من شدة الخوف والضيق والكرب .

فقد قالوا له .. يارسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر فهل من شىء نقوله ؟ قال نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا (١) .

وفى تلك اللحظات التى تعظام فيها البلاء على المسلمين جاء جبريل إلى النبى ﷺ فبشره بقرب انهزام الأحزاب ، وأن الله سيرسل عليهم ريحاً وجنودا من عنده .

وقد ذهب الرسول ﷺ ليطمأنهم وأخبرهم بما أخبره به جبريل من قرب نهاية الأحزاب ، وصار ﷺ يرفع يديه نحو السماء قائلا .. شكراً شكراً

دعاء الرسول وقت الشدة

وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ عندما تضافرت المحن وتحالفت البلايا عليه وعلى أصحابه وعندما تطورت عمليات الحصار واشتد ضغطها

---

(١) البداية والنهاية ج٤ ص ١١١ .

فى الليالى الأخيرة من الخندق ، ورأى شدة الخوف الذى عليه أصحابه دعا ربه قائلاً : اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب .. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم .. ثم قام فى الناس خطيباً ، فقال « أيها الناس لاتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وكان من دعائه يوم الخندق .. « ياصريخ المكروبين ، يامجيب المضطرين إكشف همى وغمى وكربى فإنك ترى مانزل بى وبأصحابى »

وهذا يدل على أن حالة المسلمين بلغت من التحرج - أمام محاولات الأحزاب الأخيرة المنظمة - أقصى الدرجات وأنهم صاروا فى خوف شديد وكرب عظيم لامثيل له أبداً .

قريظة تتحرش بالمسلمين

ولقد أدركت قيادة الأحزاب ما يعانيه المسلمون من شدة وضيق وكرب وخوف ، نتيجة تنظيمات الحصار الجديدة ، فشددوا من ضغطهم وضاعفوا من نشاطهم ، وأعطوا الإشارة ليهود بنى قريظة بأن يبدأوا التحرش بالمسلمين من الخلف ، فيشغلوهم ويقلقوهم بالإغارة على الحصون التى قد جمعت القيادة الاسلامية فيها النساء والذرارى عند إخلاء المدينة ، وأن يكونوا على أتم الاستعداد ليقوموا (ساعة الصفر) بالهجوم العام على مواقع المسلمين وراء الخندق .

وقد نفذ اليهود ماطلب الأحزاب منهم ، فصاروا يلقون المسلمين ويشوشون عليهم (مع ماهم فيه كرب وبلاء) وبالإغارة على الحصون والآطام التى وضع المسلمون فيها نساءهم وأطفالهم .

ولاشىء أقلق لبال الإنسان من علمه بأن زوجته وأبناءه وبناته خطر ، ومهددون بأن يسبيهم العدو ، ويأخذهم أسرى .

وهذا هو الذى قصد إليه العدو عندما أوحى إلى يهود بنى قريظة بالهجوم على الحصون والآطام التى يتحصن فيها نساء المسلمين وأطفالهم، ولقد قام اليهود (فعلاً) بالإغارة على هذه الحصون والآطام .

هجوم اليهود علي النساء

فقد قام اليهود (فى تلك الساعات الرهيبة من ليالى الأحزاب) بعدة محاولات للهجوم على تلك الحصون التى يعتصم بها النساء والأطفال .

ولما كانت الحصون (إيّاها) ليست بعيدة عن مواقع الجيش الاسلامى وراء الخندق ، فإن المسلمين لم يتركوا حرساً دائماً خاصاً يحرس هذه الحصون ، لأن دوريات المسلمين تطوف باستمرار داخل المدينة (وخاصة فى الليل) .

ولكن القيادة أوصت النساء أن يحركن السيوف فى رأس الحصن إذا ماتعرضن لخطر الهجوم من قبل العدو ، كإشارة لطلب النجدة ، ليسارع المسلمون إلى نجدتهن .

فقد روى الطبرانى عن رافع بن خديج قال : لم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة ، فجعل النبى ﷺ النساء والذرارى والصبيان فيه ، وقال : إن لم يكن أحد فألمعن بالسيف .

فجاءهن رجل (من بنى قريظة) من بنى ثعلبة بين سعد يقال له نجدان ، أحد بنى جحاش على فرس ، حتى كان فى أصل الحصن ، ثم

جعل يقول للنساء : أنزلن إلىّ خير لكن ، فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له : ظفر بن رافع ، فقال : يانجدان أبرز ، فبرز إليه ، فحمل عليه فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبى ﷺ .

محاولة اليهود الهجوم علي نساء النبي

ولم يكتف اليهود بمحاولة الهجوم علي نساء الصحابة فى الحصون ومحاولة سبيهن ، بل حاولوا الهجوم على نساء النبى القائد ﷺ وعلى من معهن من النساء فى حصن آخر ، بغية إزعاج المسلمين وإقلاقهم والتشويش عليهم ، وهم يواجهون قوات الأحزاب الرئيسية على مشارف الخندق . فقد روى البزار بإسناده عن الزبير بن العوام أن رسول الله ﷺ لما خرج للخندق جعل نساءه وعمته صفية فى أطم (حصن) يقال له (فارع) وجعل معهم حسان بن ثابت . وروى ابن إسحاق كذلك ، عن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع ، حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان بن ثابت مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم ، لايستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت ، قالت : فقلت : ياحسان ، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا

من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله ، قال : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا .

قالت صفية : فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئاً احتجزت (أى شددت وسطى) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، قالت : فلما فرغت منه ، رجعت إلى الحصن ، فقلت : ياحسان إنزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ، قال : ما لى بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب .

وفى رواية البزار التى أوردها صاحب (وفاء الوفاء) ج١ ص ٣٠٢ أن هذا اليهودى تسور الحصن حتى أشرف على نساء رسول الله ﷺ ، صفية بعد أن قتلته ، قطعت رأسه والقت به على اليهود الذين كانوا حول الحصن فراعهم ذلك فانسحبوا مذعورين ، وهم يظنون أن هناك حرساً من الجيش الإسلامى يحمون النساء ، فقد قال هؤلاء اليهود بعضهم لبعض (وهم يهربون) قد علمنا أن لم يك (أى النبى) يترك أهله خلوفاً ليس معهم أحد ، ثم تفرقوا .

وهكذا أقلق اليهود المسلمين (بتحرشهم بالنساء والذرارى) - وزادوا من متاعبهم وضاعفوا من بلائهم ، ولاشىء (كما قلنا) أشغل لبال الإنسان من أن تتعرض زوجته وأبناؤه وبناته لخطر السبى والأسر .

ولهذا اضطر المسلمون إلى أن يضاعفوا من قوات الحراسة لحماية نسائهم وأطفالهم من اليهود مما أنقص عدد قواتهم الرئيسية المرابطة على مشارف الخندق لمواجهة الأحزاب .

وشعر المشركون بالنقص الملموس فى قوات المسلمين المواجهة لهم على الخندق ، فاغتنموا الفرصة ، فأطبقوا عليهم من كل ناحية وأشغلوهم

إلى درجة الارهاق والإعياء ، والى درجة أنهم لم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها أو حتى يؤدون فيها فريضة الصلاة ، إذ أجبروهم على المرابطة (ليلا ونهاراً) على مشارف الخندق فى حالة تعبئة لايفارقهم السلاح .

فصار فرسان الأحزاب يطوفون (فى استفزاز متزايد مرعدين ومبرقين) حول الخندق ويتجمعون بأعداد كبيرة حول المضائق طيلة ساعات الليل والنهار وبصورة مزعجة مخيفة لم يسبق لها مثيل مما أجبر المسلمين على البقاء فى أسلحتهم مرابطين بصفة دائمة ليلاً ونهاراً على مشارف الخندق وخاصة النقط التى هى مظنة لأن يقتحمها سلاح فرسان الأحزاب، وضاعف المسلمون من نشاط دورياتهم التى أضناها (لقلة رجالها) الطواف المتواصل حول الخندق بصفة متعبة للغاية .

شدة الحصار تمنع المسلمين من الصلاة

وقد بلغت عملية الحراسة المتواصلة المضنية المرهقة التى يقوم بها النبى وصفوة أصحابه القلائل فى تلك الليالى الأخيرة المخيفة المرعبة ، بلغت بهم من جهد والاضناء والإشغال إلى درجة أن النبى ﷺ وبعضاً من أصحابه (الذين كانوا يتولون مراقبة وتحركات العدو وحراسة النقاط الاستراتيجية من الخندق) لم يتمكنوا من أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فى أوقاتها .

ولقد صور المقريزى فى كتابه (إمتاع الأسماع) حالة الكرب المتزايد والشدة المتناهية التى كان عليها المسلمون فى تلك الليالى الرهيبة الحاسمة فقال :

« وافى المشركون سحراً ، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوى من الليل ، وما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم ، وماقدر رسول الله ﷺ على صلاة ظهر ولاعصر ولامغرب ولاعشاء ، فجعل أصحابه يقولون : يارسول الله ماصلينا ؟ فيقول : ولا أنا والله ماصليت ! حتى كشف الله المشركين ورجع كل من الفريقين إلى منزله .

وقام أسيد بن حضير [1] فى مائتين على شفير الخندق فكرت خيل المشركين يطلبون غرة (وعليها خالد بن الوليد)[2] فناوشهم ساعة ، فزرق وحشى (قاتل حمزة بن عبد المطلب الطفيل بن النعمان بن خنساء الأنصارى بمزراق ، فقتله – كما قتل حمزة رضى الله عنه بأحد .

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية – عن موسى بن عقبة « وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم فى مثل الحصن من كتائبهم ، فحاصروهم قريباً من عشرين ليلة وأخذوا بكل ناحية » .

الهجوم علي مقر قيادة الرسول

ثم قال بن كثير – يصف محاولة خيل المشركين على مقر القائد الأعلى ﷺ : « ووجهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فقاتلوهم يوماً إلى الليل .

---

(١) أسيد بن حضير ، زعيم من زعماء الأنصار وفارس من فرسانهم ، انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى)

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

فلما حانت صلاة العصر ، دنت الكتيبة ، فلم يقدر النبى ﷺ ، ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة على نحو ماأرادوا ، فانكفأت الكتيبة مع الليل ، قال فزعموا أن رسول الله ﷺ قال .. شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم وقبورهم ناراً .

فلما اشتد البلاء نافق كثير من الناس وتكلموا بكلام قبيح ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بالناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول .. والذى نفسى بيده ليفرجن عنكم ماترون من الشدة ، وإنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً وأن يدفع الله إلىّ مفاتيح الكعبة وليهلكن الله كسرى وقيصر ولتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وجاء فى رواية البخارى : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش وقال .. يارسول الله ماكدت أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبى ﷺ .. والله ماصليتها ، فنزلنا مع رسول الله ﷺ بطحان - بضم الباء - وتوطأنا للصلاة وفتوطأ لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب .

وفى مسند الإمام احمد عن ابن عباس قال .. قاتل النبى ﷺ العدو فلم يفرغ منهم حتى أخر العصر عن وقتها فلما رأى ذلك قال .. اللهم من حبسنا عن الصلاة الوسطى فاملأ بيوتهم ناراً واملأ قلوبهم ناراً .

وفى مسند الإمام أحمد (أيضاً) عن ابن مسعود ، أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ يوم الخندق عن أربع صلوات حتى ذهب من الليل ماشاء الله ، قال .. فأمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء .

وقفة فقهية

وقد استدل كثير من أئمة الإسلام – ومنهم الإمام الأوزاعى ومكحول – بهذا الصنيع الذى صنع رسول الله ﷺ على جواز تأخير الصلوات عن أوقاتها لعذر القتال ، إلا أن آخرين – ومنهم الإمام الشافعى) قالوا : إن ذلك قد نسخ بما أنزل الله تعالى فى صلاة الخوف ، والذى به أباح للمحارب أن يصلى – أثناء القتال – كيفما اتفق له بشرط أن لا يؤثر ذلك فى سير القتال لصالح العدو .

وقد أبى كثير من العلماء المحققين التسليم بالنسخ لأن صلاة الخوف قد شرعت قبل معركة الخندق ، حيث صلاها المسلمون فى غزوة (ذات الرقاع) وفى عُسفان ، وهما غزوتان قام بهما المسلمون بقيادة النبى ﷺ قبل غزوة الخندق .

وقد تردد الإمام ابن كثير – وهو من كبار فقهاء الشافعية – فى قبول القول بالنسخ قائلاً .. وهو (أى القول بالنسخ) مشكل ثم قال .. قال ابن إسحاق .. وجماعة ذهبوا ، إلى أن النبى ﷺ صلى صلاة الخوف بعسفان ، وقد ذكرها ابن إسحاق (وهو إمام المغازى) قبل الخندق وكذلك ذات الرقاع ، ذكرها قبل الخندق ، فالله أعلم .

درجة الإنهيار

وبعد حوالى اثنين وعشرين ليلة من الحصار الخانق الشديد بلغت حالة المسلمين المحصورين من الخطورة إلى درجة ليس بعدها إلا الإنهيار .

فكل شىء كان – فى تلك الساعات – يوحى بالإنهيار الكلى داخل صفوف الجيش الصغير الغارق فى خضم كتائب الأحزاب الهائجة التى

تحيط به من كل جانب .. ويشعر بأن المسلمين هم قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام لعدوهم الجبار المحاصر بدون قيد ولاشرط (لولا الإيمان الذى حصنهم الله به وجعله أقوى سلاح يواجهون به عدوهم الذى يفوقهم فى كل شيء مادى أضعافاً مضاعفة) .

ليالى الرعب المخيفة

فقد ارتفع ضغط عوامل البلاء والكرب ضد الجيش الصغير المحصور إلي درجة لم يكن لبشر أن يتحملها .

قريش وأحلافها بقواتهم العديدة الجبارة الغامرة المجهزة أحسن تجهيز تكاد (لكثرتها وقلتهم) يبتلعهم خضم جيشها الهائج المتحفز حولهم فى كل مكان .

ويهود بنى قريظة الغادرين الخونة يتحفزون ويستعدون (فى نشوة وفرح) لانقضاض على جيش المدينة الصغير الرابض فى خوف وقلق وراء استحكاماته الدفاعية خلف الخندق .

وعوامل الطبيعة التى أبى الله إلا أن تكون (فى تلك الليالى الفاصلة) على هذا الجيش الصغير الممتحن قاسية مزعجة ، البرد القارص الشديد والجوع المضنى والنقص المخيف فى الألبسة الواقية من البرد القاتل ، والريح الهائجة ذات الصفير المزعج فى الظلام الدامس .. والمنافقون يتسللون (لواذاً) من صفوف الجيش المحصور الممتحن ، ويثيرون بأراجيفهم الخوف والفزع فى النفوس تاركين محمداً ﷺ وصفوة أصحابه الأوفياء القلائل فى مهب العاصفة .

ليالي الخندق الأخيرة

حقاً ، لقد كانت تلك الليالى الأخيرة الحاسمة من ليالى الأحزاب الرهيبة مختبراً صهر الله (فى بوتقة محنها وبلاياها) أمة محمد مرة أخرى ليعلم (وهو الأعلم بعباده) الصادق من الكاذب ويميز الخبيث من الطيب .

وفعلاً لم يثبت مع نبيه فى خضم تلك البلايا المتلاحقة والمحن المتحالفة التي أخذ بعضها برقاب بعض ، إلا ذوو الإيمان الراسخ رسوخ شوامخ الجبال ، والذى لايزعزعه شىء مهما عظم ، حتى إن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يبق فى الليالى الأخيرة من ليالى الخندق الحاسمة مع النبى القائد ﷺ إلا حوالى ثلاثمائة مقاتل فقط ، وماذا عسى أن يفعل ثلاثمائة رجل (ينقصهم كل شىء مادى إلا الإيمان أمام أحد عشر ألف مقاتل يفوقونهم فى كل شىء مادى ؟.

حذيفة يصف ليالي الكرب والشدة

ولنترك أحد الأعلام من صحابة محمد ﷺ الأوفياء الخلصاء الذين ثبتوا معه فى تلك الليالى الرهيبة الحاسمة ليصف لنا ما تعرض له محمد ﷺ والصفوة من أصحابه فى الليلة الأخيرة من ليالى الأحزاب المرعبة المخيفة ، من محن وبلايا تعجز عن تحمل مثلها الشم الرواسى .

روى الحاكم والبيهقى من حديث عكرمة بن عمار ، قال : ذكر حذيفة بن اليمان [١] مشاهدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه (أى حذيفة) ..

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا .

فقال حذيفة .. لاتمنّوا ذلك ، ثم قال .. لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا.

وما أتت علينا لية قط ، أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها، في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة مايرى أحدنا إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة ، وماهي بعورة .

فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ونحن (في ثلاثمائة) أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى وماعليّ جُنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لأمرأتي مايجوز ركبتي .

قال (أي حذيفة) فأتاني (أي رسول الله) ﷺ وأنا جاث على ركبتي فقال .. من هذا ؟ حذيفة ؟ .

فقلت .. حذيفة ، فتقاصرت للأرض فقلت .. بلى يارسول الله ، كراهية أن أقوم فقمت .

فقال ﷺ : إنه كائن في القوم خبر ، فأتني بخبر القوم (١) .

وفي رواية ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي ، قال .. قال رجل من أهل الكوفة الحذيفة بن اليمان .. يا أبا عبد الله ، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟.

---

(١) البداية والنهاية ج٤ ص ١١٤.

قال .. نعم ياابن أخى .

قال .. فكيف كنتم تصنعون ؟.

قال حذيفة .. قد كنا نجتهد .

قال ذلك الرجل « هو تابعى لم يدرك النبى ﷺ » .. والله لو أدركناه ماتركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا ، قال .. فقال حذيفة .. يا ابن أخى لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا ، فقال .. من ينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع - فشرط له الرجعة - (ثم قال رسول الله ﷺ) .

أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة .

قال حذيفة .. فما قام رجل منا من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد فلما لم يقم أحد ، دعانى ، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى .

فقال .. ياحذيفة إذهب فادخل فى القوم فانظر ولا تحدثنى شيئاً حتى تأتينا الخ . وقد استجاب حذيفة لرغبة نبيه القائد ﷺ وذهب إلى معسكر المشركين واطلع على حقيقة الموقف بينهم كما سنفصله فيما يأتى من هذا الكتاب فى موضعه إن شاء الله .

الفصــل الرابع

* التحول المفاجئ الخطير في الموقف الحربي لصالح المسلمين .
* الاختلاف الشديد بين اليهود والأحزاب .
* الرجل الذي بدهائه غير مجري الأحداث لصالح المسلمين .
* انهيار الاتحاد القائم بين الأحزاب واليهود .
* فك الحصار عن المدينة وانسحاب الأحزاب إلي بلادهم .
* انتهاء المعركة .

ذكرنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب كيف أن الكرب والضيق والخوف قد بلغ بالمسلمين إلى درجة الاختناق (وبلغت القلوب الحناجر) وأن كل شىء مادى كان يوحى (على نحو ساحق) بأن المسلمين كانوا (أمام ذلك الحصار الخانق الرهيب) قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام بدون قيد أو شرط لقوات الأحزاب الضاربة المحاصرة .

وأن الصفوة المختارة من صحابة محمد (على متانة إيمانهم وشدة يقينهم) قد وقفوا - أمام تلك البلايا المتلاحقة والرزايا المتشابكة والزلازل المتواصلة - حائرين لايدرون كيف المخرج من تلك الورطة القاتلة

المستحكمة ، وأنهم قد أبلغوا الرسول القائد ﷺ مايشعرون به من ضيق وخوف وقلق لعل هناك مايقولونه مما يمكن أن يخفف عنهم من شدة الكرب والخوف والضيق والقلق .

يارسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله [1]

التحول الخطير في الموقف

وهكذا وبينما وقف صفوة أصحاب محمد (بعد أكثر من عشرين ليلة كلها مشحونة بالمحن والبلايا والخطوب والرزايا) ، نعم بينما وقفت هذه الصفوة المختارة تنظر (فى قلق وخوف متزايد) إلى ميزان المصير ، وشوكته تهتز على الصفر تنذر بالميل نحو نهايتهم المفزعة ، إذ برجل واحد يهديه الله للإسلام فى تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام .

ثم يسخر الله مواهب هذا الرجل الألمعى فى الذكاء والدهاء ليغير (بخدعة سياسية بارعة) مجرى الأحداث الخطيرة ، فيقلب موازين القوى لصالح القلة المؤمنة الصابرة الثابتة فى مهب العاصفة ، فتحدث المعجزة ، فيهزم الله الأحزاب ويكتب النصر المؤزر للمسلمين .

فقد فعل دهاء الرجل بقيادات الاحزاب وجيوشها أكثر مما تفعله الجيوش الجرارة .

فكان صنيع هذا الداهية العظيم من أكبر العوامل التى أدت إلى تشتيت قوى الاحزاب وعودة الغزاة خائبين متنافرين إلى ديارهم دون أن يحققوا شيئاً من أهدافهم .

---

(١) البداية والنهاية ج٤ ص ١١١ .

فبمجهود هذا الرجل ومكره السياسى وإخلاصه لدينه الذى لم يمض فى دخوله فيه أكثر من أربع وعشرين ساعة تمكن من إشاعة الفرقة بين فئات الأحزاب ويهود بنى قريظة .

فبذر (بمهارة فائقة) بنور الشك والريبة فى نفوس قادة الأحزاب واليهود بعضهم ضد بعض حتى انعدمت الثقة بين هؤلاء الزعماء والقادة فتصدعت جبهاتهم وتفتتت وحدتهم مما جعل قادة قريش وغطفان يحنقون على اليهود ويفكون الحصار عن المدينة ، كل منهم عائد إلى بلاده، تاركين يهود بنى قريظة الناكثين الغادرين لمصيرهم المحتوم الذى انتهى بإبادتهم .

الرجل الذي غير مجري الاحداث

وهذا الرجل الذى شاء الله أن تتحطم على يديه وحدة الأحزاب الغازية المعتدية هو (نعيم بن مسعود) وهو من قبيلة غطفان النجدية التى يمثل رجالها أكبر أجنحة الاتحاد القرشى الغطفانى اليهودى العسكرى ، الذى جاء لاحتلال المدينة وسحق المسلمين فيها .

فقد كان نعيم بن مسعود هذا من وجوه القوم والشخصيات البارزة المشهورة فى المحيط العربى واليهودى ، وكان من كبار المستشارين فى قيادة جيش الاتحاد العربى الوثنى اليهودى الغازى .

ولكن لحكمة أرادها الله (فى الليلة التى تلتها ليلة الأحزاب الاخيرة) فتح الله قلب هذا الرجل للإسلام وهو فى معسكر الأحزاب .

نعيم بن مسعود في المعسكر النبوي

وعندما أشرق قلبه بنور الاسلام كتم الأمر فى نفسه ، ثم انسل من معسكر الأحزاب أمام الخندق واتجه على غلس الظلام نحو معسكر الرسول ﷺ حيث يرابط بجنده وراء الخندق.

وهناك تشرف بمقابلة الرسول الأعظم ﷺ فى مقر قيادته وأبلغه (سراً) أن الله قد هداه للإسلام ، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت تصرفه وأنه على أتم الاستعداد للقيام بأى عمل يأمره به ﷺ .

فقد قال نعيم بن مسعود .. يارسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ، وهنا قال له الرسول القائد ﷺ .. أت رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة [1] وبعد أن أعطى النبى ﷺ نعيماً مطلق الحرية ليعمل (قدر طاقته) أى شىء من شأنه أن يحدث الفرقة والانقسام والتخذيل داخل صفوف الأحزاب ، توجه (فوراً) إلى ديار بنى قريظة الذين عقد نقضهم (العهد) الموقف ، وضاعف من عوامل الكرب والبلاء على المسلمين .

داهية الخندق عند بني قريظة

كان نعيم بن مسعود من الشخصيات المألوفة المعروفة بين بنى قريظة وكان نديماً لهم فى الجاهلية وصديقاً ، وهو الذى تحدث فى الجاهلية فى

(١) وجاء فى السيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٩ أن نعيم بن مسعود قال : يارسول الله إنى أقول (أى مايقتضيه الحال) وإن كان خلاف الواقع ، قال .. قل مابدا لك فأنت فى حل ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديماً ، قال : فلما رأونى رحبوا بى وعرضوا على الطعام والشراب ، فقلت : انى لم آت لشىء من هذا ، إنما جئتكم تخوفاً عليكم لأشير عليكم برأى ثم أورد الكلام الذى أوردناه فى صلب هذا الكتاب .

حانة من حانات اليهو فى المدينة (قبل تحريم الخمر) وهو سكران عن قافلة لكفار مكة سلكت طريق العراق إلى الشام ، وكان فى الحانة أحد الصحابة من استخبارات الجيش الإسلامى ، فسارع بنقل الخبر إلى النبى القائد ﷺ فجهز حملة عسكرية أعطى قيادتها لزيد بن حارثة ، وأمره باعتراض هذه القافلة عند عودتها من الشام ، وقد نجح زيد بن حارثة فى الاستيلاء علي هذه القافلة وذلك فى الغزوة المسماة (بسرية زيد بن حارثة)(١) .

كيف انخدعت قريظة بداهية الخندق

ولما وصل نعيم بن مسعود إلى حصون بنى قريظة (وهم لم يعلموا بإسلامه) بدأ فى حياكة خيوط الخدعة الكبيرة التى أدى نجاحها إلى تشتيت شمل الأحزاب وانهزامهم وتخليص المسلمين من ذلك الكرب العظيم .

فقد قال نعيم .. يابنى قريظة قد عرفتم ودّى إياكم وخاصة ، مابينى وبينكم ، فلم ينكروا ذلك بل أيدوه قائلين .. صدقت لست عندنا بمتهم .

وهنا بدأ فى تنفيذ مااعتزم تنفيذه من خطة بذر بذور الفرقة والشك وعدم الثقة بين اليهود وبين جيوش الأحزاب ليتسنى له نسف مابينهم من عهد وتحالف .

---

(١) انظر تفاصيل هذه السرية فى كتابنا (غزوة أحد) .

فقد جمع زعماء بنى قريظة (وكلهم يعرفه ويثق به) وقال لهم – كواحد منهم يحرص على مصلحتهم – إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره .

وأن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم ..

فإن رأوا نهزة (أى فرصة) أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم .

ثم استمر نعيم يشحن نفوس هؤلاء اليهود بالخوف والشك قائلاً .. ولاطاقة لكم به (أى النبى) إن خلا بكم .

ثم ضرب ضربته الأخيرة التى أصابت الهدف فى الصميم قائلاً .. فلا تقاتلوا مع القوم (أى الأحزاب) –حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم (سبعين رجلاً) يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه .

ويظهر أن قريظة الغادرة قد بدأ الخوف والفزع ينتابها وبدأت تشعر بالحاجة الماسة إلى ضمانات تحميها من أن ينزل بها عقاب الخيانة الصارم الذى بدأ شبحه المخيف يقلق بالها .

ولهذا فقد وقع نعيم بن مسعود من نفوس زعماء بنى قريظة موقع الرضى والقبول ، فشكر اليهود لنعيم بن مسعود مسعاه عندما تقدم إليهم بتلك النصيحة قائلين .. لقد أشرت بالرأى ، وقرروا التمسك بما أشار به عليهم .

نعيم الداهية في قيادة الأحزاب

وبعد أن تأكد داهية الخندق (نعيم بن مسعود) من نجاح المرحلة الأولى من الخطة التى رسمها لنسف التحالف الوثنى اليهودى ، وتأكد لديه أن يهود بنى قريظة قد انخدعوا بما قاله لهم ، ولم يشكوا فى أنه ناصح أمين لهم ، توجه (فوراً) إلى القيادة المشتركة فى معسكر الأحزاب أمام الخندق ليكمل المرحلة الاخيرة من الخطة التى رسمها لتفريق كلمة الأحزاب وإشاعة الفرقة والتخاصم بينهم وبين يهود بنى قريظة .

ولما وصل نعيم إلى مقر القيادة المشتركة للأحزاب ، طلب الاجتماع (أولاً وعلى انفراد) بالقائد العام لجيوش الاحزاب أبى سفيان وهيئة أركان حربه من القرشيين .

وحينما اجتمع بهم (وهم طبعاً لا يعلمون إسلامه) أخبرهم بأنه ماجاء إلا لأمر جلل ، يتعلق بسلامتهم وسلامة جيوشهم ، وأن حبه لهم وحرصه على سلامتهم وسمعة جيوشهم رأى أنه لزاماً عليه أن يخبرهم بأمر خطير علمه قبل حلفائهم يهود بنى قريظة .

فقد قال لأبى سفيان وهيئة أركان حربه من القرشيين .. قد عرفتم ودّى لكم وعداوتى لمحمد ..

فلم ينكروا عليه هذا القول لأنهم كانوا يعرفونه مشركاً لايدين بالإسلام ، ومن وجوه الاحزاب الذين شاركوا فى ضرب الحصار على المدينة ومناوشة المسلمين .

فلما رأى الثقة به بادية عليهم ، نقل إليهم - كالناصح المخلص ما اعتزمت قريظة اليهود من طلب الرهائن منهم لتطمئن إلى أنهم لن يفكوا الحصار عن المدينة حتى يتم القضاء على المسلمين ، وأضاف إلى هذا

الخبر (زيادة من عنده) أن اليهود ندموا على نكثهم العهد الذى بينهم وبين محمد وأنهم لن يطلبوا الرهائن السبعين منهم إلا ليسلموهم للنبى ﷺ ليقتلهم كترضية له وتكفيراً عن نقضهم العهد وكدليل على ولائهم للمسلمين من جديد ، فكان هذا من أحكم خطط الدس والوقيعة لتفريق كلمة العدو .

فقد قال نعيم بن مسعود لقادة قريش .. إنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىَّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، ولكن فاكتموا عنى .. قالوا .. نفعل .

فقال لهم .. تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوه فيما بينهم وبين محمد (يعنى ماقاموا به من نقض العهد) وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على مافعلنا - ثم أبلغوه استعدادهم لوضع يدهم فى يده من جديد وأنهم مستعدون ليكونوا معه على الأحزاب وأنهم لكى يبرهنوا له على صدق ماذكروا قالوا له - .. فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم ، وأنه (أى محمداً) قد أرسل إليهم بالموافقة قائلاً .. أن نعم .

ثم قال نعيم لقادة قريش ناصحاً .. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

انخداع الأحزاب بداهية الخندق

وبعد أن ترك هذا الداهية العظيم رضى الله عنه نفوس القادة القرشيين نهباً لنوازع الشك والريبة والحقد على حلفائهم الجــدد بنى

قريظة ، توجه فوراً إلى قومه (غطفان) ، وفى معسكر هذه القبيلة العظيمة طلب (على انفراد) بزعمائها وقادتها (عيينة بن حصن الفزارى طليحة بن خويلد الأسدى والحارث بن عوف المرّى) ، وعندما اجتمع بهم ، قال لهم .

يامعشر غطفان : إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ولا أراكم تتهمونى .

قالوا .. صدقت مأأنت عندنا بمتهم .

فأبلغهم أن لديه خبراً خطيراً يتعلق بسلامتهم .. قائلاً فاكتموا عنى.

قالوا .. نفعل .

فقال لهم مثل الذى قال لقادة قريش بشأن ماعزم عليه اليهود من طلب الرهائن منهم ، وحذرهم – كما حذر قادة قريش – من أن يجيبوا قريظة إلى ماطلبوا من تسليم الرهائن .

فشكروا له صنيعه وأكدوا له أنهم لن يسلموا لقريظة رهينة ولا رجلاً واحداً .

وهكذا نجح نعيم بن مسعود فى حبك خديعته الكبرى نجاحاً كاملاً .

وفد الأحزاب إلي بني قريظة

فقد اهتم أركان القيادة المشتركة من الاحزاب (قريش وغطفان) لهذه الأنباء التى نقلها نعيم بن مسعود(الذى ماكانوا يشكون لحظة بأنه

على دينهم) اهتماماً بالغاً وانزعجوا لها انزعاجاً كبيراً ، بعد أن وقع في نفوسهم صدق مانقل إليهم نُعيم بن مسعود ، فباتوا بشر ليلة من القلق وقد امتلأوا حنقاً وغيظاً على بنى قريظة .

وبهذا نجح هذا الداهية العظيم فى وضع مواد التفجير فى المواقع الحساسة من صرح التحالف بين الأحزاب وبين يهود بنى قريظة حتى نسفه نسفاً كاملاً .

فبعد أن وصل الصحابى الألمعى نعيم بن مسعود إلى هذه الدرجة من شحن نفوس الفريقين (اليهود والأحزاب) بما لامزيد عليه من الشك والريبة وعدم الثقة فى بعضهم البعض اتفقت قيادة الأحزاب المشتركة (وكان ذلك مساء يوم الجمعة) على أن تبعث إلى بنى قريظة وفداً من قادتها وزعمائها ليتصل ببنى قريظة موضوع الأنباء التى نقلها نعيم بن مسعود.

ولكى يصلوا إلى الحقيقة ويعرفوها (بطريق غير مباشر) كلفوا وفدهم بأن يطلب من اليهود الاستعداد للدخول فى المعركة مع المسلمين أن يبلغهم أن صباح يوم السبت هو الوقت المحدد للهجوم العام على المسلمين.

(وفعلاً) توجه وفد الأحزاب إلى منازل بنى قريظة تلك الليلة فى جنح الظلام ، وقد تسلل رجال الوفد هذا (سراً) إلى منازل بنى قريظة الواقعة خلف خطوط المسلمين ، وذلك خوفاً من دوريات المسلمين التى كانت تطوف حول المدينة طول الليل .

الأحزاب تطلب الهجوم وقريظة تطلب الرهائن

ولما وصل وفد الاحزاب إلى حصون بنى قريظة لمس (لأول وهلة) الفتور بادياً على زعماء هؤلاء اليهود ، ولكن هذا الوفد أبلغ بنى قريظة (باسم القيادة المشتركة للاحزاب) رغبة هذه القيادة فى القيام بالهجوم العام الخاطف على المسلمين كما هو المتفق عليه (أصلاً) بين الفريقين وطلبوا منهم الاستعداد لذلك قائلين :

(يابنى قريظة) إنا لسنا بدار مقام ، لقد هلك الخُف والحافر[1] فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، ولم يشأ زعماءُ اليهود أن يصدموا أعضاء وفد الاحزاب بإعلان رفضهم الهجوم على المسلمين إلا بعد أخذ الرهائن منهم (لأول وهلة) بل تدرجوا فى ذلك حتى أعلنوه أخيراً .

فقد كان جوابهم على طلب الاشتراك فى الهجوم على المسلمين (صباح يوم السبت) هو اعتذارهم عن القتال فى هذا اليوم بحجة أنهم (حسب تعاليم دينهم) لايعملون فى يوم السبت شيئاً مهما كان تافهاً فكيف بالحرب .

فقد قالوا لوفد الاحزاب .. نحن لانقاتل يوم السبت ، وقد علمتم مازال منا من تعدّى فى السبت ، وكان قد أحدث فيه (أى السبت) حدثاً فأصابه مالم يخف عليكم .

ثم أفصحوا عن مخاوفهم من أن ينسحب الاحزاب قبل القضاء على المسلمين واستئصال شأفتهم – هذه المخاوف المستحكمة التى جاءت نتيجة

---

(١) يعبر العرب (عادة) عن الجمال بالخف ، وعن الخيل بالحافر .

تدبير نعيم بن مسعود المحكم – أفصح هؤلاء اليهود لوفد القيادة المشتركة فى الأحزاب بقولهم : ولسنا – مع ذلك – بالذى يقاتل معكم محمداً فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا عنا إلى بلادكم وتتركونا والرجل (يعنى النبى ﷺ) فى بلادنا ولاطاقة لنا بذلك منه.

ظهور الخلاف بين الأحزاب واليهود

وبعد أن سمع وفد قيادة الأحزاب هذا الجواب من حلفائهم اليهود لم يجر معهم أية مناقشة ، بل عاد أدراجه إلى مقر القيادة المشتركة وأخبر قادة الأحزاب بما سمع من جواب من يهود بنى قريظة .

وهنا لم يبق أى شك لدى هذه القيادة فى صدق ماقاله لهم نعيم ابن مسعود من أن هؤلاء اليهود قد بيتوا الغدر بهم وأنهم لم يطلبوا الرهائن منهم إلا ليسلموهم للنبى ﷺ لضرب أعناقهم كدليل على ولائهم للمسلمين وتكفيراً عن جريمة نقض العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ .

فقد قال قادة الأحزاب بعضهم لبعض (بصوت واحد) .. والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق .

وهنا تحول الشك فى نفوس الأحزاب إلى يقين بأن يهود بنى قريظة قد غدروا بهم واتفقوا مع المسلمين عليهم وأنهم (لاشك) مسلموا رهائنهم للنبى ﷺ إذا استلموهم منهم .

الاحزاب يرفضون إعطاء الرهائن

لذلك فاضت نفوس قادة الأحزاب بالغيظ والنقمة على اليهود فأرسلوا إليهم (فى الحال) وفداً آخر ليبلغهم رفض ماطلبوا من رهائن ويطلب منهم تنفيذ الاتفاقية بالهجوم على المسلمين ، إن أرادوا .

وقد أسرع الوفد بالذهاب ثانية إلى ديار بنى قريظة ، وأبلغهم (باسم قيادة الأحزاب المشتركة) رفض ماطلبوا من تسليم الرهائن – وأن هذا الطلب هو دليل عدم الثقة وطعن فى شرف كلمة قيادة الأحزاب التى أعطوها لليهود – فقد قال الوفد لزعماء بنى قريظة .. (وعلى لسان قيادة الاحزاب المشتركة) .. إنا والله لاندفع إليكم من رجالنا رجلاً واحداً ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

ولدى سماع زعماء قريظة هذا الجواب من قيادة الاحزاب المشتركة لم يبق لدى هؤلاء اليهود أى شك فى صدق ما أشار به عليهم (نديمهم السابق) نعيم بن مسعود بشأن قريش وغطفان ، فقد قال بعضهم لبعض:

« إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، مايريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل .

وعلى أساس هذا الاعتقاد ، أرسلت قريظة إلى قيادة الاحزاب المشتركة مبعوثاً ليبلغهم (فى إصرار) بأن هؤلاء اليهود لن يشتركوا فى أى هجوم على الجيش الإسلامى إلا إذ أعطتهم قيادة الأحزاب الضمانات الكافية التى تضمن عدم انسحابهم إلا بعد القضاء على المسلمين قضاء تاماً .

فقد قال مبعوث قريظة - على لسانها - لقادة الأحزاب .. إنا والله مانقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً .

وبالطبع رفضت قيادة الأحزاب (مرة أخرى) طلب اليهود احتجاز الرهائن من الاحزاب .

شيطان بني النضير يحاول رأب الصدع

ولقد حاول زعيم يهود بنى النضير ورأس الفتنة (حيى بن أخطب) إنقاذ الموقف المتدهور بين الأحزاب وبنى قريظة ، فذهب إلى يهود بنى قريظة محاولاً إقناعهم بالإشتراك فى الهجوم على المسلمين ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ، فقد أصر بنو قريظة على موقفهم المتشدد قائلين لحيى بن أخطب :

« والله لانقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهناً عندنا » (١).

وبهذا تم إحكام آخر فصل من فصول الخدعة الكبرى التى نسج خيوطها الداهية العظيم نعيم بن مسعود فاستحكمت حلقات الأزمة بين اليهود وقيادة الأحزاب وأصبح من المستحيل التوفيق بينهما ، وبدأ المسلمون يتنفسون الصعداء .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد الكبرى ج٢ ص ٦٩ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ١١١ والسيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٨ ومابعدها وسيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٢٩ والكامل لابن الأثير ج٢ ص ١٢٥ وجوامع السيرة لابن حزم ص ١٩٠ ومابعدها .

بنو قريظة يفاوضون النبي في الصلح

ونقل البيهقى فى (الدلائل) عن موسى بن عقبة أن اليهود لما تفاقم الخلاف بينهم وبين قيادة الأحزاب ، ورفضت هذه القيادة إعطاء اليهود الرهائن الذين طلبوا ، إتصلوا بالنبى ﷺ يطلبون الصلح على أن يسمح النبى ﷺ بعودة إخوانهم بنى النضير إلى المدينة ، ولكن هذا الطلب رفض من قبل النبى ﷺ .

وعلى كل حال فإن الشقاق قد حصل بين الأحزاب وحلفائهم الجدد (يهود بنى قريظة) ، وظن بعضهم ببعض سوءاً ، ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين (اليهود والأحزاب) إلى درجة أصبح الحلف العسكرى المعقود بينهما فى حكم المنتهى ، وصار كل منهما يحمل الأخر مسؤلية انفصام عرى هذا الحلف.

إنهيار الاتحاد الوثني اليهودي

وعندما وصل الخلاف والتنافر الى هذه الدرجة ، فكرت القيادة المشتركة للأحزاب فى إنهاء الحصار المضروب على المدينة والرجوع بجيوشها كل إلى بلاده ، وترك اليهود وشأنهم ، ليلقوا مصيرهم الرهيب ، لاسيما وأن التذمر والاستياء أخذ يظهر فى معسكر الأحزاب الذى ظل جنوده (وهم أكثر من عشرة آلاف) قرابة ثلاثين يوماً معوقين مجمدين أمام الخندق لايستطعون القيام بأى عمل عسكرى حاسم ضد المسلمين وهذا مما يبعث السأم والضيق فى نفوس هؤلاء القوم الذين لم يألفوا طيلة حياتهم (فى الحروب) التجميد والمرابطة أمام المدن ، وإنما ألفوا الحروب

الخاطفة والغارات السريعة التى لاتستغرق عملية القيام بها سوى يوم أو بعض يوم .

يضاف إليها أنه فى الوقت الذى استحكم الخلاف فيه بين اليهود والأحزاب هبت على المنطقة التى يعسكر فيها الأحزاب رياح هوج كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهدم الأبنية وتكفأ القدور ولاتترك ناراً تشتعل .

أبو سفيان يأمر بالانسحاب

فأزعجهم هذا الوضع إلي حد سارع معه القائد العام أبو سفيان ابن حرب – بعد التشاور مع بقية القيادة المشتركة – إلى إصدار الاوامر إلى جنود الأحزاب بالانسحاب أن يعود كل منهم إلى دياره ، وشرح لهم الأسباب التى ليسوا بحاجة إلى شرحها – والتى منها – وقد يكون أهمها – اعتقاد الاحزاب أن اليهود قد تصالحوا مع المسلمين وغدروا بهم .

ولما كان النبى ﷺ يتوقع انسحاب الأحزاب بعد الذى حدث بينهم وبين اليهود من خلاف ، فقد كلف أحد رجال استخباراته الأذكياء الشجعان بأن يذهب ويدخل (متنكراً) إلى قلب معسكر الأحزاب ليأتى إليه بحقيقة الموقف هناك .

وكان هذا الرجل هو حذيفة بن اليمان الذى ذكرنا جانباً من قصته فيما مضى من هذا الكتاب .

ولنترك هذا البطل ليقص تسلله إلى معسكر الأحزاب وكيف حصل

على كل ماتحتاج القيادة النبويه من معلومات قيمة هامة عن حالة العدو .

فقد ذكر حذيفة أن النبى ﷺ – فى تلك الليلة الحاسمة – استدعاه وقال له .. ياحذيفة ، إذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون ، ولاتحدثن شيئاً حتى تأتينى ، قال .. فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل ماتفعل بهم لاتقر لهم قدراً ولابناء .

فقام أبو سفيان فقال .. يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه – وهذا من أبى سفيان تحفظ من أن يكون داخل المعسكر أحد يتجسس لحساب المسلمين .

وقد أوقع هذا الأمر حذيفة فى مأزق ، ولكنه لذكائه تخلص فى هذا المأزق حيث سارع إلى الرجل الذى بجانبه وبدأه بالسؤال قائلاً : من أنت ، فقال : فلان بن فلان ، وبهذا العمل تمكن حذيفة من الخروج من المأزق الذى وقع فيه والذى (فيه) كاد يقع فى قبضة المشركين لو انكشف أمره[1] .

أبو سفيان يخطب في الجيش

قال .. حذيفة (ثم) قال أبو سفيان .. يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا

---

(١) ومن طريق آخر روى عن حذيفة (كما فى السيرة الحلبية) أنه قال : فسمعت أبا سفيان يقول : يامعشر قريش ليتعرف كل امرىء منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيون ، فأخذت بيد جليسى على يمينى وقلت .. من أنت ، فقال معاوية بن أبى سفيان ، وقبضت على يد من على يسارى ، وقلت .. من أنت ، قال .. عمرو بن العاص فعلت ذلك خشية أن يفطن بى .

عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ، ماتطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ، ولايستمسك لنا بناءُ فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم .

ويحدثنا حذيفة كيف أنه كان من السهل عليه قتل القائد العام أبى سفيان ، وأنه حاول ذلك ، لولا أنه تذكر الأوامر المشددة الصادرة إليه من قائده الأعلى رسول الله ﷺ بأن لايحدث شيئاً حتى يأتيه .

فقد حدث حذيفة – يصف محاولته قتل أبى سفيان – فقال .. فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول على النار بيده ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتى أبيض الريش فأضعه فى كبد قوسى لأرميه به فى ضوء النار فذكرت قول رسول الله ﷺ .. لاتحدثنّ شيئاً حتى تأتينى فأمسكت ورددت سهمى إلى كنانتى.

فك الحصار عن المدينة نهائياً

قال حذيفة .. ثم إننى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون .. الرحيل الرحيل ، لامقام لكم ، وإذا الريح فى عسكرهم ، فو الله لأنى أسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضرب بها ، قال .. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

ويختتم حذيفة حديثه هذا قائلاً : ثم رجعت كأنما أمشى فى حمام فأتيت رسول الله ﷺ، فلما انتصف بى الطريق أو نحو ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا .. أخبر صاحبك أن الله قد كفاه .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فو الله ماعدا أن رجعت حتى راجعنى القُرُّ (١) وجعلت أُقرقف من البرد ، فأومأ إلى رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى فدنوت منه ، فأسبل علىَّ شملته ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى ، فأخبرته أنى تركتهم (أى الأحزاب) يرحلون (٢) .

وهكذا انقشعت الغمة ، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة ، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم وصبرهم وثباتهم مع نبيهم الحبيب فى تلك الليالى الرهيبة المرعبة التى زاغت فيها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، فقد أخذت جيوش الأحزاب فى فك الحصار عن المدينة ، واخذت كتائبهم تولى الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران ، لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب .

الأحزاب تنظم انسحابها

وعندما عزم الأحزاب على الانسحاب وإنهاء الحصار ، قرر القائد العام أبو سفيان ، أن يكون الانسحاب منظماً لافوضى فيه ولا اضطراب وأن يكون فى حماية قوات مسلحة منظمة تتولى الإشراف عليه .

---

(١) القر بضم القاف هو شدة البرد .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٢ ، والبداية والنهاية ج٤ ص ١١٥ والسيرة الحلبية ج٢ ص ١١٠ ومابعدها .

ولذلك أصدر أبو سفيان إلى قائد سلاح الفرسان فى الجيش القرشى (خالد بن الوليد ومساعده عمرو بن العاص) أمره بأن يتوليا الإشراف على تنظيم هذا الإنسحاب ، ويقوما بحماية مؤخرة الجيوش المنسحبة من أن يقوم المسلمون بضربها ساعة الإنسحاب .

فامتثل عمرو ، وخالد ، أمر القائد العام وسارعا ، إلى انتخاب مائتين من الخيالة ، ثم تمركز هؤلاء الخيالة فى المنطقة الواقعة بين مؤخرة معسكر الأحزاب وبين المسلمين ، وصاروا يضربون بخيلهم فى تلك المنطقة، ويماشون الجيش المنسحب وهو على تعبئة واستعداد ، لحمايته من أية غارة يقوم بها عسكر الإسلام ، وظلت كتيبة الفرسان القرشية هكذا حتى اكتمل انسحاب جيوش الأحزاب من مواقعها أمام الخندق (تماما) وابتعدت عن منطقة الخطر [١] .

أبو سفيان يكتب إلي النبي عند الانسحاب

ويقول المؤرخون : إن قائد عام جيوش الأحزاب (أبا سفيان) قبل انسحابه ، كتب إلى النبى ﷺ خطاباً يعيب فيه عليه الاحتماء بالخندق ، ويذكر له أنه لولا مكيدة الخندق لما بقى للمسلمين من وجود ، وقد بعث أبو سفيان هذا الخطاب مع أبى سلمة الخشنى .

فلما أتى به دعا رسول الله ﷺ أبى بن كعب[٢] فدخل معه قبته فقرأه عليه ، فإذا فيه :

---

(١) انظر السيرة الحلبية ج٢ ص ١١٦ .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

« باسمك اللهم ، فإنى أحلف باللاة والعزى وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت إليك فى جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضائق وخنادق ، واعتصمت بالخندق فاعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها ، ومافعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا ، فليت شعرى من علمك هذا ، فإن نرجع عنكم ، فلكم منا يوم كيوم أحد ننصر فيه النساء » .

وبعد أن عرف النبى ﷺ محتوى خطاب أبى سفيان كتب إليه جواباً يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب أما بعد فقد أتانى كتابك وقديماً غرك يا أحمق بنى غالب وسفيهم بالله الغرور ، وسيحول الله بينك وبين ماتريد ويجعل الله لنا العاقبة ، وأما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم وأنك لاتريد لنا العاقبة ، حتى تستأصلنا فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافاً ونائلة وهبل حتى أذكرك بذلك – ياسفيه بنى غالب – وأما قولك « من علمك» الذى صنعنا من الخندق فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك .

وهكذا (وبعد حصار خانق شديد دام حوالى شهر بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والتعب والإرهاق حد الإعياء والزلزال) هزم الله

---

(١) الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ص ٩ وما بعدها ، والسيرة الحلبية ج٢ ص ١١٣ ومابعدها .

الأحزاب وكبت الخونة الغادرين من يهود بنى قريظة ، وكتب النصر للمؤمنين الصابرين ، وكان نصراً ساحقاً عظيماً دون أن يتكبد المسلمون فى سبيله خساره من الرجال تذكر ، وهذا الذى عناه الله تعالى بقوله ﴿وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ .

وبعد أن تمت عملية انسحاب جيوش الأحزاب من معسكراتها حول المدينة ، أصدر النبى ﷺ أمره إلى جيشه بالعودة إلى المدينة ، فأخذ هذا الجيش فى ترك مواقعه واتجه نحو المدينة ، بعد أن تنفس الصعداء وتخلص من ذلك الكرب العظيم الذى لم يشهد مثله فى تاريخه .

آخر غزوة يقوم بها العدو

ولقد أبلغ النبى ﷺ أصحابه (وهم يتركون مواقعهم خلف الخندق) بأن هذه الغزوة التى قام بها الأحزاب ستكون آخر عملية عسكرية يقوم بها الأعداء ضد المسلمين ، وأن الجيش الإسلامى سيكون (بعد هذه الغزوة) هو الغازى دائماً .

فقد أخرج البزار من حديث جابر بإسناد حسن أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب - وقد جمعوا له جموعاً كثيرة - « لايغزونكم بعدها أبداً ولكن أنتم تغزونهم » .

وفعلاً ، فإن المسلمين - بعد غزوة الأحزاب - لم يتعرضوا لأى غزو من قبل العدو ، وإنما كانو هم الذين يقومون بغزو الأعداء ، حتى تمت لهم السيطرة الكاملة على جزيرة العرب ، وهكذا فإن محمداً ﷺ ، لاينطق عن الهوى (و) « إن هو إلا وحى يوحى » ، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الخامس

* عدد قتلي الفريقين في المعركة .

* حديث القرآن عن المعركة .

بالرغم من أن معركة الأحزاب هذه هى أخطر غزوة يتعرض لها المسلمون فى تاريخهم ، وبالرغم من أنها من أشد ما شهد المسلمون فى عملياتهم الحربية ، من حيث الخوف والقلق والتعب والرعب والإرهاق فإن قتلى الفريقين فيها لم يزيدوا على أحد عشر رجلاً وجريحين .

عدد شهداء المسلمين

فقد كان كل شهداء المسلمين فى هذه المعركة (ثمانية فقط) ، وكلهم من الأنصار ، إذ لم يقتل أحد من المهاجرين فى هذه المعركة وهؤلاء الشهداء هم :

(أ) من بنى الأشهل (وهم بطن من الأوس) ثلاثة نفر ، وهم :

١ - سيد الأوس وقائدهم (سعد بن معاذ [١] . أصابه سهم وظل منه جريحاً حتى مات منه بعد غزوة بنى قريظة .

٢ - أنس بن أوس بن عتيك [٢] .

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) هو أنس بن أوس بن عتيك بن عمرو الأنصارى الأوسى ، لم يشهد بدراً ، ولكنه شهد أحداً، قال موسى بن عقبة : رماه خالد بن الوليد (يوم الخندق) بسهم فقتله ، فاستشهد .

٣- عبد الله بن سهل [(١)] .

(ب) ومن بنى جشم (وهم بطن من الخزرج) رجلان ، وهما

١ - الطفيل بن النعمان [(٢)] ، قتله قاتل حمزة ، زرقه بحربة عبر الخندق .

٢ - ثعلبة بن غنمة [(٣)] .

(ج) ومن بنى النجار (وهم بطن من الخزرج) ، نفر واحد وهو :

١ - كعب بن زيد [(٤)] .

هؤلاء الشهداء الستة ذكرهم ابن إسحاق ، غير أن هناك شهيدين لم يذكرهما ابن إسحاق ، قتلا وهما يقومان بأعمال الإستكشاف لمعرفة

---

(١) هو عبد الله بن سهل بن زيد بن عامر الأوسى الأنصارى ، قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : وهو أخو رافع بن سهل ، وهما اللذان خرجا إلى حمراء الاسد وهما جريحان (بعد معركة أحد) يحمل أحدهما صاحبه ولم يكن لهما ظهر » .. أنظر قصة هذين الشابين العجيبة فى كتابنا .. (غزوة أحد) ص ٢٥١» .. كان عبد الله بن سهل شهد بدراً وأحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٣) هو ثعلبة بن غنمة بن عدى بن سنان بن نابىء الأنصارى الخزرجى ، كان من الطليعة المباركة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان أسلم ، وهو شاب صغير فكان هو ومعاذ ابن جبل وعبد الله بن أنيس يغدون على أصنام بنى سلمة فى المدينة فيكسرونها ، شهد ثعلبة (بدراً) و (أحداً) استشهد يوم الخندق ، قتله هبيرة بن أبى وهب المخزومى .

(٤) هو كعب بن زيد بن قيس بن مالك بن كعب النجارى الخزرجى ، كان من السابقين فى الإسلام ، شهد بدراً ، قال ابن إسحاق : أصابه سهم غرب (لايدرى من أين جاء) وقال الواقدى : قتله ضرار بن الخطاب الفهرى ، وكان كعب هذا ، هو الرجل الوحيد الذى نجا (مع عمرو بن أمية الضمرى) من مذبحة (بئر معونة) التى غدر فيها بنو عامر بسبعين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوهم . (انظر تفصيل هذه المذبحة الرهيبة فى أول هذا الكتاب) .

تحركات جيوش العدو قتلتهما دورية لجيوش الأحزاب ، كانت تقوم بأعمال الاستطلاع بالقرب من المدينة .

وقد ذكر هذين الشهيدين ابن برهان الدين فى كتابه (السيرة الحلبية) ج٢ ص ١٠١ وهما :

١- (سليط) ولم يزد فى السيرة الحلبية غير هذا ، بل قال : (سليطاً) فقط .

١ - سفيان بن عوف .

ولم يذكر ابن برهان الدين فى كتابه هل هذان الشهيدان من المهاجرين أم من الأنصار ، والأقرب الى الصواب أنهما من الانصار ، لأنه يستبعد (جداً) أن يرسل النبى ﷺ من يستطلع له أخبار العدوّ ، فى أرض هو ليس من أهلها ، لأن الأنصار أدرى بتلك المناطق من المهاجرين ، فمن المستبعد أن يرسل النبى ﷺ مهاجرياً للقيام - بالاستكشاف فى تلك المناطق.

وقد بحثت عن ترجمة لهذين الشهيدين فى « الإصابة » والاستيعاب « وطبقات ابن سعد الكبرى » ، فلم أجد لهما شيئاً .

وكل ما وجدته - مما يتعلق بهما - هو ما أورده ابن برهان الدين فى كتابه (السيرة الحلبية) ج٢ ص ١٠١ بقوله :

« وأرسل (أى النبى ﷺ سليطاً وسفيان بن عوف طليعة للأحزاب فقتلوهما ، فأتى بهما رسول الله ﷺ فدفنهما فى قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان » .

قتلي لم يعرف عددهم

وعلاوة على هؤلاء الثمانية الذين استشهدوا من المسلمين فإن هناك قتلى وجرحى آخرين من المسليمن ، أصيبوا (خطأ) فى ليلة من ليالى الخندق .

فقد ذكر المؤرخون أن دوريتين للمسلمين خرجتا (ليلاً) لحراسة مشارف الخندق ، فالتقتا - ولا يشعر بعضهم ببعض - فظنت كل دورية أن الأخرى من العدو ، فاصطدموا ، وكانت بينهم جراحة وقتل ، ثم نادوا بشعار الاسلام « حم لاينصرون» فكف بعضهم عن بعض ، ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال : « جراحاكم فى سبيل الله ومن قتل منكم فانه شهيد».

إلا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر عدد وأسماء القتلى أو الجرحى الذين أصيبوا فى هذه الحادثة ، والله أعلم .

قتلي المشركين

أما قتلى المشركين فى هذه المعركة ، فهم أربعة فقط ، وكلهم من قريش ، وهم :

(أ) من بنى عبد الدار رجل واحد ، وهو :

١ - منبه بن عثمان بن عبيد .

(ب) ومن بنى مخزوم رجل واحد ، وهو :

١ - نوفل بن عبد الله بن المغيرة ، قتله الزبير بن العوام بعد اقتحامه الخندق بفرسه .

(ج) ومن بنى عامر بن لؤى رجلان ، وهما :

١ - عمرو بن عبد ود ، قتله على بن أبى طالب .

٢ - حسل بن عمرو بن عبدود ، قتله على أيضاً فيما رواه ابن هشام عن الزهرى .

حديث القرآن عن المعركة

وقد تحدث القرآن الكريم عن معركة الأحزاب ، وتناول مراحل هذه المعركة فى عدة آيات من سورة الأحزاب بلغت سبع عشرة آية ، تبدأ بالآية التاسعة من سورة الاحزاب ، وتنتهى بالآية الخامسة والعشرين من نفس السورة .

وأول ماتحدث عنه القرآن هو نزول البلاء علي المسلمين بوصول قوات الأحزاب ، وإنعام الله على المسلمين بدحر هذه القوات وتسليط العوامل الطبيعية عليهم وإزعاجهم بجنود من عند الله لم يرها أحد ، مما أدى إلى إجبارهم على الرحيل عن المدينة وفك الحصار عنها ، فقال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ .

ويعنى القرآن الكريم بالجنود الذين جاءُوا لحرب المسلمين ، قريش وغطفان وبنى قريظة ، أما الجنود الذين أشار القرآن إلى أن الله أرسلهم لإزعاج الأحزاب ، فقد ذكر كثير من أهل التفسير أنهم الملائكة ، ولم يثبت أن الملائكة قاتلوا الأحزاب ، ولكنهم أرسلوا للإزعاج والتضييق .

قال الإمام الشوكانى فى (فتح القدير) ج٤ص ٢٥٦ .. قال المفسرون .. بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها فى بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر ، تخويفاً للأحزاب ، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه : يابنى فلان هلم إلىّ ، فإذا اجتمعوا قال هلم : النجاءَ النجاءَ . أ هـ .

وقد جاء هذا التأييد الإلهى للتضييق على الأحزاب ، وإزعاجهم بعد أن محّص الله المؤمنين وصهرهم فى مختبر المحن والمصائب التى أخذت بخناقهم وأحاطتهم من كل جانب ، فصمدوا لها وأثبتوا (عملياً) أنهم بإيمانهم - أكبر من هذه المصائب والنكبات ، فقرروا مقاومة الغزو حتى النصر أو الفناء ، ومن هنا جاءهم النصر المفاجىء من عند الله جزاء صبرهم وثباتهم وإيمانهم ويقينهم .

حديث القرآن عن تدهور الحالة

وتحدث القرآن الكريم عن تدهور الحالة بين المسلمين ، وانتشار الخوف والرعب والفزع بين صفوفهم نتيجة إطباق جيوش الأحزاب عليهم (بمساعدة يهود المدينة) من كل ناحية وإحكام الحصار عليهم بشكل مخيف رهيب ، فقال تعالى :

﴿ إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديد ﴾ .

إنها صورة الهول الذى روع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينتج منه أحد من أهلها ، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها ، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب ، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله ، وسلوكها فى الشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج ، ومن ثم كان الإبتلاء كاملاً والإمتحان دقيقاً والتمييز بين المؤمنين حاسماً لاتردد فيه (١) .

حديث القرآن عن المنافقين

كما تحدث القرآن الكريم عن مواقف التخريب والإرجاف التى اتخذها المنافقون الموجودون فى جيش المدينة ، والتى بها ساهموا فى مضاعفة الكرب والبلاء النازل بالنبى وصحبه ، فقال تعالى :

﴿وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ .

وذلك أن بعض المنافقين ، وقفوا فى تلك الساعات الحاسمة التى عم فيها الخوف والرعب بين المسلمين ، وقف هؤلاء المنافقون يسخرون من وعد الله ورسوله المؤمنين بالنصر ، فقالوا .. كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا الآن لايستطيع الذهاب إلى الغائط (خوفاً) .. ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

وتحدث كذلك عن طائفة المنافقين الذين - عندما اشتد الكرب واستحكمت حلقات البلاء - انطلقوا يشيعون روح الهزيمة والفرار بين

(١) فى ظلال القرآن (تفسير) لسيد قطب ج٢١ ص ١٤٠ .

الجند، بدافع الرغبة فى نشر الفرقة والتخاذل داخل صفوف الجيش الإسلامي ، فقال تعالى :

﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتاً عورة وماهى بعورة ، إن يريدون إلا فراراً ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ﴾ .

ويستمر القرآن الكريم فى التنديد بهولاء المنافقين الذين سلكوا ذلك المسلك الشائن يوم الاحزاب ، فيقول :

﴿ قل لن ينفعكم الفرار ، إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذا لاتمتعون إلا قليلاً ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا ﴾ .

ويتحدث القرآن عن طبيعة المنافقين الخبيثة المخربة ، طبيعة القعود عن الجهاد ، وطبيعة تحريض الغير على الإنفضاض من حول النبى ﷺ والانضمام إلى صفوف هؤلاء المنافقين المعوقين ، كما يصور حالة الجبن والخور المتأصلة فى نفوسهم ، عندما تكون الحرب ، مع الانتفاش وسلاطة اللسان والتشدق بقارص الكلام فى حالة الأمن ، فيقول:

﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولايأتون البأس إلا قليلاً ، أشحةً عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف ، سلقوكم بألسنة

حداد أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾

قال فى ظلال القرآن : فخرجوا من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ما شاء لهم الإدّعاء من البلاء فى القتل والفضل فى الأعمال والشجاعة والاستبسال .

وهذا النموذج من الناس لاينقطع فى جيل ولا فى قبيل ، فهو موجود دائماً ، وهو شجاع فصيح بارز ، حيثما كان هناك أمن ورخاء .

وهو جبان صامت منزو ، حيثما كان هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير لاينالهم منه إلا سلاطة اللسان أ هـ .

ويتحدث القرآن كيف كان الفزع والفشل مسيطراً على قلوب المنافقين ومزيلاً لرشدهم وصوابهم – حتى بعد انصراف جيوش الأحزاب إلى درجة أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الجيوش لاتزال فى معسكراتها حول المدينة ، بالرغم من أنها قد انسحبت نهائياً .

وكيف أن هؤلاء المنافقين المحسوبين على المسلمين بالرغم من تسللهم من صفوف الجيش ساعة الشدة والروع ، وهروبهم من الميدان وبعدهم عن خطر القتال ، كانوا لشدة جبنهم يتمنون أنهم من أعراب البادية وأن لاعلاقة تربطهم بالمدينة ، التى كانت الهدف الأول للغزو ، وكيف أنهم كانوا يسألون فى فزع وقلق (كما يسأل الجبان الرعديد الذى يحسب كل شىء تحرك هو ضده) عن أخبار نتيجة القتال الدائر بين المسلمين والأحزاب ، فقال تعالى :

﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ .

حديث القرآن عن مواقف المسلمين المشرفة

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن الصورة الكالحة الردئية البغيضة التى كان عليها المنافقون منذ نشوب معركة الأحزاب حتى نهايتها ، إلى الحديث عن الصورة الوضيئة المشرقة الرائعة التى ظهر فيها النبى الأعظم ﷺ والصفوة من أصحابه يوم أن حاقت بهم المحن وتحالفت ضدهم البلايا وتقاطرت عليهم الرزايا ، فصمدوا فى وجهها وثبتوا أمام زعازعها ثبوت الرواسى ، والتى بدلاً من أن تكون هذه المحن والبلايا لهم مصدر اضطراب وتضعضع وانهيار ، كانت مصدراً للطمأنينة والثقة والإيمان واليقين والاستبشار بنصر الله .

وقد بدأ السياق بذكر الرسول الاعظم ﷺ وهو القدوة الكاملة فى الشجاعة والثبات والإيمان وقيادة الأمم إلى شاطىء النصر والظفر عندما تضطرب الأحوال وتتقاطر المحن والرزايا ، فقال تعالى :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .

ويتحدث القرآن هنا عن هذا النموذج من الرجال الذين (لصلتهم الوثيقة الصادقة بالسماء) لم يزدهم ذلك الكرب الذى نزل بهم - والزلزال

المخيف الذى أصابهم فى غزوة الأحزاب ، إلا صلابة فى إيمانهم وصدقاً فيما عاهدوا الله عليه من الصبر والثبات والتضحية فى سبيله حتى الموت ، عكس ذلك النموذج الفج الهلوع المهزوز الجبان فريق المنافقين الذى لايقف عند عهد ولايوفى بميثاق ، فقال تعالى :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا﴾ . وبعضهم يرى أن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر رضى الله عنه ، وأصحابه الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ فى معركة أحد ، فقد روى الإمام أحمد - بإسناده - من ثابت قال :« عمّى أنس بن النضر - سميت به - لم يشهد مع رسول الله ﷺ ، فشق عليه ، وقال فى أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أرانى الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ - ليرين الله عز وجل ما أصنع ، قال : فهاب أن يقول غيرها .

فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه فقال له أنس : يا أبا عمرو أين واهاً لريح الجنة ، إنى أجده دون أحد، قال : فقاتلهم حتى قتل ، قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتى الربيع ابنة النضر - : فما عرفت أخى إلا ببنانه ، قال فنزلت الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه﴾ الآية .. قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه رضى الله عنهم.

وعلى أى كان الامر فإن هذه الآية ينطبق ماجاء فيها من وصف على ذلك النوع من الرجال الأبرار الذى ثبتوا بجانب نبيهم فى كل المواقف ووفوا بعهدهم الذى عاهدوا الله عليه سواء كانوا أنس بن النضر وأصحابه

من أبطال أحد ، أم الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ ، الذين ثبتوا معه فى معركة الأحزاب .

الابتلاء والإختبار

ثم يعقب القرآن الكريم على تلك المشاهد المختلفة والصور المتباينة التى واكبت معركة الاحزاب بأن ماشاهده الناس من أهوال وكروب ومحن إنما هو للابتلاء والاختبار ، لكى يظهر الصادق على حقيقته (كما هو) فينال جزاءه الطيب عند الله ، ويتبين المنافق الكاذب ويظهر أمام الناس (كما هو) ، لكى ينال مايستحق من عذاب ونكال ، فقال تعالى معقباً على ذكر تلك الأحداث :

﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما﴾ .

ثم يختم الحديث عن هذا الحدث الضخم الرهيب (غزوة الأحزاب) بأن الله دائماً مع المؤمنين الصادقين الصابرين لايسلمهم لعدوهم ولايمكنه منهم (مادامو على صلة وثيقة بالله وعلى يقين بصدق وعده) بل ينصرهم على هذا العدو مهما كانت قوته وجبروته ، كما حدث للنبى فى غزوة الأحزاب المزلزلة هذه ، فقال تعالى :

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

كما تحدث القرآن الكريم عن تكاسل المنافقين وأعمالهم التخريبية أثناء حفر الخندق ، وكيف أنهم كانوا ، يتركون العمل فى الخندق دونما

استئذان من النبى القائد ﷺ فندد القرآن الكريم بعملية التسلل التى كانوا يقومون بها تهرباً من المشاركة الفعالة فى حفر الخندق الذى قررت قيادة المدينة أن يكون خط الدفاع الرئيسى عن العاصمة ، كما أثنى (فى الوقت نفسه) على المؤمنين الذين لايتركون العمل فى الحفر إلا عندما تدعو الحاجة الماسة الضرورية ، والذين لايتركون العمل (مع هذا) إلا بعد أخذ إذن خاص من النبى القائد ﷺ فقال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوك ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

ثم وجه تحذيره للمنافقين فقال جل وعلا ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[١].

قال محمد بن إسحاق فى سبب نزول هذه الآيات إنه لما كان تجمع قريش والأحزاب فى غزوة الخندق (الأحزاب) ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وماجمعوا له من الامر ، ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين فى الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه فدأب ودأبوا .

---

(١) النور آية ٦٢ ، ٦٣ .

وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ ولا إذنه ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النآئبة من الحاجة التى لابد منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنه فى اللحوق بحاجته التى لابد منها، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ماكان فيه من عمله ، رغبة فى الخير واحتساباً له ، فأنزل الله تعالى فى أولئك المؤمنون ﴿ إنما المؤمنون .. الأية ﴾ ثم قال تعالى يعصنى المنافقون الذين يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبى ﷺ ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم .. الآية ﴾ أ هـ .

الفصل السادس

نظرة .. وتحليل

مما لاجدال فيه أن معركة الأحزاب كانت – بالنسبة للكيان الإسلامى الوليد بأكمله – معركة حياة أو موت .

كما أنها كانت – أيضاً – (بالنسبة للذين خططوا لها وقاموا بها) الأمل الوحيد فى استعادة هيبتهم الضائعة وسلطانهم المفقود ، وذلك بالقضاء على المسلمين ومحو كيانهم من الوجود .

ولهذا كانت غزوة الأحزاب أضخم عمل عسكرى تقوم به اليهودية والوثنية ضد الإسلام فى العهد النبوى .

لقد سبقت معركة الأحزاب (من جانب الغزاة) استعدادات هائلة وتنظيمات دقيقة ، ولذلك جاءت هذه الغزوة أكثر تنظيماً وأدق تنسيقاً من كل الغزوات والحملات التى قام بها أعداء الإسلام ضده ، فكانت قوات العدو فى هذا الغزو أضخم قوة عسكرية يواجهها المسلمون فى عقر دارهم ، بل كانت أعظم قوة غامرة غازية يقف أمامها المسملون بنسبة واحد لعشرة .

دقة موقف المسلمين

لقد كان كل شيء مادى يوحى (على نحو ساحق) بأن الغلبة ستكون للأحزاب على المسلمين وأن نهايتهم فى (حساب التقدير العسكرى المجرد) أمر مفروغ منه ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - قوة العدو الساحقة المتفوقة في كل شيء مادي :

فقد أطبقت على المدينة عشرة آلاف مقاتل من العرب القرشيين والغطفانيين ، مجهزين أحسن تجهيز ، وكلهم غيظ وحنق على المسلمين يساند هذه القوات العسكرية الضخمة رأس المال اليهودى الطاغى ويخطط لها الفكر الأسرائيلى الماكر الخبيث .

يقابل كل هذه القوات الضخمة فى الجانب الآخر (المسلمين) ألف مقاتل فقط هم دون هذه القوة فى كل شيء مادى سوى الايمان .

٢ - نقض اليهود للعهد :

وبالاضافة إلى الخطر المدمر الذى وقف جيش الإسلام بأكمله لمواجهته ، والمتمثل فى هذه الحشود القرشية والنجدية الهائلة ، تعرض هذا الجيش لرجة مزلزلة مخيفة وهى غدر يهود بنى قريظة ، بنقضهم العهد وانضمامهم (وهم وراء خطوط جيش الاسلام) إلى الغزاة فى تلك الساعات الرهيبة الحاسمة .

فقد كانت هناك معاهدة دفاع مشترك بين المسلمين ويهود بنى قريظة كان المفروض أن يكون اليهود (بموجبها) جزءاً من الجيش المدافع عن المدينة .

ولكن اليهود بدلاً من أن يشدوا من أزر حلفائهم المسلمين فيقفوا بجانبهم ضد الغزاة المعتدين ، إنضموا إلى هؤلاء الغزاة وصاروا (وهم حوالى ألف مقاتل) قوة معادية للجيش الإسلامى تتحفز للانقضاض عليه من الخلف ، فكان هذا العمل الشائن من اليهود ضربة موجعة وتهديداً خطيراً لاتقل فعاليته عن فعالية القوات الرئيسية الغازية .

لأن التهديد المفاجىء من الخلف لأى جيش (وهو فى حالة مواجهة للعدو) قد يكون أشد خطراً عليه من القوة الرئيسية التى يواجهها .

وفعلاً لقد كان لنقض اليهود العهد وانضمامهم إلى الغزاة أسوأ الأثر بين صفوف جيش المدينة الصغير ، حيث تأزمت الحالة ، واستحكمت المحنة وتحرج الموقف إلى درجة فكرَّ معها النبى القائد ﷺ فى أن يعقد صلحاً منفردا مع قادة غطفان ينصرفون بموجبه عن المدينة على أن يعطى لهم مقابل ذلك ثلث ثمار المدينة ، وذلك سعى من النبى ﷺ لتخفيف الضغط العسكرى الخانق الذى يتعرض له جيش الإسلام .

٣ - عنصر المنافقين والمرجفين الموجودين داخل جيش الإسلام كجزء منه :

فقد كان هذا العنصر من أشد البلايا على جيش الإسلام المدافع عن المدينة ، حيث ظهر هذا العنصر الخبيث على حقيقته والمسلمون فى أقصى درجات المحنة .

فبعد أن نقض اليهود العهد ، وآذنوا المسلمين بالحرب تحركت عوامل الخسة والدناءة المتأصلة فى نفوس هؤلاء المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، فأخذوا - فى تلك الساعات الرهيبة التى يجتازها

الكيان الإسلامى - ينسحبون من الجيش ، على شكل تسلل ، واستئذان مشبوه (أحياناً) ، محدثين بذلك تصدعات خطيرة فى معنويات الجند المدافع عن المدنية .

ولم يكتف المنافقون بذلك بل راحوا يشيعون روح الهزيمة فى الجيش ويعملون (علناً) على إشاعة الخوف والفزع داخل صفوفه ، حتى أخذ عدده يتناقص إلى أن وصل فى الليالى الاخيرة من المعركة إلى ثلاثمائة مقاتل (فقط) [1] ، الأمر الذى ضاعف من متاعب قيادة المدينة إلى درجة لامزيد عليها .

٤- العوز وحالة الفقر مع برودة الطقس وشدة الرياح :

وبالإضافة إلى هذه الأمور الخطيرة المخيفة التى واجهتها قيادة المدينة ، كان عام الأحزاب عام مجاعة وجدب بالنسبة للمسلمين ، وكان الفصل فصل برد قارص ورياح هوج ، وقد روى الثقاة من المؤرخين أن كثيراً من المسلمين ، يمر بهم اليوم واليومان لايذوقون فيهما طعاماً وأن النبى ﷺ كما روى البخارى كان يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع .

بينما كانت جيوش الأحزاب - من الناحية الأخرى - مزودة بكل المؤن الغذائية اللازمة ، ويقف - مع هذا - من ورائها اليهود (وهم ملوك المال) يسدون بما لديهم من ثروات طائلة أى نقص يحدث فى تموين جيوش الغزاة .

---

(١) انظر فى هذا الكتاب حديث حذيفة وقصة دخوله معسكر الأحزاب فى آخر ليلة من ليالى الغزو .

وقد رأينا (فيما مضى من هذا الكتاب) كيف كان بنو قريظة يرسلون القوافل محملة بالمؤمن إلى جيوش الأحزاب ، وكيف وقعت إحدى هذه القوافل فى أيدى إحدى دوريات جيش المدينة فصادرتها ، وكانت عشرين بعيراً ، فخفف الله بأحمالها من ضائقة المسلمين .

كل هذه العوامل والأسباب كانت توحى (لأول وهلة وعلى نحو لايقبل النقاش) بأن النصر الساحق سيكون حليف الأحزاب ضد المسلمين وأن المدينة لابد وأن تصبح فى قبضة هذه الجيوش الغازية الضخمة الغامرة .

الأمر الذى غرر ببنى قريظة فحملهم على ارتكاب جريمة الخيانة البشعة تلك ، إذ نقضوا العهد وانضموا إلى الجيوش الغازية ضد المسلمين ليأخذوا نصيبهم من ثمار النصر الذى لم يكن لديهم أدنى شك (إلا زعيمهم كعب بن أسد) بأنه سيكون حليف الأحزاب .

أسباب فشل الأحزاب

فما هى (إذن) الأسباب التى حالت دون تحقيق هذا النصر الذى توفرت للأحزاب كل أسبابه المادية ؟؟ . وماهى الأسباب التى جعلت هذا النصر المتوقع يتحول إلى هزيمة منكرة ، حيث منى هذا الغزو الكبير بذلك الفشل الذريع الذى يعتبر (على الإطلاق) أعظم فشل يصاب به اليهود والمشركون فى تاريخ الصراع بين الإسلام وأعدائه فى الجزيرة العربية ؟؟.

الأسباب الرئيسية

يمكننا تلخيص الأسباب الرئيسية التى حالت دون تحقيق ذلك النصر وأدت إلى ذلك الفشل الذريع ، كما يلى :

السبب الأول ... حفر الخندق :

فقد كان نجاح قيادة المدينة فى حفر هذا الخندق كخط أول للدفاع عن المدينة » مكيدة عسكرية فوجئت بها قيادة الأحزاب ، بل وصعقت لها ، لأن نجاح المسلمين فى حفر الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب نسف خطتهم (المرسومة لاحتلال المدينة) من الأساس .

لقد كانت قيادة الأحزاب (عندما وضعت نصب عينيها احتلال المدينة كهدف أساسى للغزو) تعتمد – لتحقيق هذا الهدف – على تلك الحشود الكبيرة التى جمعتها والتى بلغت (إزاءها) نسبة قوة المسلمين واحداً لعشرة ، وكانت تقصد من وراء هذا العدد الغامر إلى التغلب على الشجاعة الفائقة التى تميز بها المسلمون ، وذلك عن طريق الالتحام معهم فى معركة فاصلة ، التى مهما كانت شجاعة المسلمين فيها فإن عامل التفوق العددى الى الدرجة التى وصلت إليها جيوش الأحزاب يكون له أثره الذى لا يستهان به فى كسب المعركة ، وقديماً قالوا : الكثرة تغلب الشجاعة

ولكن قيام المسلمين بحفر الخندق نسف خطة الأحزاب وقلبها رأساً على عقب ، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب الهائجة المتدفقة وبين الالتحام مع عسكر الإسلام فى معركة فاصلة كما تريد قيادة الأحزاب وكما هى الخطة المرسومة للمعركة .

فقد جمد وجود الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة من جيوش الأحزاب وشل حركتها ، حيث لم تستطع مقاتلة المسلمين إلا عن طريق تسللية انتحارية عبر الخندق ، وهذا العمل (مهما تكرر) لايؤدى إلى النتيجة المرجوة من الغزو ..

وقد جربت قيادة الأحزاب عملية القفز - عبر الخندق - بالخيل لعلها تستطيع (إن نجحت) أن تقيم معابر واسعة تمر منها مشاة الأحزاب (تحت حماية سلاح الفرسان القرشى) إلى ناحية المسلمين ، ولكن هذه التجربة باءت بالفشل ، إذ كان مصير الفرسان الذين قاموا بها إما القتل وإما الفرار إلى حيث أتوا ، وهكذا ظلت قيادة الأحزاب حائرة لاتدرى ماذا تصنع إزاء هذه المكيدة الحربية التى لجأ إليها المسلمون فشلوا بها حركة جيوش الاحزاب وعطلوها عن الحركة كما تريد .

التذمر في صفوف الأحزاب

وقد نتج عن تجميد جيوش الأحزاب وعدم قدرتها على القيام بعمل حاسم فى معركة فاصلة (بسبب الخندق) تذمر داخل جيوش الأحزاب لأن جل هذه الجيوش من الأعراب (البدو) الذين ألفوا فى حروبهم (دائماً) المعارك الخاطفة التى لاتزيد على يوم أو بعض يوم وما كانوا يعرفون المرابطة أمام الخنادق كل هذه المدة التى رابطوها حول المدينة .

ولهذا فقد ثقل عليهم التجمد وراء الخندق دونما قتال فملوا المرابطة على غير جدوى ، الأمر الذى لاحظته قيادة الأحزاب ، فأخذت تشعر بالحرج ، وصارت (نتيجة لذلك) تفكر فى الإنسحاب ، ولكن التزامها

لبنى قريظة بعدم فك الحصار عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين جعلها تتريث لأنها كانت تخشى اللوم إن هى خلت بين اليهود وبين المسلمين الذين سيحاسبونهم حساباً عسيراً على غدرهم وخيانتهم دونما شك .

ولهذا فإن قيادة الأحزاب لم تتردد فى الانسحاب وترك اليهود وشأنهم عندما حدث مايبرر ذلك (ولو فى الظاهر) وهو إحجام اليهود عن المشاركة فى الهجوم على المسلمين إلا بعد الحصول على رهائن من رجالات الأحزاب يحتجزونها عندهم حتى يتم القضاء على المسلمين .

وهكذا فإن نجاح المسلمين فى إقامة الخندق كخط دفاع (أول) لصد الغزاة عن المدينة كان من أكبر العوامل التى أدت إلى فشل الغزو بل هو أكبر هذه العوامل إذا مانظرنا إلى الأمر من الزاوية العسكرية المجردة .

السبب الثاني .. خديعة نعيم بن مسعود

مما لاجدال فيه أن إحداث الفرقة والشقاق فى صفوف أى جيش محارب هو من أكبر الأسلحة التى تؤتى ثمارها لصالح خصوم هذا الجيش.

وقد تفعل الفرقة والشقاق بالعدو ما لم تفعله جيوش جرارة مزودة بأحدث الأسلحة وأقواها ، ولهذا فإن النبى القائد وهو ذو الخبرة الواسعة والباع الطويل فى السياسة العسكرية - طلب من نعيم ابن مسعود (وكان معروفاً بالدهاء والمكر بين العرب) أن يستخدم هذا السلاح - سلاح

الفرقة والشقاق – ضد الأعداء المتحالفين فى هذا الغزو المخيف ، إذ قال له : – عندما أعلن إسلامه سراً ودون أن يعلم به أحد من قومه – « إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة » .

وقد نجح نعيم بن مسعود فى استخدام سلاح الفرقة والشقاق ضد الأعداء نجاحاً كاملاً ، إذ استطاع أن يحطم بهذ السلاح وحدة الأحزاب وينسف اتحادهم مع اليهود من الأساس ، كما هو مفصل فيما مضى من هذا الكتاب .

فكان هذا النجاح عاملاً مهماً فى تعجيل فك الحصار عن المدينة وإنهاء ذلك الغزو الكبير بانسحاب جيوش الأحزاب الجرارة على تلك الصورة المخزية .

فاقناع نعيم بن مسعود يهود بنى قريظة بعدم التعاون مع الأحزاب إلا بعد الحصول على الرهائن منهم ، فتح الطريق أمام قريش وغطفان للتعجيل بالانسحاب ، وحفظ لهم ماء الوجه ، إذ اتخذوا من عدم التعاون هذا مبرراً لانسحابهم وترك اليهود وحدهم يلقون مصيرهم على أيدى المسلمين ، الأمر الذى كانت قيادة الأحزاب تتحرج من فعله ، قبل أن ترفض قريظة التعاون معهم .

وقد سمعنا فيما مضى من هذا الكتاب كيف حمل أبو سفيان (قائد عام جيوش الأحزاب) بنى قريظة مسئولية ماحدث إذ قال (وهو يأمر بالانسحاب) : إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره .

السبب الثالث .. العقيدة

وبالإضافة إلى العاملين الحاسمين فى فشل الغزو (من وجهة النظر العسكرية المجردة) فإن هناك – من الناحية المعنوية – عاملاً مهماً (وقد يكون أهم العوامل) فى إحباط هذا الغزو الخطير ، وهو العقيدة .

فقد كانت العقيدة عند المسلمين الصادقين هى السلاح الرئيسى الذى يعتمدون عليه فى كل المعارك ، ولهذا فإن العقيدة – عند المسلمين تأتى فى المقام الأول بين العوامل والدواعى التى تجعلهم يصمدون ويثبتون، حيث يكون الفرار أو الاستسلام (فى حساب المقاييس العسكرية المادية) أمراً لا مناص منه ، بل ولا لوم على فاعليه .

ومايمكن أن نقوله بالتفصيل عن العقيدة وأثرها فى نفوس المسلمين وإسهامها (بدرجة أولية ممتازة) فى انتصارات المسلمين الحاسمة ، قد قلناه مفصلاً فى ختام كل من كتابينا (غزوة بدر الكبرى .. وغزوة أحد) تحت هذا العنوان (نظرة .. وتحليل) فليرجع إليه من يريد .

إلا أن العقيدة فى معركة الأحزاب قد كان دورها (بالنسبة للمسلمين أهم الأدوار على الاطلاق ، حيث كانت هى السلاح الرئيسى بل والوحيد فى مواجهة الغزو وإحباطه .

فقد كان سلاح العدو الفعال الوحيد فى هذه الغزوة هو الإرجاف والإرهاب والترويع والتخويف والخيانة والغدر والنكث والإرهاق .. وهو سلاح مفزع مخيف (حقاً) بالنسبة للألف مقاتل تناقصوا حتى لم يبق منهم فى آخر ليلة من ليالى هذا الغزو الرهيب إلا ثلاثمائة مقاتل ، يحيط بهم أحد عشر ألف مقاتل من كل جانب .. سلاح مخيف رهيب حقاً ، لايقف فى

وجهه إلا سلاح رباطة الجأش وقوة الأعصاب . والاحتفاظ برجاحة العقل وهدوء النفس وثبات الجنان والثقة بنصر الله تعالى .

وهذه العوامل ذات الأثر الحاسم فى مقاومة ذلك السلاح الرهيب المخيف الذى تنخلع له القلوب ، لاتتوفر إلا لمن يحمل مثل تلك العقيدة الصافية السامية ، عقيدة الإسلام ، التى جعلت سيد الأوس الشاب (سعد بن معاذ) يقول للنبى ﷺ – عندما حاول عقد صلح منفرد مع قبائل غطفان، مقابل ثلث ثمار المدينة (رحمة بجيشه الصغير المحصور) .. والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

لقد قال هذا الشاب السيد المؤمن هذه الكلمة الخالدة التى رفض بها الصلح مع غطفان ، قالها والمسلمون فى أعلى درجات الكرب والضيق قد أخذت المحنة بتلابيبهم وطوقتهم الرزايا والخطوب وأحاطتهم من كل جانب.

رفض سيد الأنصار الشاب فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان على تلك الصورة ، مع أن هذه الفكرة التى استشار النبى الأنصار للموافقة عليها ، هى (فى عرف السياسة العسكرية) فكرة صائبة لا غبار عليها يلجأ إليها القادة العسكريون ويستخدمونها لتخفيف مؤونة الحرب على جيوشهم حتى اليوم .

لأن تشتيت شمل العدو وإضعاف قوته وتفريق كلمته بأية وسيلة ، لايغيب عن بال أى قائد عسكرى مسئول فى كل الحروب بلا استثناء ، ولكن قوة العقيدة الراسخة البناءة التى جاء بها هذا النبى الكريم جعلت قادة الأنصار (وهم العمود الفقرى لجيش المدينة) يستأذنون نبيهم فى رفض فكرة الصلح هذه والاستمرار فى المقاومة مهما كانت النتائج .

الخواء العقائدي عند الأحزاب

وإذا كان موقف سعد بن معاذ وقادة الأنصار قد أوضح لنا الصورة الجلية الواضحة عن فعالية سلاح العقيدة فى جيش الإسلام الصغير ، ومتانة هذه العقيدة وصلابتها إلى الحد الذى جعل المؤمنين بها يقفون ذلك الموقف الرائع ، فإن مجىء قادة غطفان (وهم العمود الفقرى لجيوش الأحزاب) إلى مقر القيادة النبوية (سراً) ومد يدهم - من وراء ظهر قريش - لعقد صلح منفرد مع المسلمين مقابل ثلث ثمار المدينة ، يعطينا الدليل القاطع على الخواء العقائدى الكامل داخل جيوش الأحزاب العظيمة ، وأن هذه الآلاف المؤلفة ، قد جاءت يسودها التفكك لأنها ليست لها رابطة موحدة تجمعها على عقيدة راسخة صادقة تصلها بالله ، فتستعذب الموت فى سبيلها ، كما هو الحال عند المسلمين .

وإنما جاءت هذه الآلاف المؤلفة تحدوها أهداف رخيصة محدودة ضيقة ، أهداف لايمكن أن تكون أساساً لنضال أو قاعدة لكفاح أهداف لحمتها وسداها الحصول على مايمكن الحصول عليه من المغانم المادية بأية طريقة كانت ، ثم العودة (بسرعة) إلى خيامها ومسارحها .

مقارنة بين الأحزاب والمسلمين

وبالمقارنة بين هذه الاهداف الرخيصة المحدودة التى جاءت الاحزاب تقاتل فى سبيلها ، وبين تلك العقيدة الشماء التى يقاتل المسلمون فى سبيلها ، والتى وقفت (فى ظل رايتها) تلك القلة المؤمنة لتواجه تلك الحشود الهائلة ، يتضح الفارق العظيم ، ويتضح أى سلاح فعال سلاح العقيدة هو، عندما تكون عقيدة بناءة سليمة .

إنه لولا العقيدة التى تسلح به المسلمون فى تلك الظروف الرهيبة المزلزلة ، ما استطاعوا أن يثبتوا أمام تلك الحشود الهائلة التى بلغت عشرة أضعاف المسلمين ، ذلك الثبات الذى ظل (على مر العصور) مضرب الأمثال .

لقد كان باستطاعة جيوش الاحزاب الجرارة (لولا الخواء العقائدى الذى يسيطر عليها) أن تسجل على جيش المدينة الصغير ، نصراً حاسماً حتى مع وجود الخندق ، لأن الخندق لايمكن أن يحول بينها وبين اقتحام المدينة على أية صورة من الصور ، لاسيما وأنها تمتاز على المسلمين بذلك التفوق الساحق فى العدد .

حقيق ، أن اقتحام الخندق لاحتلال المدينة يتطلب تضحيات لايستهان بها ، وما كانت جيوش الاحزاب لتبخل بمئات من القتلى لاقتحام المدينة ، لو كان باعث غزوها على مستوى الباعث العقائدى الذى وقف المسلمون (فى ظله) يدافعون عن المدينة ذلك الدفاع الرائع .

ولكن لما كان الباعث الحقيقى لحشد هذه الجيوش حول المدينة هو ذلك الباعث المادى الضحل الرخيص ، المتمثل فى التمكن من السلب والنهب فحسب ، فإنه من البديهى أن تحجم هذه الجيوش عن الإقدام على مثل هذا العمل الذى يتطلب الإقدام عليه بذل المهج والأرواح بسخاء كبير .

ولو كان الأمر على العكس ، وكان المسلمون هم الذين جاءوا يقودون تلك الجيوش الجرارة التى جاء بها الاحزاب ، لما وقف الخندق حائلاً بينهم

وبين احتلال المدينة ، بل لاقتحموه فى لحظات ، كما حدث منهم ومن أبنائهم (مرات ومرات) فى الشام والعراق عندما كان الفرس والرومان يخندقون على أنفسهم ، وهم أقوى سلاحاً وأكثر عدداً من المسلمين .

حصيلة الغزو العكسية

اتضح فيما مضى من هذا الكتاب أن المخطط الذى خرج به زعماء اليهود من خيبر والذى بموجبه تم تحشيد تلك الجيوش الجرارة من قريش وغطفان يهدف (فى الدرجة الأولى) إلى إبادة المسلمين إبادة كاملة وهدم كيان الاسلام من الأساس ، يشاطرهم فى ذلك زعماء قريش وقادة غطفان.

ولكن ما هى النتائج التى جناها قادة اليهود وقريش وغطفان كحصيلة لهذا الغزو الكبير المنظم المخيف ؟ .

النتائج كانت - بالتأكيد - عكسية مائة فى المائة ، وهى تتلخص فيما يلى :

١ - لقد منيت جيوش الأحزاب بهزيمة شنعاء لم تمن بمثلها قريش وغطفان واليهود فى تاريخهم الطويل السابق واللاحق .

فقد جنى الأحزاب (كثمرة لهذا الغزو الكبير) تلك الهزيمة المنكرة وذلك الفشل الذريع ، بدلاً من خضد شوكة المسلمين وهدم سلطانهم ونسف كيانهم .

فانحدرت هذه الهزيمة بسمعة قريش وغطفان العسكرية إلى درجة لم يستطع معها أى من هذه القبائل (وهى أقوى قبائل الجزيرة على

الإطلاق) مجرد التفكير فى غزو المسلمين فكانت لذلك غزوة الأحزاب هذه آخر عملية غزو تقوم بها الوثنية العربية ضد الإسلام فى جزيرة العرب .

سمعة المسلمين بعد غزوة الاحزاب

بينما ارتفعت (من ناحية أخرى) سمعة المسلمين العسكرية - بعد هذه المعركة - حتى بلغت الذروة ، الأمر الذى جعلهم (حتى سقوط آخر معقل لليهودية والوثنية فى جزيرة العرب) أسياد الموقف ، يغزون ولايقدر أحد على غزوهم .

٢ - أما حصيلة اليهود من هذا الغزو الذى هو من صنعهم ونتيجة تفكيرهم ، فقد كانت خسارة افدح من خسارة الوثنيين فى نجد والحجاز .

فإن هؤلاء القرشيين والنجديين إذا كانوا قد خسروا هيبتهم العسكرية فلزموا الهدوء والسكينة حتى دخلوا فيما دخل فيه العرب من اعتناق الاسلام بعد احتلال مكة من قبل قوات المسلمين ، فإن اليهود لم تبق لهم أية هيبة عسكرية حتى يخسروها ، ولكن حصتهم من ثمرة هذا الغزو الذى أثاروا عواصفه ، كانت تصفية العنصر اليهودى فى يثرب ، بإبادة كل رجال يهود بنى قريظة فى المدينة ، وهم ثمانمائة مقاتل ، وسبى نسائهم وذراريهم وهى النكبة المروعة التى كان اليهود قد أعدوا العدة (بالاتفاق مع الأحزاب) لإنزالها بالمسلمين . (١) .

---

(١) سيكون موضوع كتابنا الرابع من هذه السلسلة هو (غزوة بنى قريظة) إن شاء الله

ولم تتوقف نكبة هؤلاد اليهود المجرمين على محو ماتبقى لهم من كيان فى يثرب ، كحصيلة لأعمالهم الشريرة ، بل امتدت هذه النكبة إلى موطن الإجرام ووكر التآمر (خيبر) التى رسم فيها مخطط ذلك الغزو الرهيب.

فقد كانت حملة الأحزاب المخيفة درساً وعتْه قيادة المدينة - وأيقنت على أثره أن لا مناص من ضرب قواعد العدوان فى خيبر ، والتى إن لم تضرب وتحطم سيظل الكيان الاسلامى عرضة لخطر التآمر والعدوان فى كل لحظة .

لاسيما وأن اليهود يملكون من المال الوفير المكنوز (والمال ذو سلطان قاهر) مايمكنهم من إثارة أية حرب يريدون إثارتها ضد المسلمين .. ولهذا قامت المدينة - بقيادة النبى الأعظم ﷺ بعملية غزو واسعة ضد اليهود فى خيبر حتى سقطت فى أيدى المسلمين ، وسقط كل قادتها وزعماؤها قتلى فى المعركة .

وبسقوط خيبر تمت تصفية آخر معقل لليهود فى الجزيرة العربية [١] ولم يقم لليهود بعدها أى سلطان فى الجزيرة العربية حتى اليوم ولن يقوم إلى يوم القيامة إن شاء الله .

بقى موضوع يحتاج إلى شىء من الإيضاح فى هذا التحليل ، وهو موقف التكاسل الذى وقفته من معركة الاحزاب ، قبائل غطفان النجدية (وهى التى تشكل الأغلبية فى حشود هذا الغزو).

فأثناء استعراضنا لجميع أدوار المعركة لم نر لأى من رجال غطفان (قادة وجنوداً أى نشاط حربى ضد المسلمين فى هذه المعركة .

---

(١) سيكون موضوع كتابنا الخامس من هذه السلسلة هو غزوة (خيبر) إن شاء الله .

فكل الذين قاموا بقفز الخندق بخيلهم هم من قريش وليس بينهم غطفانى واحد ، كما أن كل القادة الذين تولوا (بالتناوب) عملية إرهاب المسلمين وإزعاجهم بالطواف بكتائبهم حول الخندق (ليلاً نهاراً) هم من قريش فقط ، وليس بينهم قائد غطفانى واحد ، كما أن التاريخ لم يذكر أنه كان ضمن جنود هؤلاء القادة القرشيين جندى غطفانى واحد .

فما هو السبب فى هذا الموقف المتكاسل الذى وقفته قبائل غطفان فى هذه الغزوة الكبيرة .

السبب الرئيسي

الذى يظهر لنا أن هناك سبباً رئيسياً واحداً ، وهو أن قيادة غطفان قد يئست (بعد حفر الخندق) من احتلال المدينة إلا بعد تضحيات جسيمة باهظة .

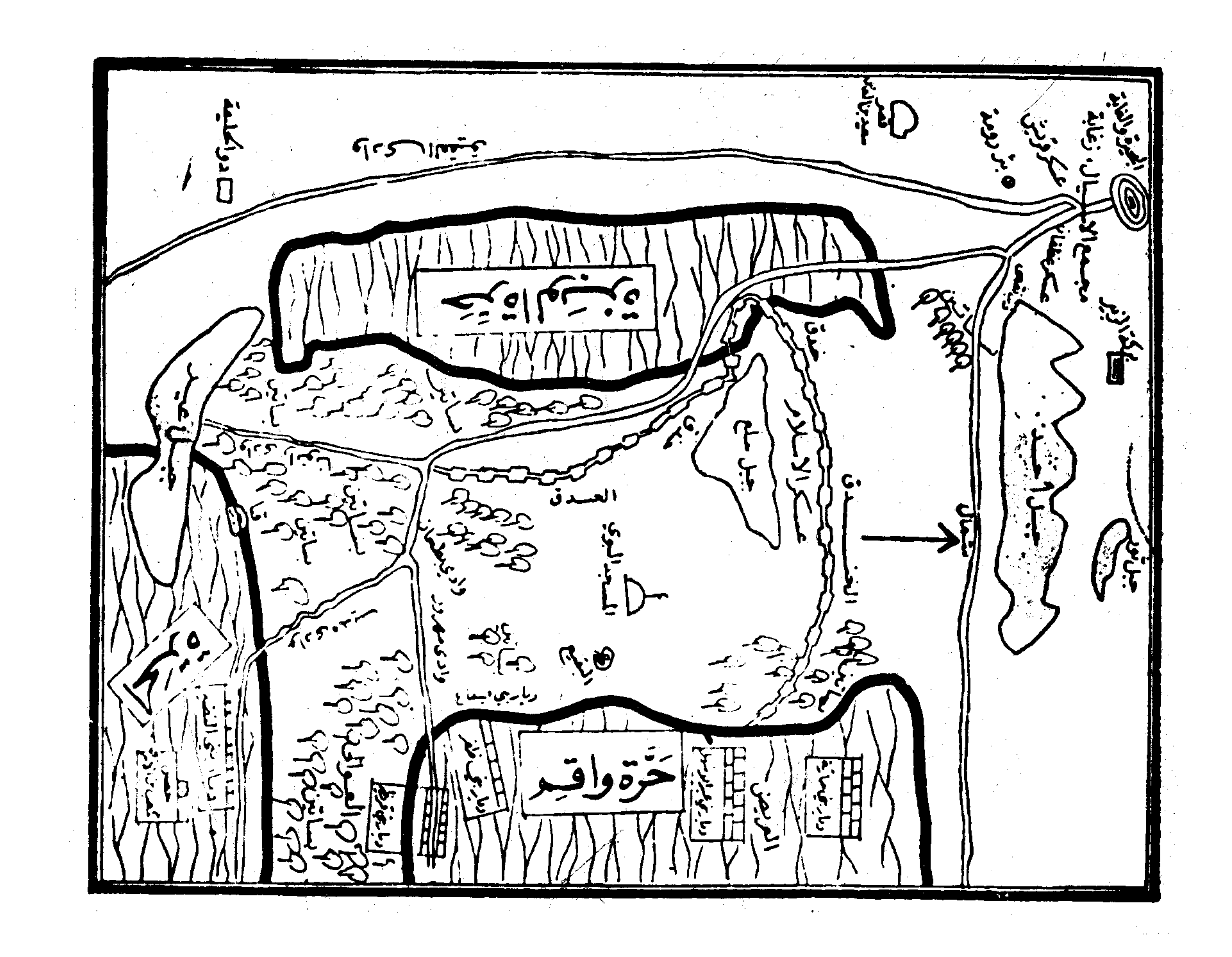
وماكنت غطفان تحمل عقيدة صافية تصلها بالله ، تستعذب الموت فى سبيلها ، وتؤمن بأن القتل تحت لوائها شهادة ترتفع بقتلاها إلى درجة الصديقين والشهداء ، حتى تخاطر بأرواحها فتقتحم الخندق غير مبالية بما يصيبها من قتل وجرح كما هو الحال عندا لمسلمين .

بل لم تكن غطفان - على مايظهر - تحمل للمسلمين ذلك العداء العقائدى المرير المتأصل الذى تحمله يهود وقريش ، وإنما كل رجال غطفان أعراب خلص لايعرفون للغزوات والحروب معنى ، إلا أنها وسيلة (فقط) للنهب والسلب والحصول على المغنم المادى بأقل خسار ممكنة ،

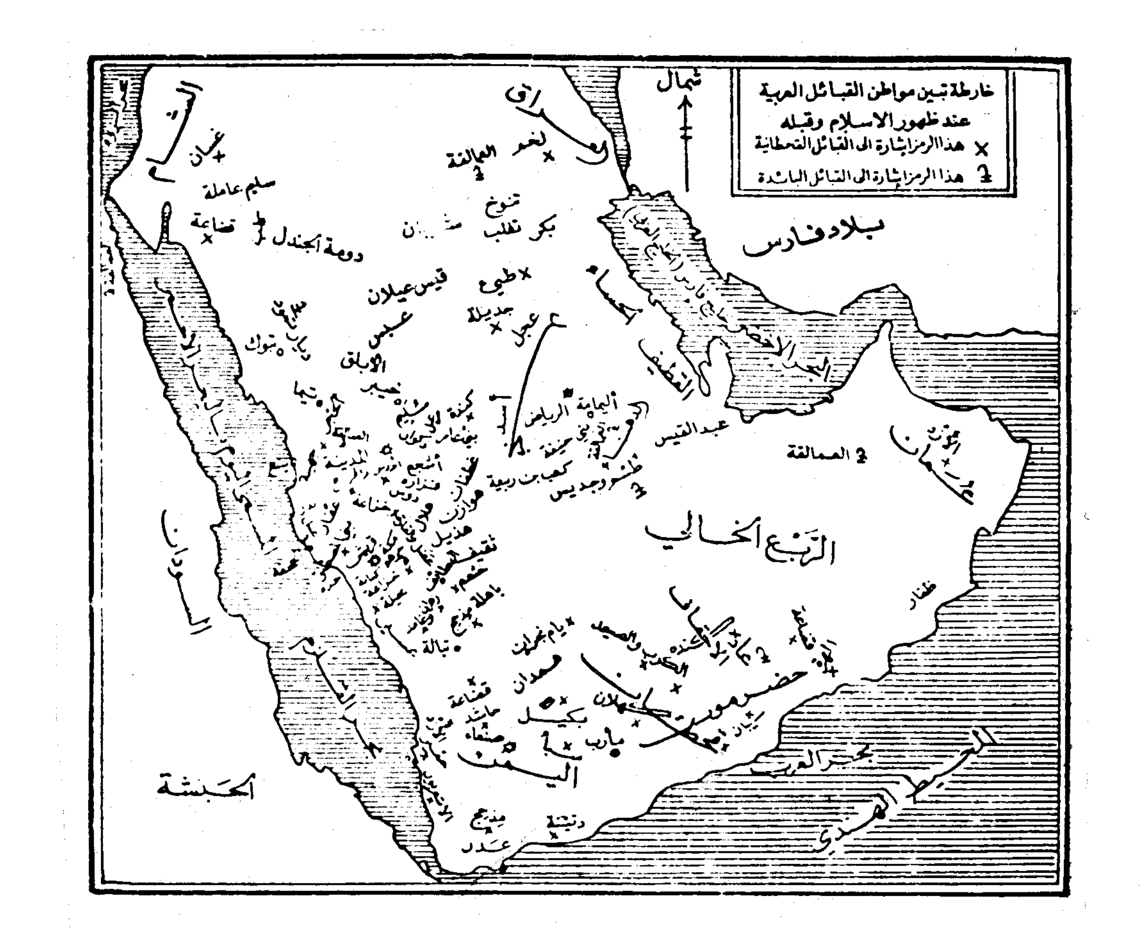
الأمر الذى كان أعراب غطفان يمنُّون النفس بالوصول إليه عندما تحركت جموعهم الغفيرة من مضاربها فى صحارى نجد للمشاركة فى غزو المدينة.

وحيث أن هذه المكيدة الحربية العظيمة التى ما كان العرب يكيدونها (وهى الخندق) قد جعلت من المستحيل على هؤلاء الأعراب الحصول على المغنم بالطريقة التى ألفوها فى حروبهم المكشوفة الخاطفة التى لا تستغرق إلا ساعات قلائل وبصورة مفاجئة ، ورأوا أن احتلال المدينة التى يحلمون بغنائمها ، لن يكون (إذا مانجحوا فيه) إلا بعد مغامرة خطيرة يكلفهم الإقدام عليها مئات القتلى مما يجعل المغنم الذى قد يحصلون عليه يتلاشى (فى حسابهم المادى) أمام هذه التضحيات الجسام التى يبذلونها من الرجال للوصول إلى هذا المغنم المادى ، فإنهم آثروا السلامة على المغنم المحفوف بكل هذه المخاطر الجسام ..

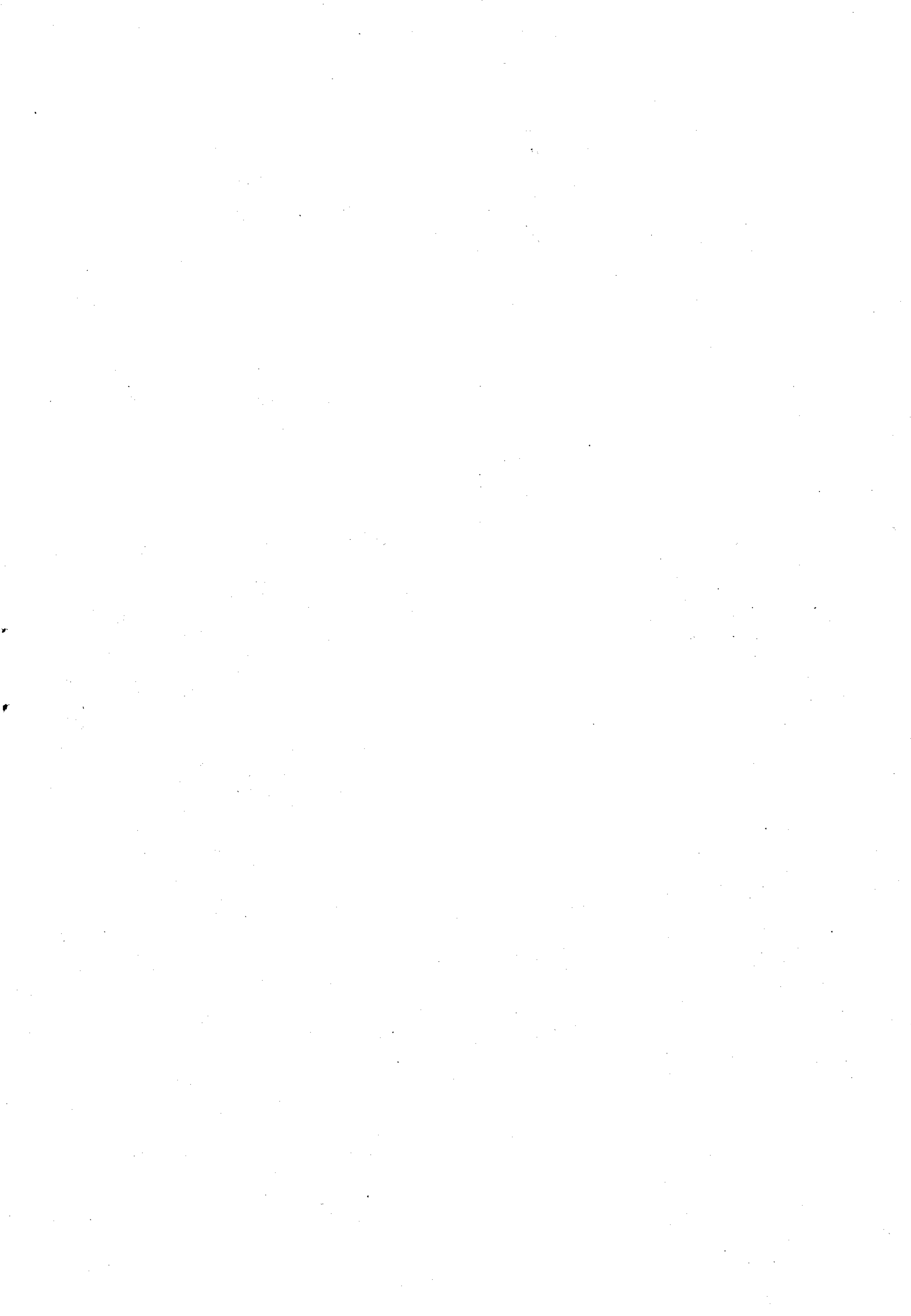
فمن هنا (والله أعلم) جاء إحجامهم عن القيام بأى عمل حربى يعرض أرواحهم للخطر فى هذا الغزو الكبير الذى ماشاركوا فيه إلا للحصول على الغنائم والغنائم فقط ، وحيث أن هذا أصبح مستحيلاً بعد حفر الخندق ، فلا داعى لأن يتعرض هؤلاء الأعراب للقتل أو الجرح ، وهذا أمر يتفق (تماماً) مع منطق الاهداف الصغيرة الضيقة المحدودة التى جاء هؤلاء الاعرب لتحقيقها .



حرة واقم
حرة الوبرة
وادي العقيق
الخندق
المسجد النبوي
جبل سلع



خارطة تبين مواطن القبائل العربية
عند ظهور الاسلام وقبله
× هذا الرمز إشارة الى القبائل القحطانية
هذا الرمز إشارة الى القبائل البائدة
شمال
بلاد فارس
العراق
الشام
غسان
سليم عاملة
قضاعة
دومة الجندل
لخم
العمالقة
تنوخ
بكر تغلب
طيء
قيس عيلان
جديلة
عجل
عبس
تبوك
الابلق
خيبر
اليمامة
الرياض
عبد القيس
العمالقة
كعب بن ربيعة
هوازن
هذيل
طسم وجديس
الربع الخالي
عمان
ظفار
حضرموت
همدان
قضاعة
بكيل
مأرب
صنعاء
اليمن
مذحج
عدن
الحبشة
السودان
البحر العربي



فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ك)

(م)

فهرست الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة